

من أجل بناء عالم بلا فقر والجوع والمرض

# تبسيط التداولية



د. بهاء الدين عليم، مؤلف

المترجم: د. محمد  
 عبد الله بن عبد الله بن عبد الله  
 بن عبد الله بن عبد الله بن عبد الله

من أفعال الثقة إلى بلاغة الخطاب السياسي

## تبسيط التداولية

د. بهاء الدين محمد مزيد

الكتاب : تبسيط التداولية

المؤلف : د. بهاء الدين محمد مزهد

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٠

رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٣٧١٦

التقييم الدولي : 3 - 042 - 493 - 977 - 978 I.S.B.N

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ هضبة الوسطى - المقطم - القاهرة

ت.الفاكس : ٢٧٢٧٠٠٠٤ (٠٢) - ١٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

[www.shams-group.net](http://www.shams-group.net)

تصميم الغلاف : إسلام الشماخ

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل

أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت

إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي

# تبسيط التداولية

د. بهاء الدين محمد مزيد

قسم دراسات الترجمة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة الإمارات العربية المتحدة

قسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة سوهاج







إلى ميرال و مريم و مروة،

اعتذاراً عن الانشغال والتقصير

وإلى أساتذتي،

عرفانا وتقديراً ..

بهاء



## المحتويات

١١	§ أما قبل: طرائق الترجمة ودرجاتها
١٤	- هذا الكتاب
١٨	§ ما هي التداولية؟
٢٠	- كيف تطوّرت؟
٢١	§ السياق
٢٤	- فإن دايد: مقدمة عن السياق
٣٥	- من ضرورات التلقي
٣٧	§ النحو الوظيفي
٤٠	§ المبدأ التعاوني
٤٧	§ التضمنين
٥٠	§ ماذا نفعل بالكلمات؟
٥٧	§ التأدب والقياسة
٦٨	- قياسية أون لاين
٧٠	§ الإشارة
٧٥	- اللغة، إذن، تشير
٧٨	§ التداولية العامة
٨٠	§ التداولية المقارنة
٨٥	§ تحليل الخطاب ولغويات النص
٩٩	- التناص وما إليه
١٠١	- علاقات بين نصية
١٠٣	- بين المعظم والمتعلم

١٠٥	§ التحليل النقدي للخطاب
١١٥	- عن لغة الإعلام واستعارات شئى
١١٦	- حماسة وصقر
١١٦	- الإسلام فضاء وصراط
١١٧	- استعارات منها ما ورد في القرآن الكريم
١١٨	- استعارات معاصرة
١٢١	§ تحليل الخطاب السياسي
١٢٦	- خصائص الخطاب السياسي
١٣٠	§ في العالم العربي
١٣٢	§ نصوص وتطبيقات
١٣٣	- دعاء
١٣٥	- بلاغة إسلامية
١٣٥	- خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع
١٣٩	- عن الإقناع في البلاغة الإسلامية
١٤٠	- خطابة سياسية إسلامية
١٤٢	- الدعاية في التراث الإسلامي
١٤٣	- من أصداء السيرة الذاتية
١٤٥	- خطاب الكرة
١٤٩	- عن خطاب الكرة
١٥٣	- نافذة علي النافذة
١٥٩	- هوامش وتعقيب علي مقتطفات من خطاب سياسي
١٦٧	- نصوص بصرية
١٦٩	§ المراجع
١٨٠	§ المؤلف في سطور
١٨٢	§ شمس للنشر والإعلام

## ثبت الاستطرادات

١١	١. وللتراجمة في النقل طريقان
١٤	٢. وهذا كتاب
١٦	٣. أيها القارئ
٢١	٤. ما البلاغة؟
٣٧	٥. عن الغويات النقدية
٤٢	٦. تخلص
٤٤	٧. العلم والأدب
٥٠	٨. إن لصاحب الحق مقالاً
٥٠	٩. دعائم الكلام أربع
٥١	١٠. اللغة والبيسبول
٥٣	١١. الإنشاء: بذور نظرية أفعال اللغة في البلاغة العربية (١)
٥٥	١٢. الإنشاء: بذور نظرية أفعال اللغة في البلاغة العربية (٢)
٥٦	١٣. صدق الخبر وكذبه
٥٦	١٤. أفعال لغوية سياسية
٥٩	١٥. فوائد قل ما يجمعها كتاب
٦٦	١٦. الكلمة الطيبة
٦٩	١٧. بلاغة الصنعت
٧٠	١٨. عن الالتفات في القرآن الكريم
٨٥	١٩. مثل: أوباما في القاهرة
٨٦	٢٠. مصطلح تحليل الخطاب
٨٦	٢١. والنص
٩١	٢٢. مزالق ومحاذير
٩٦	٢٣. الجنس الخطابي، لا الأدبي
٩٨	٢٤. مصطلح وترجمة
١٠٩	٢٥. في نقد التحليل النقدي للخطاب
١١٤	٢٦. ترجمة المربع الأيديولوجي
١٢٦	٢٧. تحسين القبيح وتقبيح الحسن
١٢٧	٢٨. إضفاء الشرعية وتجريد الآخرين منها





## أما قبل : طرائق الترجمة ودرجاتها

### وللترجمة في النقل طريقتان

"قال الصلاح الصفدي: وللترجمة في النقل طريقتان: أحدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الفاعمة الحمصي وغيرهما، وهو أن ينظر إلى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية، وما نقل عليه من المعنى، فيأتي بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترافقها في الدلالة على تلك المعنى فيلته وينقل إلى الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه، وهذه الطريقة رديئة بوجهين: أحدهما أنه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تغايل جميع الكلمات اليونانية، ولهذا وقع في خلال هذا التعريب كثير من الألفاظ اليونانية على حاشيا، الثاني أن خواص التركيب والنسب الإستدالية لا تطبق نظيرها من لغة أخرى دائما، وأيضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات، الطريق الثاني في التعريب طريق حنين بن إسحق والجوهري وغيرهما، وهو أن يأتي الجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها، سواء ساءت ألفاظها لم خالفها، وهذا الطريق أجود ولهذا لم تحتاج كتب حنين بن إسحق إلى تهذيب إلا في العلوم الرياضية لأنه لم يكن فيما بها، بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي والإنهي فإن الذي عربه منها لم يحتاج إلى الإصلاح، فلما إقيدس فقد هذه ثابت بن قرة الحراني وكذلك المجسطي والمتوسطت بينهما" (البهاء العاملي: الكشكول). وقد قوبل هذا التصنيف بكثير من النقد لما فيه من تبسيط ولأن كثيراً من المحدثين يستشهدون به دليلاً على سبق العرب إلى التمييز بين الترجمة الحرفية والترجمة الوظيفية. ولهذا مقام غير ما تحاول هنا من تبسيط.

من الراسخ في دراسات الترجمة التفريق بين ترجمة حرفية literal، وترجمة حرة، أو وظيفية functional. في هذه القسمة ما فيها من تبسيط، لأن الترجمة الحرفية والوظيفية قد تجتمعان في نص مترجم واحد، وليس هناك ما يبرز الانحياز المنطقي إلى أي منهما، كما أن طرائق الترجمة تتجاوز هاتين الطريقتين، فيما يلي تفصيل هذه الطرائق تاسيما على تصنيف روبنسون Robinson (٢٠٠٣، ص ١٢):

### ١. ترجمة حرفية

literalism، وتعني نقل النص الأصلي إلى اللغة المترجم إليها حرفيا مع التوضحية - التي تنشأ عن عدم الكفاءة أو عن الضرورة - بجمالياته وعناصره الوظيفية. لهذه الطريقة وجاهتها في النصوص العلمية وبعض



النصوص القانونية والدينية والوثائق والأوراق الرسمية.

٢. ترجمة تغريبية **foreignism**، وفيها يحتفظ النص المترجم بخصائص الغريبة في النص الأصلي. على سبيل التمثيل: هل تبقى "boyfriend" و "girlfriend" "صديق" و "صديقة"، لم تتحول إلى "زوج" و "زوجة" أو "زميل" و "زميلة" - من منطلق أن المفهوم الذي تعبر عنه المفردتان الإنجليزيتان لا يتماشى مع الثقافة العربية الإسلامية؟ يحدث هذا كذلك من العربية إلى الإنجليزية، فجد من يترجم "الحج" مثلاً إلى "Hajj"، ومن يترجمها إلى "pilgrimage". والدوافع متشابهة، فمن يبقى على المفردة الإسلامية ويكتفي بتغيير الأبجدية ربما يقبل دخولها الثقافة الغربية، ومن يستبدل بها مفردة إنجليزية ربما يسعى إلى إضفاء روح ثقافته على المفردة العربية. هذا على سبيل التبسيط، لأن التغريب والتغريب لا يمكن اختزالهما إلى أرقام، كما لا ينبغي الإصرار على الاتهام، لأن الاختيار ربما يحدث لمجرد الجهل بالبدل. سوف يجد التغريب من يدافع عنه من خلال الحديث عن ضرورة الأمانة في الترجمة، والارتباط الذي لا ينبغي أن ينقسم بين اللغة وثقافتها وتهافت الرقابة في زمن السماوات المفتوحة، وسوف يجد التغريب من يدافع عنه كذلك من خلال الحديث عن نسبية مفهوم الأمانة، وعن ضرورة الحفاظ على الهوية والقومية.

٣. ترجمة رشيقة **fluency** تحتفظ قدر استطاعتها بجماليات النص الأصلي، وتراعي أساليب اللغة المترجم إليها وتراكيبها، ولو على حساب المعنى أحياناً. هذه النضحية - التي ربما تكون اضطرارية أو قسرية - تُبرر استعارة "الجميلة الخائنة" *les belles infideles* في الحديث عن الترجمة (ومفادها أن الترجمة لا بد أن تنتهك النص الأصلي لكي تكون ترجمة جميلة). في الاستعارة بعض الحقيقة، لكن فيها كثيراً من التجني على الجميلات الفضليات، وعلى الترجمات التي تجتمع فيها الأمانة العلمية مع رشاقة الأسلوب وجمال الصياغة.

٤. ترجمة تلخيصية **summary**، وفيها تلخيص أفكار النص الأصلي، دون تشغيل بلغته، أو تراكيبه، أو أساليبه البلاغية. والخطر الداهم هنا هو ما نعين من سرقة أفكار الآخرين دون الرجوع إلى مصادرهما. لا عيب في التلخيص، إلا ما يشتمل أحياناً من إقحام، أو حذف يشوه الأصل، أو يجمعه لحاجات في نفوس المترجمين، أو من يستخدمهم - إضافة إلى رد الفضل إلى غير أهله.

٥. تعقيب على النص الأصلي **commentary**، لا يترجمه، ولا يترجم أفكاره، إلا للاستدلال أو إقامة الحجة. ولا عيب في التعقيب إذا لم يحاسب النص الأصلي على ما لم يرد فيه، ولا قال به مؤلفه. حتى عند التعقيب تبقى الأمانة ضرورية لازمة.

٦. تلخيص وتعقيب **summary and commentary**، حيث يجتمع تلخيص الأفكار مع مناقشتها والتعقيب عليها، وهو ما يحدث عادة في الدراسات العليا ورسائل الماجستير والدكتوراه. ولا حاجة إلى تكرار الحديث عن المزالق والمخاطر، لأن ما يجرم التلخيص أو التعقيب منفردين يجرمهما مجتمعين.

٧. اقتباس ومعالجة **adaptation**، يعني وضع فكرة أو أفكار النص الأصلي في قالب أو جنس خطابي مغاير، ومن ذلك ترجمة قصيدة إلى قصة قصيرة، أو ترجمة لوحة إلى مقالة، أو ترجمة مسرحية إلى قصيدة. ومن ذلك ما ألفنا في الثقافة العربية من وضع قواعد النحو وأحكام النلاوة في قالب شعري حتى يتيسر حفظها واسترجاعها.

٨. تشفير **encryption**، يعني ترجمة النص إلى شفرة سرية لا يفهمها إلا نخبة يجمعها السن أو التخصص، أو الميول والاهتمامات.



## هذا الكتاب

### وهذا كتاب

"وهذا كتاب موعظة وتعريف ونفقة وتبوية، وأراه قد عبته قبل أن تلقى على حنوده، وتتفرق في قصوده، وتعتبر آخره بأوله، ومصادره بموارده، وقد غطت فيه بعض ما رأيت في أثنائه من مزح لا تعرف معناه، ومن بظافة لم تطلع على غورها، ولم تدرك أجليته، ولا لأي علة تكلفت، وأي غريم أريد بها، ولأي جد أحتمل ذلك الهزل. ولأي رياضة تجشمت تلك البطالة؛ ولم نشر أن المزاح جد إذا اجتبى ليكون علة للجد، وأن البطالة وقار ورزاق، إذا تكلفت لتلك العاقبة، ولما قال الخليل بن أحمد: لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه، حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه، قال أبو شعرة: إذا كان لا يتوصل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج إليه، فقد صار ما لا يحتاج إليه يحتاج إليه، وذلك مثل كتابنا هذا؛ لأنه إن حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على مر الحق، وصنعوية الجد، وثقل العبث، وحشية الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلا من تجرأ العظم، وفهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر قلبه من عزده، ونال سروره على حسب ما يورث الطول من الكد، والكثرة من السأم..." (الجاحظ: الحيوان، موقع الورق، ص ١٢).

لعل من الملائم أن نسوق هذه المقدمة (أو فيها يشرح الجاحظ علة ما يحتويه كتابه من مزح) في مقام التبرير، تبرير الكلام عن الترجمة في مقدمة تبسيط التداولية. في مقدمة الجاحظ جملة نعطها ذميت مثلاً، وإن لم تكن قد فعلت فهي جديرة أن تفعل. ألا وهي "لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه". أما تبرير الكلام عن الترجمة في مقامنا الراهن فهو بيان أن الترجمة في مقامها الرحب تشمل ما يجد القارئ في هذا التبسيط من تلخيص وتعليق ومعالجة، هذا إلى ما فيه من ترجمة بالمعنى الضيق للمصطلح.

ما علاقة كل ما سبق بما نحن بصدده في هذا التبسيط؟ إذا كانت الغاية هي تقديم التداولية للقارئ العربي، دون ادعاء سبق، لأن المقاربة ليست الأولى، فلماذا لا نترجم نصاً من النصوص المؤسسة في التداولية - كتاب لجون سيرل أو لجون أوستن أو لجيفري ليفتش، على سبيل المثال؟ الإجابة يسيرة وحاضرة: لأن أيًا من هذه النصوص لا يحتوي كل أطروحات التداولية ومفاهيمها وأدواتها، ولأن ما في كل نص على حدة ربما لا يفيد القارئ في السياق العربي - من تفاصيل، واستطرادات، وإحالات إلى سياقات غريبة، وهوامش مرهقة، وغير ذلك، على أن هذا لا ينبغي أن يكون مبرراً

لسمرة أفكار الآخرين. من هنا، تؤثر المقاربة الراهنة ترجمة الأفكار الأساسية والمصطلحات وتعريفاتها وبعض الأمثلة، على سبيل التلخيص، مع تطوير تلك المصطلحات والتعريفات بما يناسب اللغة العربية، بما يضمن حداً أدنى من القبول، وإضافة أمثلة وتوضيحات قريبة من العقل العربي وتعقيبات وإحالات إلى البلاغة العربية، على سبيل المعالجة والتأصيل، بما يناسب المقام والفكرة والمصطلح.

هذه التداولية، إذن، تبسيط مُخلٍ مهما طال، ينطلق من كتابات أوسن Austin (1962)، وجرايس Grice (1975)، وسيرل Searle (1975)، وليكوف Lakoff (1973)، وليتش Leech (1983)، وهاليداي Halliday (1985)، وغيرهم، ودراسات الخطاب عند دي بوجراند De Beaugrande، وفان ديك van Dijk، والتحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي عند الأخير وعند بول تشيلتون Chilton وشيفنر Schaffner، وغيرهم، لكنه لا يتوقف عندها. والغاية في كل ما يرد بعد هذه المقدمة هي التبسيط، وتقديم بعض المفاهيم والنماذج والقواعد والأنواع القابلة للممارسة والتطبيق. لا تريب على هذا التبسيط إذا أغفل المناقشات الفلسفية، وتفاصيل التفاصيل، والانتقادات، والانتقادات المضادة، والتفريعات، وجدل المصطلحات، وقضايا الحدود بين التخصصات، والنظريات والاتجاهات اللغوية، لأن هذا له مقامات أخرى. ولا تريب على هذا التبسيط إذا وجد فيه الفاروق كثيراً من التصرف، لأن التصرف بما يضمن وصول الفكرة على حساب الترجمة الحرفية الكاملة هو بعض أدواته. غير أن التصرف لا يعني بحال من الأحوال أن ننسب إلى مؤلف ما لم يقل، إنما يعني أن نقرّ له بالفضل في ترسيخ الفكرة وتقديم المصطلح وتطوير النظرية أو النموذج، ثم ننطلق منه إلى التعريب والتوضيح والتعميل، وإلى ما يناسب ذلك من نصوص البلاغة العربية ومقولاتها.



قد تبدو فصول هذا

التبسيط غير

مترابطة، لكنها ليست

كذلك. إنَّ الفصول

التي يضمُّها هذا

الكتاب هي

الموضوعات الكبرى

في التداولية، وما

يتصل بها من تحليل

الخطاب على وجه

الصوم، وتحليل

الخطاب السياسي

على وجه

الخصوص. يبدأ

التبسيط بمسؤولين: "ما

هي التداولية؟"

و"كيف تطوّرت؟"

وتشمل هذه البداية

الموجزة تعريف

التداولية، وترجمتها،

ونبذة عن جذورها

وخلفياتها. يتبع ذلك

الكلام عن السياق،

خصوصاً ذلك

## أيها القارئ

"أيها القارئ!

هذه مقالات مختلفة في مواضيع شتى كتبت في أوقات متفاوتة، وفي ظروف وأحوال لا علم لك بها ولا خير على الأرجح. وقد جمعت الآن وطبعت وهي شياخ المجموعة منها عشرة قروش لا أكثر! ولست أدعي لنفسى فيها شيئاً من العمق أو الابتكار أو السداد، ولا أنا أزعجها ستحدث انقلاباً فكرياً في مصر أو فيما هو دونها، ولكني أقسم أنك تشتري عصارة عقلي وإن كان قليلاً، وثمرة إطلاعي وهو واسع، ومجهود أعصابي وهي سقيمة، بأخس الأثمان! وتعال نتحاسب! ... وفي الكتاب عيب هو الموضوع فأعرفه! ومنقروه بلا نصب، وتلقمهم بلا عناء ثم يخيل إليك من أجل ذلك أنك كتبت تعرف هذا من قبل وأنت لم تزد به علماً! فرجاني إليك أن توقف من الآن أن الأمر ليس كذلك وأن الحال على نقض ذلك" (إبراهيم عبد القادر المازني: حصاة الهشيم، المقدمة، ١٩٦٤، القاهرة: طبعة مكتبة الأسرة، ٢٠٠١، ص ٣-٤). هذه مقدمة أخرى لطيفة لكن طرافتها ليست تبريراً شافياً لوجودها هنا. السياقان مختلفان - سياق هذا الكتاب وسياق حصاة الهشيم - وكذا قيمة كل من الكتليين وأهدافهما وأسلوبهما. لكن من اللائق أن أعترف بمثل ما اعترف به المازني في قوله "كنت أدعي لنفسى فيها شيئاً من العمق أو الابتكار أو السداد، ولا أنا أزعجها ستحدث انقلاباً فكرياً في مصر أو فيما هو دونها".

أما أن الكتاب "عصارة عقلي... وثمرة إطلاعي... ومجهود أعصابي..." فهذا مما لا أستطيع أن أذهب فيه إلى ما ذهب إليه المازني. هذا التبسيط ثمرة سنوات من التعلم والقراءة والتعليم. والحال هكذا، فلا بد أن أود الفضل لأهله من أساتذة أفدت من علمهم تتلمذاً أو قراءة أو استماعاً أو مراسلة، ومن تجاوزت معهم من زملاء وأصدقاء وطلاب، ومن لم أشرف بالتعرف إليهم من أساتذة قرأوا ما كتبت فأعانوني على إصلاح كثير مما فيه من عيوب. أما ما بقي بخير إصلاح، فلا تثريب فيه عليهم. ولا تثريب عليهم فيما يضم الكتاب من ترجمات، وكلها لكتابته ما لم يرد غير ذلك في موضعه.

النصّور الذي قسّمه دل هايمز، ثمّ النحو الوظيفي وأطروحات هاليداي، وتصنيفه وظائف اللغة وأفعالها، ثمّ المبدأ التعاوتي لبول جريس، وهو الأساس الذي قامت عليه نظريات الكياسة واللياقة، وأمثلة لتوظيفه توظيفاً ذكياً في النشر العربي، ثمّ التضمين وما يرتبط به من الافتراض المسبق والمعلوم من التلقظ أو الجملة بالضرورة، وجميعها تتصل اتصالاً وثيقاً بهذا المبدأ، وتفسّر كثيراً من انتهاكاته لتحقيق غايات بلاغية، ثمّ نظرية أفعال اللغة في فصل "ماذا نفعل بالكلمات؟"، وهو فصل تأسيسي مهم تنطلق منه جملة مفاهيم تداولية، ثمّ التائب والكياسة والنظريات المهمة في هذا الصدد لليكوف ولينش وبراون ولينغتون، ثمّ الإشارة التي تتجاوز ما نعرف من أسماء الإشارة إلى الإشارة الاجتماعية والخطابية والزمنية والوجدانية، تتبعها نبذة عن التداولية العامة التي طوّرها هابرماس، وتسعى إلى التوفيق بين النظرية والتطبيق، ثمّ تحليل الخطاب ولغويات النص، وما يرتبط بهما من دراسة السبك والحبك وشروط النصيّة، ثمّ التحليل النقدي للخطاب ومفاهيمه، ومنطلقاته، وأدواته، ثمّ تحليل الخطاب السياسي، وهو امتداد مهم لتحليل الخطاب التقليدي والنقدي. يلي ذلك تعريج على دراسات تحليل الخطاب (السياسي) في العالم العربي، وينتهي الكتاب بمجموعة من النصوص والتطبيقات لبعض ما ورد فيه من أدوات ومفاهيم.

وفي الكتاب عددٌ كبير من الاستطرادات ترد في نهاية كل فصل من فصوله، بعضها لا تبدو نظرة أو مقحمة، بعضها استطرادات مهمة عن المفاهيم، أو الأدوات، أو الأطروحات التي يتناولها الكتاب، وبعضها أمثلة طريقة في مواضعها، وبعضها إشارات إلى البلاغة العربية بما يناسب المقام، وبعضها اقتباسات مهمة ذات صلة بموضوعات الكتاب، أو تعليقات على ما فيه من مصطلحات، أو على مشكلات ترجمة التداولية في الثقافة العربية.



## ما هي التداولية؟

التداولية لغة من التداول، والتداول تفاعل، وكلُّ تفاعل يلزمه طرفان على أقل تقدير: مرسل ومستقبل، متكلم وسماع، أو مستمع، كاتب وقارئ، على معنى أن مدار اشتغال التداولية هو مقاصد وغايات متكلم، وكيف تبلغ مستمعا أو متلقيا، وكلُّ تداول تحكمه ظروف وأليات وعوامل تحيط به، لذا فالترجمة لها ما يبررها، وينتو منها قد استقرت بالفعل على حساب "البراجماتية" و"البراغماتيكية"، وهما، بالإضافة إلى "اعجميتهما"، ربما تؤذيان إلى خلط بين المفصود في هذا التبسيط والمدرسة الفلسفية المعروفة بالنفعية أو النزاعية Pragmatism (البراجماتية أو البراغماتية)...

لما اصطلاحا، فالتداولية Pragmatics هي دراسة اللغة قيد الاستعمال أو الاستخدام language in use، بمعنى دراسة اللغة في سياقاتها الواقعية، لا في حدودها المعجمية، أو تراكيبها النحوية، هي دراسة الكلمات والعبارات والجمل كما نستعملها ونفهمها ونقصد بها، في ظروف ومواقف معينة، لا كما نجدها في القواميس والمعاجم، ولا كما تقترح كتب النحو التقليدية. خذ مثلا كلمة "شكرا"، في لسان العرب لاين منظور "الشكر: عرفان الإحسان ونشره، وهو الشكور أيضا. قل نطبخ: الشكر لا يكون إلا عن يد، والحمد يكون عن يد وعن غير يد، فهذا الفرق بينهما. والشكر من الله: المجازاة والثناء الجميل، شكره وشكر له يشكر شكرا وشكورا وشكرقا.

وفي استعمالاتنا اليومية، تتجاوز الكلمة مجرد العرفان بالإحسان ونشره، فتشأ عنها معان جديدة، ودلالات تتجاوز حدودها المعجمية الضيقة مهما سمعت، فريما أوجت بالرفض، أو التهكم، أو الضيق. مثل آخر: ماذا تقول معاجمنا العربية عن "الحرارة"، و"البرودة"، و"البينة"؟ لا بد أن ما يرد فيها (من نكر الحر بوصفه نقيض البرد، و"البينة بوصفها ما يحيط بنا من كائنات وأشياء وظروف) يقصر عن إيراد كل ما نعي تلك المفردات في سياقاتها الراهنة المتباينة (من قبيل الدماء الحارة، وحرارة

النقاء، وبرودته، وبرودة المشاعر، والبيئة صفة لكل ما هو حثير في بعض اللهجات العربية المعاصرة). يصدق هذا على العبارات والجمل والنصوص.

بهذا المعنى، تمثل التداولية، في انشغالها بعلاقة العلامات بمنتجها، ومستقبلها، وسياق إنتاجها، وتلقيها، الضلع الثالث من أضلاع مثلث علم العلامات وفق توصيف موريس Morris (١٩٣٨)، أما الضلعان الأول والثاني فهما النحو Grammar وعلم الدلالة Semantics. ينشغل النحو بعلاقة العلامات بعضها ببعض، أي علاقة المفردات، والألوان، والروابط في العبارة، والجملة، والقص، أي ببناء الجملة والعبارة، والعلاقات التي تربط بين مكوناتها. أما علم المعنى أو الدلالة فيتناول علاقة العلامات بما تشير إليه، سواء كانت أشياء، أو كائنات، أو تصورات.

على سبيل التبسيط، نتوقف عند مثال واحد، وهو كلمة "عسل". من وجهة نظر نحوية يلتفتنا أفراد هذه الكلمة ودخولها في علاقات بنائية، كالصفة في علاقتها بالموصوف، والتعريف والإضافة، في عبارات وجمل من قبيل "عسل طيبة"، و"عسل التحل"، و"العسل فيه شفاء للناس". من ناحية المعنى، تحيل المفردة إلى مادة نعرفها، وإلى ما يرتبط بها من الصفاء والشفاء، أما من ناحية التداولية، فتكتسب المفردة دلالات متباينة، وربما متناقضة، في سياقات مختلفة، ولإغراض شتى، كالمدح، والوصف، والقرل، وربما التهكم.

يصدق هذا - على ما فيه من تبسيط - على سائر المفردات والعلامات، وقد كان من أثر تطور علم العلامات - وهو يستحق تبسيطاً منفرداً ومعالجة وافية - أن تجاوزت أضلاع المثلث الثلاثة - النحو وعلم الدلالة والتداولية - حدود اللغة التقليدية الضيقة، إلى رحابة العلامات، على معنى أن للصورة أبعادها التركيبية والدلالية والتداولية، واللون، والحركة، والرائحة، وللإجماء، وغير ذلك من صنوف العلامات، ولها ما للمفردات من معان قريبة، وأخرى بعيدة، وفيها ما فيها من تشبيهات واستعارات. وسوف نجد طرفاً من ذلك في هذا التبسيط.



## كيف تطوّرت؟

تطوّرت التداوليّة ضمن مجموعة من المقاربات اللغوية، من بينها تحليل الحوار Conversation Analysis، وتحليل النص Text Analysis، وتحليل الكلام/الخطاب Discourse Analysis، بوصفها امتداداً طبيعياً لأطروحات النحو الوظيفي Functional Grammar التي طوّرها هاليداي (١٩٨٥). كما ترد الإشارة إلى ذلك لاحقاً، ومنها أنّ المعنى ليس فيما يقول الشخص، ولا ما تقول المعاجم، على ما لكليهما من أهمية، ولا في العمليات المعرفية المجردة من سياقاتها، لكن فيما يقصد من يستخدم اللغة وما يريد، وفيما يفهم من يتلقاها - استماعاً أو قراءة - وفيما ينتج من دلالات من خلال ظروف السياق.

وقد أصبح السياق، وهو موضوع الفصل التالي من هذا الكتاب، مفهوماً مركزياً في كل الاتجاهات الوظيفية، بما في ذلك التداوليّة، وكان لتصور داي هاليمز عن عناصر السياق أصداؤه الواسعة التي تظلّ تتردّد حتى اليوم. ومن مقننات التداوليّة كذلك نظرية أفعال اللغة/الكلام كما طوّرها جون أوستن وجون سيرل، والمبدأ التعاوني ومفهوم التضمين عند بول جرايس. حتى إذا استوت التداوليّة وتحليل الخطاب (مترافقين، أو متمايزين، أو متداخلين) على سوقهما، نشأت الحاجة إلى منظور نقدي سياسي، فكان التحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي.

## السياق

### ما البلاغة؟

"قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الفصل، وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام، وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الانقباض عند البداء، والفرارة يوم الإطالة، وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وفتهاز الفرصة، وحسن الإتمارة، وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة ينصر بثلاثة، والمعرفة بمواضع الفرصة، ثم قال: ومن البصر بثلاثة، والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدخ الإقصاص بها إلى الكلية عنها، إذا كان الإقصاص أوعز طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الشرح، وأحق بالنظر، قال: وقال مرة: جماع البلاغة تتمثل حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الخرق بما التمس من المعنى أو غرض، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر (الجاحظ: البيان والتبيين، ص ٢٧. من موقع الوراق).

في مربع النص المرفق بعض ما ورد في البلاغة العربية عن "المقام" - وهو ما يقابل مفهوم speech situation في المقاربات الغربية - عند الجاحظ، من اقتباسات تؤكد على تحيين الفرصة المتاحة والظروف المناسبة لإيجاز المهام البلاغية التواصلية، ومن كلامه عن بلاغة الإقناع، وعند الجرجاني، في ربطه العبارة بالمقاصد في دراسته لنظم والإعجاز، وغيرهما.

في الغرب، كان لمقولات دل هايمز Hymes (١٩٧٢) عن الكفاءة التواصلية Communicative Competence - التي تتجاوز مجرد الكفاءة النحوية والصرفية والصوتية وفهم المفردات المجردة،

إلى فهم الموقف والسياق، واختيار المفردة المناسبة في المكان المناسب، إذا جاز التعبير، وما إلى ذلك - تأثيرها البالغ في تطور الندولية اللغوية، ومن أطروحات هايمز المهمة كلامه عن السياق، وما يندرج تحته من عوامل ومتغيرات لخصها في كلمة SPEAKING (١٩٧٤، ص ٥٤-٥٧). فيما يلي بيان وتوضيح مضاهها،



مع استطرادات مُضافة، وسوف تتردد هذه العناصر والمكونات في كل ما يلي من أجزاء هذا التبسيط:

§ المكان والزمان Setting - ما يُقال في البيت ربما لا يجوز أن يُقال في المسجد أو الجامعة، وما يمكن أن نقبله في توقيت بعينه ربما لا نقبله في غيره.

§ المشاركون Participants - من يتحدث إلى من؟ وعن؟ وفي حضور من؟ وما العلاقة التي تربط أطراف الحوار أو الخطاب؟ بنوة، أم صداقة، أم زمالة، أم زواج، أم عداوة، أم تنمذ، أم غير ذلك - كلها متغيرات مهمة تشكل اللغة، وتؤثر في اختيارات من يستخدمها على مستوى المفردات، والتركييب، والصيغ. غير أن ما ينبغي أن يركز عليه التناول هو علاقات التقارب والتباعد التي تصل أو تفصل بين المشاركين. وهذا جانب من التحليل وجد عناية خاصة من نقاد التداولية التقليدية فيما بعد.

§ الغايات والأهداف Ends - لماذا نتكلم، أو نتحاور، أو نكتب؟ ربما يفرض الإقناع، أو الإخبار، أو الإيهام، أو الكذب، أو الخداع، أو الترغيب، أو الترهيب، أو النصيح، أو التحذير، أو التعليم، أو التهنيب، أو التجميل، أو التثوية، أو المدح، أو الذم، أو غير ذلك. في البلاغة العربية فصول ناصعة عن الأغراض الشعرية، من وصف، وغزل، وتشبيب، ورثاء، وهجاء، وفخر، وهكذا، ولا بُد أن من طالع بعض هذه الفصول قد وقف على تأثير الغرض الشعري في المفردات، والصياغة، والإقناع. على أن دراسة غرض الخطاب لا ينبغي أن تقتصر على النصوص الشعرية، ولا اللغوية، بل يجب أن تتجاوز ذلك إلى كل ما يُنتج دلالة، لأنه ينتجها لتحقيق غاية.

§ تتابع وحدات النص / الخطاب، وترابطها Act Sequence - كل خطاب يقع بين خطابين: سابق ولاحق، ويرتبط بهما، وربما تروي طرفة تعقياً على بعض ما يقول مُحذرك، وربما تذكره بآية من القرآن الكريم، أو حديث شريف، وربما يعقب الاعتذار القبول، أو الإعراض، ويعقب التهنية الشكر. وفي الرسالة تحية، وسلام، فسؤال عن الحال والمال، ثم الوفاء بفرض الرسالة، فالأمنيات الطيبة، والسلام.

§ الجو النفسي ونغمة الحوار / النص Key. يتجاوز مفهوم النغمة في هذا السياق مجرد الحزن أو البهجة، إلى غير ذلك من سخرية، أو تهكم، أو جدية، أو وقار، أو فكاهة. ولا بدّ أننا لاحظنا أنّ الحدود التي تفصل بين الجو النفسي وغرض النص وأهية، لا تكاد تبين في غالب الأحوال، فلا بدّ أن يشمل الهجاء على شيء من التهكم، والبكاء على الأطلال على حزن وفجيرة.

§ آليات تحقيق الغايات البلاغية والخطابية Instrumentalities ووسائلها وأتواتها - من مفردات مختارة بعناية، وتركيب ملالمة، وصور وتعبير، وتوظيف لصنوف الاتصال غير اللفظي. لا حصر لما يمكن أن يستخدم المتكلم أو الكاتب من أدوات لتحقيق غاياته البلاغية والتواصلية.

§ القواعد التي تحكم إنتاج النص / الخطاب وتلقيه Norms من قواعد لغوية خطابية تنسجم مع جنس الخطاب وغاياته، وقواعد اجتماعية تنظم استخدام اللغة وإنتاج الخطاب عموماً، وقواعد تقنية تنسجم مع الوسيلة التي ينتقل من خلالها الخطاب.

١ الجنس/النوع الخطابي الذي ينتمي إليه النص / الخطاب Genre (من الالتزام في هذه المرحلة من نضج التداولية وتحليل الخطاب أن نتخلّى عن مفهوم الجنس الأدبي، ما معنا لا نتحدث عن الأدب، لصالح المصطلح الأرحب، وهو الجنس أو النوع الخطابي). نفرض لجناس الخطاب المتباينة قيوداً مختلفة على إنتاجه. حين نقرأ تقريراً إخبارياً عن مباراة في كرة القدم، نتوقع أن نجد استعانة لما جرى في شوطيها، وما حفلت به، أو لم تحفل به، من أهداف، وأحداث أخرى مؤثرة، ونتوقع أن نعرف أسماء اللاعبين، وطاقم التحكيم، وزمان المباراة، ومكانها، وما إلى ذلك. نتوقع كذلك سرداً في صيغة الماضي، وأفعال حركة، وتحول، واستعارات "حريية"، وطرائق سبك وحبك تحيل إلى الزمان من بداية المباراة حتى نهايتها.

ومن الكلام عن السياق ما ورد عن مالىنوسكي ومن بعده روجر فاولر Fowler (1989) من تصنيفه إلى سياق الجملة أو العبارة (السياق اللغوي) context of



utterance، وسياق الموقف context of situation، وسياق الثقافة context of culture، وهو تصنيف ينتقل من الضيق إلى السعة - من سياق الكلمات والتراكيب، إلى ما يحيط بها من ظروف الزمان والمكان، والظروف الاجتماعية، والعلاقات بين المشاركين في الخطاب، إلى الثقافة التي ينتج فيها الخطاب، وما تشمل عليه من قيم، ومعتقدات، وعادات وتقاليد، وظقوس وشعار، وأساطير، وغير ذلك.

# 1

فان داك (٢٠٠٨)

مقدمة عن السياق

قبل ثلاثين عاماً، ألفت كتاباً بعنوان (النص والسياق) تناولت فيه مفهوم النص تناولاً شاملاً جداً مصحياً، لكن السياق - وبما له من أهمية بالغة في فهم الجذور الاجتماعية للخطاب - لم يحظ بنفس هذا التناول في الكتاب. فيما أعقب ذلك من دراسات في مجال التحليل النقدي للخطاب - على سبيل المثال في دراستي عن العنصرية والأيديولوجيا والخطاب - تناولت السياق بتوسع وإسهاب بوصفه خلفية اجتماعية للخطاب، غير أنني لم أتناوله من الناحية النظرية.

لقد درج تناول السياق في دراسة اللغة والخطاب بالنظر إلى عدد من المتغيرات الاجتماعية المستقلة، كالنوع والطبقة الاجتماعية والخلفية العرقية والسن والهوية، أو الظروف الاجتماعية التي تحيط بالخطاب نصاً كان أم كلاماً. في دراسات الإشارة indexicality سواء من جوانبها الشكلية النحوية أم من زاوية إنتاجها الاجتماعية، يرد تعريف السياق دلالياً بمعنى ما يُشار إليه أو ما تحيل إليه التعبيرات

الإشارة. لكن يبقى هذا التعريف قاصراً ومحدوداً بالإشارة إلى الزمان والمكان. فسي نظرية الفعل الكلامي (اللغة) **Speech Act Theory** تفصيل بعض سمات من يتكلم ومن يسمع أو يستمع - من خلفياتهما المعرفية ورغباتهما ومكاشاة كل منهما الاجتماعية - تفصيل يسعى إلى صياغة أشراف المعالجة وضرورتها. لكن النظرية في نسخها المتعاقبة لم تسع إلى تحليل هذه الأشراف والضرورات السيكولوجية تحليلاً منهجياً رصيناً.

في التحليل النقدي للخطاب **Critical Discourse Analysis**. تحظى الظروف الاجتماعية التي تحيط بالخطاب باهتمام كبير، خصوصاً ما يتصل منها بالقوة (أو السلطة) **Power** وسوء استخدامها، لكن هذا الاتجاه فشل أيضاً في تطوير نظريات واضحة المعالم للسياق تعينه على ترسيخ مشروع النقد. إن القوة لا تتبدى في بعض أبعاد "خطاب الأقوياء" فحسب، بل تبقى الحاجة إلى فهم سياقها الواسع المركب حتى تتجلى علاقتها بالخطاب نصاً كان أم كلاماً وحتى نفهم كيف بعيد الخطاب إنتاج البنى والأشواق والعلاقات الاجتماعية.

وقد تطورت الدراسات النفسية المعرفية للخطاب وكذا دراسات الذكاء الاصطناعي تطوراً ملموساً في العقود الأخيرة فيما يتصل بالتعرف على العمليات والتمثيلات الذهنية التي يشتمل عليها إنتاج الخطاب وتلقيه. ألقى هذا التطور الكثير من الأضواء على الدور الجوهرية المهم للنماذج الذهنية والمعرفية فيما يتعلق بمعالجة الخطاب وتداوله. غير أن هذه النماذج ظلت دالية في جعلتها على حساب الجوانب التداولية. ويستثناء عدد من الدراسات التجريبية التي تناولت الفروق الفردية والاختلاف المقاصد والأهداف، لم يحظ أثر السياق في معالجة الخطاب بما يستحق من دراسة عملية منهجية منتظمة.

لما علم النفس الاجتماعي فهو من بين فروع المعرفة القليلة التي طورت وقسمت أفكاراً عن بنية المواقف والوقائع والأحداث الاجتماعية من الممكن أن تكون أساس نظرية سيكولوجية. غير أن هذه الأفكار لم يكن يقصد بها سياق الخطاب. في الحقيقة يبقى



الانشغال بدراسة الخطاب هامشياً في علم النفس الاجتماعي إجمالاً، إلا في التحليل النفسي للخطاب أو "علم نفس الخطاب" إذا جاز التعبير، Discursive Psychology و إذا كان لأي من فروع المعرفة أن يلقى الضوء على طبيعة السياق وأثره في الخطاب، فلعلم الاجتماع أن يفعل ذلك، لكن المفارقة هي أن التأثير المهم لعلم الاجتماع في دراسة وتحليل الخطاب قد ذهب إلى تحليل المحادثة أو الحوار conversation analysis الذي ظل - على الأقل في بداياته - مُجتثاً من سياقه أكثر من تحليل الخطاب، يركز على بنية التفاعلات اللغوية وتنظيمها على حسب زمناتها ومكاناتها وسمات المشاركين فيها. غير أن علينا أن نتوقف هنا عند المحاولات المنتشرة في عقود سابقة لتحديد وتعريف المواقف الاجتماعية social situations في علم الاجتماع والتي بلغت نضجها في كتابات إرفنج جوفمان Goffman - ولعله أكثر علماء الاجتماع إسهاماً في إلقاء الضوء على أثر الموقف الاجتماعي في الكلام والتفاعلات اللغوية.

غير أن الأنثروبولوجيا، خصوصاً دراسة بينات الكلام ethnography of speaking والأنثروبولوجيا اللغوية، هي الوحيدة من بين الاتجاهات البحثية التي تشق باللغة التي اهتمت اهتماماً واضحاً لعقود عدة بدراسة السياق بوصفه مكوناً جوهرياً من مكونات "الوقائع أو الأحداث التواصلية"، بداية من طرح دل هايمز Hymes تصوّره عن تلك المكونات والذي اختزله في كلمة SPEAKING في ستينيات القرن الماضي. يتصل بذلك ما قام به جون جومبيرز Gumperz من دراسات إثنوجرافية وما أجرى غيره من دراسات في علم اللغة الاجتماعي التفاعلي Interactional Sociolinguistics تتناول تحليل اللغة في سياقاتها الاجتماعية contextualization. وحتى يومنا هذا، يظلّ هذان الفرعان من الأنثروبولوجيا منفردين فيما يُنشر من دراسات وكتب عن السياق ووضع اللغة في سياقاتها الاجتماعية.

من خلال ما سبق من عرض موجز، نستطيع أن نخلص إلى أن هناك اهتماماً متزايداً بدراسة السياق في كل فروع المعرفة في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، غير أن هذا الاهتمام ما زال يعوزه التركيز. هناك آلاف من الكتب في غير فرع من فروع المعرفة نجد في عناوينها كلمة "السياق" context لكن في جُلّ هذه الكتب نقتصد المفردة الصرامة الدلالية، فتشير إلى "البيئة" أو "الموقف" أو "الخلفية" أو "الظروف" الاجتماعية أو السياسية أو الجغرافية أو الاقتصادية، ويندر أن ترد بمعناها المحدد وهو "سياق النص أو الكلام".

وهناك عدد لا بأس به من الكتب في اللغويات ودراسات الخطاب والعلوم الاجتماعية يرد فيها السياق بوصفه مجموعة من القيود التي تحيط بالخطاب وتحدد نتائجه وتوابعه، غير أن هذه الدراسات تركز في جملتها على الخطاب ذاته، لا على سياقاته المعقدة المتشابكة. ليس هذا بمستغرب لأن مفهوم السياق لا يمكن أن يتجلى إلا بالنسبة إلى النص، على معنى أن النص - أو الكلام - هو الظاهرة المحورية وبؤرة الاهتمام. أما السياق فتكمن أهميته في إلقاء مزيد من الضوء على الخطاب وتيسير تحليله وفهمه. وإذا لم يؤد السياق هذا الدور، فإن دراسته المجردة تنتمي إلى علم النفس أو علم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا في دراستها الزمان والمكان والفاعلين في المجتمع وسماتهم المميزة وكذا مداركهم ونشاطاتهم وتفاعلاتهم وممارساتهم وتنظيماتهم الاجتماعية.

لقد أن الأولان لأخذ السياق مأخذ الجد ولصياغة نظريات واضحة المعالم عن السياق والطرائق التي يرتبط بها بالخطاب والتواصل. هذا الكتاب، وكذلك كتاب (المجتمع والخطاب) (van Dijk, 2008) الذي يتناول دراسة السياق في العلوم الاجتماعية، محاولة لصياغة نظرية يصدق عليها ما سبق من وصف، في سبيل هذه الغاية، يتناول هذا الكتاب بالدراسة مفهوم السياق واستخدامه وما يمكن أن يتدرج تحته من عناصر في اللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي. أما كتاب (المجتمع والخطاب) فينتقل بهذا تناول النظري إلى علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع



والأنثروبولوجيا، وسوف ترد إشارات إلى بعض الدراسات في هذه العلوم في غير موضع من هذا الكتاب. ورغم أن الكتابين متصلان لا سبيل إلى فصلهما. يظل كل منهما دراسة مستقلة بذاتها حيث يخاطب هذا الكتاب المهتمين باللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي، بينما يخاطب الآخر المهتمين بعلم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والعلوم السياسية. ولطني أرجو أن يتمكن من قراءة كتابي هذا من قراءة قرينه الذي يتناول السياق في العلوم الاجتماعية لما بين الكتابين من وثيق الصلة ولما بين السياقات الاجتماعية للخطاب من ناحية ودراسة المواقف والتفاعلات التواصلية في العلوم الاجتماعية من الناحية الأخرى من علائق وصلات.

و لأن هذا الكتاب هو أول دراسة مستقلة تجعل من مفهوم السياق شظيا شاغلا، فلا بد أن نقرأ بوصفها دراسة استكشافية، وهي دراسة نظرية تستلهم أفكارا وتصورات ذات صلة في اللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي، وتراجع عددا كبيرا من الأبحاث التطبيقية، لكنها لا تقدم جديدا فيما يتصل بدراسة السياق في بيئات الكلام والتواصل. عوضا عن ذلك، يوضح الكتاب النظرية التي يبورها من خلال تناوله أحد أكثر الخطابات المعاصرة تأثيرا وأهمية وهو الجدل الذي دار حول العراق في مجلس العموم البريطاني. لقد تقدم توني بلير في خطابه ضمن هذا الموضوع بطلب يجيز الحرب على العراق - وهي الحرب التي علينا جميعا عواقبها الوخيمة - ويدافع عن طلبه.

في خطاب بلير وفيما تلاه من كلمات ألقاها أعضاء البرلمان البريطاني أمثلة تثبت أن أية مقارنة مجرد الخطاب أو الحوار من سياقاتهما نقل مقارنة فاصرة وربما ينتج عنها مجرد توصيفات سطحية شكلية، وربما ساذجة، لا نفى للخطاب أو الحوار حقهما من التحليل، ذلك لأن الخطاب وما أعقبه من كلمات لا يمكن اجتثاثهما من الواقع الاجتماعي والسياسي الذي أحاط بهما. ولأن من البديهي أن كل شيء يمكن أن يكون له صلة بالخطاب عموما - على الأقل تلك الموضوعات التي نتكلم عنها أو فيها وما لا حصر له من المقامات والمواقف التي نتكلم أو نكتب أو نستمع أو نقرأ فيها - فإن نظرية السياق يتهدها خطر جسيم هو أن تنتهي إلى نظرية بلا معالم

محددة، "نظرية عن كل شيء". لذا فمن الأهمية بمكان أن نحدد مجال النظرية وأن نفصلها عما يحيط بها من ظواهر اجتماعية. وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن خطاب توني بلير ينبغي أن يقرأ لا بوصفه مجرد خطاب رئيس وزراء يتوجه به إلى أعضاء البرلمان - وإلى الأمة البريطانية وإلى العالم - في سياق النقاشات البرلمانية التي جرت في مجلس العموم البريطاني يوم الثامن عشر من مارس، ٢٠٠٣، بل بوصفه كذلك جزءاً لا يتجزأ من سياسة المملكة المتحدة الخارجية وعلاقتها بقوليات المتحدة والاتحاد الأوروبي ومن موقفها من قضية الشرق الأوسط، وما إلى ذلك.

إذا شئنا ألا نضيع في متاهة السياقات التي لا نهاية لها، فلا بد أن نقنع بأن ليس كل ما نراه "خفية" للخطاب جزءاً من سياقه بالضرورة، طالما أننا نلتزم الصرامة في تعريف مصطلح السياق على المستوى النظري. إن بلورة وتطوير نظرية عن السياق تعني أول ما تعني اختيار تلك العناصر التي يتكون منها الموقف التواصلية وتتصل اتصالاً وثيقاً بما يشتمل عليه من نص أو كلام. يستلزم هذا أن نتعرف بداية على مفهوم الموقف التواصلية في اللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي وكذا الاجتماعي وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، ثم نتوصل إلى معايير تحدد ما تشتمل عليه نظرية السياق وما لا تشتمل. هذا الكتاب ليس دراسة استكشافية أولية أو مراجعة تعدد كبير من الدراسات السابقة فحسب، بل يضيف إلى تلك طرح مقولة نظرية ربما تبدو من قبيل الكلام المعاد، على الأقل بالنسبة لعلماء النفس وبعض علماء الاجتماع القدامى الذين اهتموا برصد الظواهر الاجتماعية المادية والسلوكيات الواعية. لكنها تبقى غير واضحة في كثير من العلوم الاجتماعية وكثير من الاتجاهات التي تهتم بالخطاب والتواصل اليوم. أمّا المقولة فبسيطة، لكنها بالغة الأهمية في فهم ماهية السياق وطبيعته وعلاقته بالخطاب:

"ليس ما يؤثر في الخطاب أو يتأثر به هو الموقف الاجتماعي، بل رؤية المشاركين في الخطاب هذا الموقف وإدراكهم إياه".



ليست السياقات إذن مجموعة من العطل المباشرة التي تبرز الخطاب ولا من الظروف الموضوعية المجردة، بل هي مجموعة من التصورات الذاتية الشخصية التي تتشكل وتتغير باستمرار أثناء التفاعل بين المشاركين في الخطاب بوصفهم أفراداً ينتمون إلى جماعات ومجتمعات. أية ذلك أننا إذا سلمنا بأن السياقات هي مجموعة من الظروف والقيود الاجتماعية الموضوعية المجردة، فلا بد أن نتوقع ممن يفتقون الموقف الاجتماعي نفسه أن يتكلموا بنفس الطريقة والأسلوب. لذا ينبغي أن تتجاوز نظرية السياق الوضعية الاجتماعية والواقعية والحنمية في أن، فالسياقات ما هي إلا تصورات المشاركين في الخطاب. لهذا السبب أيضاً تبقى الفرضية الأساسية لنظرية السياق فرضية اجتماعية معرفية ويبقى المنظور الذي يتأسس عليه هذا الكتاب منظوراً اجتماعياً معرفياً في دراسة السياق في إطار مقاربة بين نوعية، غير تخصصية شاملة.

تفسر مقولة السياقات بوصفها تصورات ذاتية للمشاركين في الخطاب كذلك تمايز النصوص وتفرداتها وتمايز أجزائها مكتوبة كانت أم متطوقة. وتفسر كذلك الأرضية المشتركة والتمثيلات الاجتماعية المتجانسة للمشاركين في الخطاب عندما ينشرون من خلالها تصورهم الموقف الاجتماعي الذي نطلق عليه السياق على سبيل الاصطلاح. وسوف نرى أن في علم النفس مفهومين نظرياً مفيداً يضع النظرية على أساس معرفي مثين، ألا وهو مفهوم النموذج الذهني. لذا سوف نستعمل بمفهوم السياقات، بوصفها تفسيرات ذاتية للمواقف التواصلية، مفهوم نماذج السياق.

لما ما تفعل هذه النماذج وما يجب عليها أن تفعل فبيانه فيما يلي:

§ تؤثر في إنتاج الخطاب وتلقيه من قبل المشاركين فيه.

§ تتيح للمشاركين في الخطاب تطويره بما يناسب الموقف التواصلية ويناسب ظروفهم أثناء التفاعل أو التواصل.

§ تضع الحلقة المفقودة المهمة في النظرية المعرفية للنص، بين النماذج الذهنية للأحداث موضع الخطاب أو الإشارة وبين صورة الخطاب وطريقة صياغته في الواقع.

§ تحدد ظروف الملازمة والمناسبة للخطاب ومن ثم تصبح أساساً للنظرية التداولية عموماً.

§ تضع أساس نظرية الأسلوب والنوع الخطابي ومستوى اللغة وكل ما يقع في الخطاب من تنوع وتباين.

§ تمثل الحلقة المفقودة بين الخطاب والمجتمع، بين الشخصي والاجتماعي، بين المعنى والمعنى، وهي لذلك تتيح تناول إشكالية البنى الصغرى والبنى الكبرى بما يربأ الصدع بينهما بنفس الطريقة على الأقل فيما يتعلق باللغة والتواصل.

§ يمكن صياغتها في اللغويات التقليدية والنحو والقواعد الشكلية المجردة بما يتجاوز الأبعاد الدلالية للتعبير الإشارية - وقد تبلورت هذه الصياغة لكن على استحياء.

§ تضمن استمرار البحث اللغوي الاجتماعي في تجاوزه دراسة الترابط بين الخطاب والمتغيرات الاجتماعية، وفي اهتمامه بأثر العوامل الاجتماعية على التركيب والأساق الخطابية.

§ تجلّى بعض أفكار ومفاهيم علم الاجتماع التقليدية التي لم تفقد أهميتها ومن ذلك تعريفه الموقف، الذي يبقى صالحاً للتطبيق في تحليل التفاعلات اللغوية والحوارات أو المحادثات.

§ تبين كيف يمكن للمسياق أن يتحكم في أبعاد الخطاب نصاً كان أم كلاماً، تلك الأبعاد التي تستعصى على الملاحظة لكن تبقى فاعلة مؤثرة.

§ تسهم في إعادة صياغة بعض الأطر النظرية التقليدية في الأنثروبولوجيا فيما يتصل بدراسة الوقائع التواصلية.

§ كما يتضح من خلال التحليل السياقي النقدي لخطاب توني بليز وما أعقبه من مداخلات في موضوع العراق، يظل الوصف المنهجي المنضبط للمسياق أساساً من الأسس التي تقوم عليها دراسات الخطاب النقدية وغيرها من الاتجاهات الاجتماعية السياسية في تحليل الخطاب.



ولأن النظرية ما زالت في طور التشكل، لم تكتمل صياغتها بعد، فإني أرجو من هذا الكتاب أن يكون دعوة إلى مزيد من الدراسات والأبحاث، فالكتاب يتناول عددا كبيرا من القضايا التي تنتظر مزيدا من البلورة النظرية والدراسات التجريبية النفسية والوصف الإثنوجرافي الذي يهتم ببيانات الخطاب وكذا مزيدا من التحليل الموسع للخطاب. إن تأثير السياق عادة ما يكون عميقا وغير مباشر ومعقدا ومربكا وربما يلزم به التناقض، تتجاوز عواقبه الآثار التقليدية للمتغيرات الاجتماعية المستقلة.

إن السياق يشبه غيره من الخبرات والتجارب الإنسانية، ففي كل لحظة وفي كل موقف يحدد السياق كما تحدد تلك الخبرات والتجارب كيف نرى الموقف الراهن وكيف نتصرف إزاءه أو فيه. لذا فإن من أوجب واجبات العلوم الإنسانية والاجتماعية عموما ودراسات الخطاب خصوصا أن توقف على تأثير السياقات المختلفة في الخطاب نصا كن أم كلاما، وكذا على تأثيره فيها.

لقد بذلت من الجهد المضني لسنتين عدة في تأليف هذا الكتاب وكتاب (المجتمع والخطاب) أكثر مما بذلت في أي مما سبق من كتبتي. ومع أن صياغة نظرية، وما يتصل بذلك من تحليل بعض الأمثال الطريفة، فيه ما فيه من متعة، فربما يقع من بطور النظرية ومن يحلل فريسة اليأس لما في القضايا والأسئلة التي تطرحها من تعقيد، ذلك لأن صياغة نظرية عامة عن السياق وعلاقته بالخطاب لا ينبغي أن تتوقف عند مجرد الدراسة المركزة الدقيقة للضمان أو تبادل أطراف الحوار أو الاستعارة، على سبيل التمثيل لا الحصر، مع أن في كل منها ما فيه من تقريعات وتعقيدات.

إن صياغة نظرية سياقية تستلزم أن تؤخذ كل أبعاد الموقف الاجتماعية وجوانبها وكذا كل المتغيرات البنائية في الخطاب واللغة المتداولة بعين الاعتبار. لا غرابة، إذن، في أنني قضيت سنتين عدة حتى ألبم بالقضايا والإشكاليات الأساسية التي تشتمل عليها النظرية. ولا عجب أن هذه الدراسة، على ما ألزمت به نفسي فيها من حدود، قد أخذت تربو وتكبر حتى خرجت في صورتها الراهنة في كتابين منفصلين متصلين.

وما زال يراودني ذلك الشعور المؤرق أنني، على ما كتبت واتفقت، لم أجاوز بعد سطح الأتشاء، وهو نفس الشعور الذي خالط فهمي الخطاب وتصورتي إياء عندما انتهيت من تأليف كتاب (النص والسياق) منذ ثلاثين عاماً.

ولعل هذا الكتاب وقرينه الذي أشرت إليه فيما سبق، على ما فيهما من قصور وعيوب، أن يستفزا آخرين فيقبلوا التحدي ويأخذوا على عواتقهم تطوير دراسات السياق بوصفها مجالاً مهماً من مجالات دراسات الخطاب في كل قروع المعرفة الإنسانية والاجتماعية.

يبقى أن أرحب، كما دأبت، بكل الاقتراحات والتطقيات النقدية على هذا الكتاب.

## § هوامش على مقدمة قان دايك عن السياق

(١) لكتاب Text and Context ترجمة إلى العربية بعنوان (النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي)، ترجمة عبد القادر قنيسي. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠.

(٢) في الأصل: "دراسات الخطاب النقدية" critical discourse studies وهو المصطلح الذي اقترحه المؤلف بدلاً أكثر شمولاً من مصطلح "التحليل النقدي للخطاب" critical discourse analysis.



- (٣) التحليل النفسي للخطاب هو أحد فروع تحليل الخطاب، يركز على ما فيه من قضايا نفسية كما نجد في كتابات جوناثان بوتز (Potter, 1996a, b).
- (٤) ورد فيما سبق بيان وتوضيح ما يشير إليه كل حرف من حروف كلمة SPEAKING وفق شرح دل هايمز (Hymes, 1974: 54-57).
- (٥) ليس هناك ما يبرر الفلت في ترجمة contextualization بحثاً عن مفردة واحدة تقابل المصطلح الإنجليزي من قبيل التمييز والمسابقة وليس هناك ما يعرب ترجمة المصطلح إلى عبارة عربية، وذلك لاختلاف طبيعة العربية عن طبيعة الإنجليزية. من قبيل "وضع اللغة في سياقها" أو "تحليل الخطاب في سياقه"، فالمصطلح الإنجليزي نفسه يشتمل على جذر واحد وسابقة وثلاث لواحق.
- (٦) يعبر عن العلاقة الوثيقة بين النص والسياق الشقاق الذي context من الأول text في اللغة الإنجليزية بإضافة con التي تفيد المصاحبة والإحاطة. لا تبدو هذه العلاقة جلية بين المفردتين العربيتين "النص" و"السياق"، لكن هناك ما يشير إليها في الجنس بين المصطلحين البلاغيين العربيين "المقال" و"المقام".
- (٧) الملائمة أو المناسبة هي بعض ما تشتمل عليه المقولة البلاغية العربية "كل مقام مقال ولكل حادثة حديث" - وليس هذا "مقام" الإسهاب في موضوع المقام في البلاغة العربية. لكن ربما ترد إشارات إليه في غير موضع من التبسيط.
- (٨) في الأصل agency أما ترجمتها إلى "المعنى" فلغاية جمالية بيقاعية في المقام الأول، حيث تتسم مع المبني في عبارة المعنى والمبني. على أن للترجمة مبرر آخر، فالفعل والفاعلية في النحو الوظيفي هما جوهر المعنى في الجملة.

## من ضرورات التلقي

"في يوم الثلاثاء الثامن عشر من مارس عام ٢٠٠٣، التقى رئيس الوزراء البريطاني توني بلير خطاباً في مجلس العموم تقدم فيه بطلب يجيز تدخلًا عسكرياً بريطانياً في العراق، "بسبب استمرارها في رفض الانصياع لقرارات مجلس الأمن". وبعد أن قرأ طلبه، استهل خطابه بقوله:

بلير: "في البداية أقول لقد أحسن المجلس صنعاً بمناقشة هذه القضية ومن ثم إصدار قراره بشأنها. هذه هي الديمقراطية التي نستحقها والتي يجاهد غيرنا لتحقيقها دون جدوى. وكرر أنني لا أستهيئ بآراء من يعارضونني. نحن إزاء اختيار صعب في واقع الأمر - خياران أحلاهما مر: أن نعلق عملياتنا العسكرية هناك ثم تعود القوات البريطانية فراجها أو أن نثبت على موقفنا ونكمل الطريق الذي بدأناه. إنني أعتقد مخلصاً أننا يجب أن تواصل مسيرتنا. إن السؤال الذي يطرحه كثيرون عادة هو: من أين تكتسب القضية كل هذه الأهمية الكبيرة - لا يسألون لماذا هي مسألة مهمة. ها نحن أولاء وها هي حكومتنا تواجه اختباراً صعباً يهدد الأغلبية فيها وينذر باستقالة مجلس الوزراء على خلفية سياسات الحكومة، وها هي الأحزاب الكبرى تنقسم وهي التي طالما اتفقت في كل الأمور"

الأعضاء: "الأحزاب الكبرى؟"

بلير: "نعم، بالطبع أعني أيضاً الديمقراطيين الليبراليين الذين مثلوا على وحدتهم في انتهاكهم الغرض المساحة وفي أخطائهم".



## (مقاطعة)

حتى يتمكن الحضور من أعضاء البرلمان وحتى يتمكن - نحن القراء والمحللين - من فهم هذه الفقرة كما ترد في سجلات هانسارد Hansard الرسمية فلا بد بداية من الإلمام بقواعد اللغة الإنجليزية وقواعد الخطاب. في الوقت ذاته، يستلزم هذا الفهم قترا كبيرا من المعرفة بمجريات الأمور والمصالح الذي يحيط بنا - عن الديمقراطية وعن القوات البريطانية وعن العراق كما تشير هذه الفقرة ضمنا. تاسيما على ذلك، تستطيع أن تفهم من بين ما نفهم أن المتحدث يدافع عن رسالة قوت إلى العراق حتى تتحقق الديمقراطية هناك، حيث يفترض من بين ما يفترض أن العراق ليس فيها ديمقراطية، وأن القوات التي ستذهب إلى هناك وما تعزمه من حرب يمكنها أن تحقق الديمقراطية.

هذا الفهم الذي ينشأ على قواعد النحو وقواعد الخطاب والمعرفة بما يجري حولنا ما هو إلا جزء من الصورة. إن ما يفهم أعضاء البرلمان البريطاني يشمل إلى ما سيق أن مناقشة التدخل العسكري الذي يدعمه بلير تناسب المقام وهو مقام نقاش برلماني. ويفهمون كذلك مبررات طرح الموضوع للمناقشة وما يناط بالبرلمان من وظائف في هذا الصدد وما يفعل المتحدث توني بلير في هذه الأثناء بالمقارنة بما ينقله من أمور وما يعنيه وما يشير إليه ومن ذلك أنه يشير إلى القوات البريطانية التي تنتظر قرار التدخل. على معنى أن أعضاء البرلمان لا يفهمون نص خطاب بلير فحسب، بل يفهمون كذلك ما يحيط به من سياق وما يرد فيه هذا الخطاب من مقام (فلان دايك van Dijk، ٢٠٠٨، ص ١).

## النحو الوظيفي

### عن اللغويات النقدية

اللغويات النقدية (Critical Linguistics (CL هي الامتداد الطبيعي للنحو الوظيفي، وهي في الوقت نفسه من مقدمات التحليل النقدي للخطاب الذي ترد مناقشته لاحقاً، بل ترد في غير موضع بوصفها مرادفاً لهذا النوع من التحليل. تطورت اللغويات النقدية في كتابات فولر وزملائه، ومن أكثرها تأثيراً وثوبوا كتاب اللغة والسيطرة، أو التحكم *Language and Control* (١٩٧٩) الذي يجمع بين روجر فولر Fowler وجنتر كريس Kress وبوب هودج Hodge وتوني ترو Trew. وفيه تأسيس لمقولات اللغويات النقدية، وخلفيتها الفلسفية، والنغوية والاجتماعية، ومناقشة اثر جورج اورويل وغيره في تطور هذا الاتجاه النقدي اللغوي، وشرح أدواته ومنطقاته وتطبيقات تلك الأنواع في دراسة مختلف أنواع النصوص. ومن منطلقات اللغويات النقدية التي يتناولها الكتاب أن البنى والتنظيمات الاجتماعية تؤثر في البنى والتركييب والاختيارات اللغوية، وأن هذا التأثير ينتظم كل مستويات اللغة من أصوات ووحدات صرفية، ونحوية، ودلالات، واختيارات أسلوبية وبلاغية، وأن من أكثر العوامل الاجتماعية تأثيراً فيما سبق من اختيارات توزيع السلطة والقوة بين المشاركين في الخطاب (ص ١٩٤). ما زالت اللغويات النقدية تمارس حضورها المؤثر في التحليل النقدي للخطاب، وفي تحليل الخطاب السياسي، رغم تطور كل منهما وتفرعهما إلى اتجاهات معرفية، وأخرى اجتماعية أو تاريخية، وأخرى تركز على الاستعارة والمجاز، أو الجنس الخطابي وأشراطه وخصائصه، وغير ذلك من اتجاهات تتناول مختلف جوانب الخطاب والعوامل التي تؤثر في إنتاجه وتلقيه، وتلتقي جميعها في التأكيد على الارتباط بين العوامل الاجتماعية والاختيارات اللغوية.

وفق هذا السياق ومتغيراته والعناصر الفاعلة فيه، تتشكل اللغة، وعلى هذا، وعلى تأثير اللغة في السياق كذلك، يتأسس النحو الوظيفي كما طوّره هاليداي (١٩٨٥). ليس هذا تخصيصاً لنظرية النحو الوظيفي عند هاليداي، وهي النظرية التي استندت إليها اللغويات النقدية التي ترد إشارة جانبية إليها لاحقاً، ولكنه مجرد مرور كريم على نسق ثري بوصفه خلفية ضرورية لتطور التداولية، وما تلاها، وما زامنهما من مقاربات لغوية وخطابية. في هذا



النسق، لا تقتصر اللغة على كونها ظاهرة معرفية، أو جملة من التراكيب، بل تتجاوز ذلك إلى أداء وظائف في سياقات متباينة، وتتكون بالمعنى الذي تستخدمها فيه، من خلال استجابتها لتغيرات الموضوع field (في السياسة، أو الدين، أو الأحياء، أو التاريخ، إلى غير ذلك من مجالات وأنشغالات) والعلاقات المتبينة بين المشاركين في الخطاب tenor (تقارب، أو تباعد، وما بينهما، وما حولهما من ترجحات وظلال) ووسائل الخطاب وقنواته mode (كتابة أو شفاهة، مباشرة أو غير وسيطة أو قساة، وهكذا).

تنظم وظائف اللغة في فئات ثلاث ناقشناها هاليداي ومزالت أساس ما نلاهما من مقاربات تداولية:

§ وظيفة تصويرية: وهي تمثيل الواقع (التقرير، والوصف، والإخبار والإثراء) ideational (الكلام أو الكتابة عن العالم: "إنها تمطر"، "شرب الطفل اللبن/ الحليب")

§ وظيفة تفاعلية: وهي التفاعل مع الآخرين interpersonal (تأسيس علاقات مع الآخرين أو ترسيخها أو إعادة صياغتها: "يا سيدي"، "يا بني")

§ وظيفة نصية: وهي إنتاج النصوص والخطابات، وتنظيمها، وإدارتها textual (الكلام أو الكتابة عن الكلام أو الكتابة - اللغة الشارحة، ووسائل تنظيم الخطاب: "في الفقرة السابقة")

يرتكز تمثيل الواقع في الأساس على التعية أو التحدّي transitivity، وهي ليست مجرد خاصية في الفعل في تعارض مع لزومه، بل هي خاصية في الجملة بأكملها، وتتكون الجملة كذلك من المشاركين في الفعل وظروفه. في "هذا محمد عليا يتجاحه لسن"، الفعل فعل التهنة، والمشاركان هما "محمد" و"علي"، وظروف الفعل تشمل السبب والزمان. من هنا تكون البداية - من الفعل، أو ما يقع أو يحدث. تنقسم الأفعال والحالات والأحداث في نسق هاليداي (١٩٨٥) إلى:



- § أفعال كينونة وصيرورة أو تحويل (أفعال إسناد) relational مثل "يبدو"،  
و"أصبح"، و"ما يربح"، و"ما زال"، و"ألفي"، و"وجد".
- § أفعال مادية material مثل "ضرب"، و"قتل"، و"كسر"، و"اغتنل"، و"صدم".
- § لفظية/علامية verbal مثل "هنا"، و"نادى"، و"حية"، و"كتب"، و"خط".
- § ذهنية نفسية mental مثل "يحب"، و"يكره"، و"يعتقد"، و"يشعر"، و"يخشى".
- § أفعال سلوكية behavioral مثل "يضحك"، و"يكي"، و"يتنسم"، و"يجلس".
- § أفعال وجود(ية) existential كما في "على الطاولة كوب"، "هناك قصور  
واضح".

لا تحظى أفعال الكينونة والوجود في اللغة العربية بنفس الحظ من تناول الذي نجده في الإنجليزية، لأنها في جملة الأحوال تقديرية، فحين نقرأ "على الطاولة كوب"، ندرك أن تقدير الكلام "يوجد كوب على الطاولة" - هذا إذا دعت الضرورة إلى التقدير. فهي "رافقه ما فعلت"، المشاركان هما أنت وهو، ومن خبر الفعل هو هو، وما كان له الأثر هو ما فعلت أنت. وفي "أعجبني قصيدتك"، المشاركان هما أنا وأنت، والفعل هو الإعجاب، ومن خبر الفعل هو أنا، وما أحدث الأثر هو قصيدتك.

## المبدأ التعاوني

يُعدُّ المبدأ التعاوني Cooperative Principle في الحوار، والذي قنّاه بول جريس Grice (١٩٧٥)، ركيزة أساسية من الركائز التي تقوم عليها التداولية. وأداة مهمة من أدواتها في أن. ينقسم هذا المبدأ إلى أربع قواعد على من يستخدم اللغة اتباعها إذا أراد أن يكون "متعاوناً". علينا أن نتذكر أن المبدأ التعاوني يصف ما ينبغي أن يكون، لا ما هو كائن بالفعل في مجمل الحوارات والتفاعلات الإنسانية. لذا فإحدى القواعد الأربع فهي:

§ الكمية / الكم Quantity: قدم القدر المطلوب من المعلومات، لا أكثر ولا أقل. "خير الكلام ما قلّ ودل". تتعلق هذه القاعدة بمقدار المعلومات أو كمّتها، لا بصحتها أو صلاحيتها.

§ الصدق / الكيف Quality: كن صادقاً، لا تُقدِّم معلومات خاطئة، أو معلومات لا تستطيع أن تبرهن على صحتها. "الصدق منجاة"، "الأمّة فضل الطرق"، كما تقول الحكمة الإنجليزية.

§ الملاصقة Relation: لنكن معلوماتك ومساهماتك ملازمة للحوار، فلا نخرج عن الموضوع، لأن "لكلّ مقام مقال"، و"لكلّ حادثة حديث".

§ الطريقة Manner: كن واضحاً ومنظماً، وتجنب القموض والربطية، وخطب الناس على قدر عقولهم وتخصّصاتهم وخلفياتهم المعرفية - وليس "معرفة الخلفية" background knowledge، كما تذهب بعض الترجمات.

فيما يلي نماذج لتوظيف المبدأ التعاوني لتحقيق غايات تواصلية (مزيد، ٢٠٠٢). في الراية العربية ألف ليلة وليلة، (الجزء التاسع، ص ٦٣٤) تحكي شهرزاد لشهریار - بداية من الليلة الثامنة والستين بعد المائة الثالثة حتى الليلة الحادية والستين بعد



اللمعة الثالثة - حكاية (أنس الوجود مع محبوبته الورد في الأكمات) وفيها نجد "أنس الوجود" هائما معذبا بعد أن حيل بينه وبين محبوبته "الورد في الأكمات"، "و بينما هو كذلك إذ خرج عليه سبع رقبته مخنقة بشعره، ورأسه قدر القبة، وفمه أوسع من الباب، وأنيابه مثل أنياب الفيل. فلما رآه أنس الوجود أيقن بالموت واستقبل القبلة وتشهد واستعد للموت. وكان قد قرأ في الكتب أن من خدع السبع خدع له، لأنه يخدع بالكلام الطيب وينتشي بالمديح، فشرع يقول له: يا أمد الغاية، يا ليت الفضاء، يا ضرغام، يا أبا الفتيان، يا سلطان الوحوش، إني عاشق مشتاق، وقد انتفسي العشق والفراق، وحين فارقت الأحباب غبت عن الصواب، فاسمع كلامي وارحم نوعي وغرامي".

يتحتم على قارئ هذه القصة أن يتحلى بقدر كبير من التسامح المعرفي حتى يصدق وصف الأسد. وحتى يصدق ما قالته الكتب لأنس الوجود من أن "من خدع الأسد خدع له"، لأنه يخدع بالكلام الطيب" وحتى يتعاطف مع استعطاف أنس الوجود السبع أن يسمع كلامه ويرحم نوعه وغرامه.

من الواضح أن أنس الوجود في أزمة حقيقية: "أيقن بالموت واستقبل القبلة وتشهد واستعد للموت". إزاء هذه الأزمة الطارئة، يقرر أنس الوجود اللجوء إلى حيلة لغوية تقوم على ركنين أساسيين هما: المديح والشكوى. يبدأ أنس الوجود بإسباغ القلب "أمد الغاية" و"ليت الفضاء" و"ضرغام" و"أبي الفتيان" و"سلطان الوحوش" على الأسد، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الشكوى مما يجد: "إني عاشق مشتاق، وقد انتفسي العشق والفراق، وحين فارقت الأحباب غبت عن الصواب"، مستعينا بالسجع والتجانس الصوتي، ثم يأتي في النهاية الرجاء والاستعطاف، وقد قدم أنس الوجود لنفسه بأن قرن قوة الأسد وجبروته بضعفه هو ولوعته وعذابه، والحقيقة أن هذه "الخلطة السحرية" لم تحقق لأنس الوجود مجرد النجاة من الموت المحقق، بل دفعت الأسد إلى التعاطف معه ومساعدته في الوصول إلى مكان حبيبته "الورد في الأكمات": قام الأسد ومشى نحوه بلطف، وعيناه مغرورتان بالدموع، ولما وصل إليه لحسه بلسانه،



ومشى قدامة وأشار إليه أن اتبعني، فتبعه". بالطبع لم يكن هدف "أفسس الوجود" الأساسي مدح الأسد، بل كان هدفه من وراء المدح أن يستدر عطف الأسد، فينجو منه؛ ثم يكن يطمع في أكثر من هذا، ولكنّ الشاء مع الاستعطاف كانت لهما آثار أخرى إيجابية كما رأينا. لو صدقت شهرزاد فيما روت، فلنا أن نؤمن بأنّ حبّ الشاء ليس طبيعة الإنسان وحده بل طبيعة الحيوان كذلك. هكذا نرى أنّ في هذه القصة - وفي ما يشابهها من أمثولات - خرقٌ صريح لقاعدة الصدق في المبدأ التعاوني بغرض الإغاثات من برائن الأسد.

ومن نواتر أشعب: (١) "قالت صديقة أشعب لأشعب: هب لي خاتمك أتكره به، قل: أتكره إلي منعك إياه فهو أحب إلي"، (٢) "وجدت امرأة شبيب ديناراً فأنت به، فقال: دفعه إلي حتى يند له في كل أسبوع درهمين. فلما كان الأسبوع الرابع، طلبته منه فقال لها: مات في النفاس، فقالت: ويلي عليك كيف يموت الدينار؟ فقال لها: الويل لك، على أهلك، كيف تصدقين بولادته وتكرين موته في نفاسه؟" (عباس، ١٩٩٠، ص ص ٢٦-٢٧).

### تخلص

"وسنذكر في كتابنا هذا أن شاء الله تعالى من تخلص من أنشودة الهلاك وتخلصت من حبائل المنية، بحسن التوصل، ولطيف التوصل، ولين الجواب، ورقيق الاستعجاب، حتى عانت سيئاته حسنت، وعوض بالثواب بدلاً من العتاب. وحفظ هذا الباب، أوجب على الإنسان من حفظ عرضه، وألزم له من قولم بدنة" (المقدّم الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص ١٢٠).

في ظاهر الأمر، يتصائم "أشعبا" مع صديقه وزوجته، لكنّ الحقيقة أنّه يوقع كلا منهما في شرك لغوي معرّف للخروج من مأزقين، المأزق الأول هو تهديد ملكيته خاتمه، والثاني هو تهديد ملكيته للدينار الذي حصل عليه من زوجته بالتحايل. للخروج من المأزق الأول، يستفيد "أشعبا" من تحايل صديقه عليه؛

فهو تزعم أنّ هدفها من الحصول على خاتمه هو أن تذكره به. حينئذ يختار لها "أشعبا" طريقة أخرى تذكره بها، المهم أنّ رغبته في أن تتذكره سوف تتحقق. هي

تريد أن تذكره بالمتح، وهي بفضل أن تذكره بالمتع. أما زوجة "أشعب" فقد صنعت أن الدينار يمكن أن يلد كل أسبوع درهمين عندما كانت لها مصلحة في ذلك. وعندما لقيت من الكذبة، بدأت تطلب الدينار، ولكن أشعب ساعدها يسألها سؤالاً لا يمكن إرضاءه إلا السكوت والتندم على الدخول في الكذبة من البداية. لأن الزوجة فهمت في بداية الأمر أن زوجها سوف يستثمر الدينار فيربح كل أسبوع درهمين، ولكن "أشعب" في مواجهة الأزمة يتمسك بالمعنى الحرفي البيولوجي لفعل "يلد" - وطالما أن الدينار يمكن أن يلد، فيمكن أن يموت في النفاس - وإنسان حظه يقول لها: انظرت عليك الأولى، فلماذا لا تصدقيني في الثانية؟ كذب بكذب، لا يبرز "أشعب" ولا يفسر، ولكن ينكر على زوجته إدواجيتها وكيلها بعكاليين، ويتحقق له هدفه الأساسي، وهو الهروب من مطالبة الزوجة بالدينار الذي "مات".

ومن نواتر جحا: "كان جحا ماشياً في الصحراء، فرأى ثلاثة فرسان من قطاع الطريق على بعد، فخاف وخلق ثيابه وأدخلها أحد القبور الخالية. لما وصلوا رأوه عرياناً، فقالوا له: من أنت؟ فقال: أنا ميت من جملة الأموات في هذه القبور، وقد خرجت الآن للنزهة وشمّ الهواء، فضحكوا منه وتركوه". (ابن الجوزي، ص ص ٦٢-٦٣). تنقسم هذه القصة إلى أربعة أجزاء هي: موقف الأزمة، والتخطيط للتحويل، والمواجهة، والنتيجة. أما الأزمة فهي التهديد الواضح لحياة وممتلكات جحا، ويبدو أنه كان مخرجاً محسباً، حيث بدأ فوراً تجهيز الديكور والمناظر حتى وصل قطاع الطريق إليه، فوجدوه عرياناً، وقالوا له من أنت؟ يبدو أن جحا كان يعتقد - أو كان يريد للصوم أن يعتقدوا - أن التجرد من الملابس والتواجد في دائرة المقابر كافيان لإثبات الموت. على هذا الاعتقاد أسس جحا لحيلته في التخلص من قطاع الطريق. تتلخص هذه الحيلة في محاولة تحقيق أثرين أحدهما قريب، والثاني بعيد. أما الهدف القريب، فهو أن يصدق قطاع الطريق أنه "ميت من جملة الأموات"، والهدف البعيد هو ببساطة أن يتركه للصوم.



هذا ما تقرره

كورين دينويل

في Denoyelle

تحليلها التحليل في

حكايات الشطار،

حيث ترى أن

خطاب التحليل

يسمى إلى تحقق

نظر معرفي تنقاد

فيه الضحية إلى

التصديق faire

croire، وهدف

واقعي عملي تنقاد

فيه الضحية إلى

الفعل والتصرف

faire faire

(دينويل، ١٩٩٨).

لم يصدق قطاع

الطريق - بطبيعة

الحال - أن جحا

"ميت من جملة

الأموات"، كيف

يصدقون هذا وهو

يكنهم؟ وكيف

#### العلم والأدب

يبقى المبدأ التعاوني صالحاً للتطبيق المباشر على خطاب العلوم والرياضيات، وما شابههما، وذلك لاهتمامه بالبرهان، والكم، والملاءمة، والوضوح، والترتيب، أما فيما يتصل بخطاب الأدب، وما يحفل به من استعارات، وكتابات، ومبالغات مقصودة، وغموض وظيفي، ورطابة معبرة (نتناولها فيما نتناول التداولية الأدبية أو الأسلوبية -

literary pragmatics أو pragma-stylistics) وخطاب السياسة، وما يحفل به من تحسين، وتجميل، وتشويه، وكياسة، وتضليل، وتضمين، وإغراض، وكذلك الدعاية والإعلان، فنكمن أهمية مبدأ التعاوني في أنه أية مهمة من أليات التحليل، لأن انتهاكه تضيي، ونوحى، وتعتبر، وتقل تضمينات، وتعكس ظروفًا وميقات، كما نجد هنا من مناقشات. بعبارة أخرى، وعلى سبيل التبسيط، نتحقق للغة العلم نجاحها من خلال التزامها قواعد مبدأ التعاوني، أما لغة الأدب وما يشابهها، فيوسعها أن تحقق قدراً كبيراً من تأثيرها من خلال انتهاك هذا المبدأ. وليس من الممكن تصور حياتنا اليومية وما فيها من حوارات - وكم سنخسر من الأصدقاء والزملاء - ونحن نطبق مبدأ التعاوني تطبيقاً "رياضياً" مجرداً دون مراعاة أو تجمل (فنجيب عن سؤال "كم الساعة؟" بكلمة واحدة مثل "العاشرة"، وعن سؤال "كيف حالك؟" بعبارة واحدة من قبيل "بخير"، ونسعى القبيح قبيحاً دون مواراة أو تلطيف، ونتجنب الاستطراد، دون أن نكثر لاثهام الناس إلقاء بالفنور أو الغرور، ولا نقول إلا الصدق، حتى ونحن نصلح بين متخصصين.

لعل هذا التباين بين مبدأ التعاوني بوصفه مجموعة من القواعد المثالية المجردة، وبين مبررات ودوافع انتهاك تلك القواعد في الواقع هو بعض ما يؤخذ على هذا المبدأ، وهو كذلك ما استوجب تطوير نظرية تفسر التباين وتشرح المبررات والدوافع هي نظرية الكياسة، كما يرد لاحقاً في هذا التبسيط. كيف نقف على ما وقع من انتهاك وكيف نتوصل إلى تفسيره وتبريره؟



يصدقون أن الموتى يخرجون للنزهة وشمّ الهواء؟ لكن يبدو أنهم تعاطفوا مع خوفه وضحكوا من سذاجة حيلته - سذاجتها الظاهرية على الأقل، وإن لم يتعاطفوا، فما الذي كان يمكن أن يأخذوه من رجل "عريان" يسكن القبور؟ لكلّ هذه السذاجة، ولكل هذا المكر، نحبّ جداً ونتتبع أخباره.

ومن أمثلة الحيلة وحسن التصرف كذلك:

(١) "بلغنا أن رجلين سعيًا بمؤمن إلى فرعون ليقتله، فأحضرهم فرعون فقلل للساعين: من ربكما؟ قالّا: أنت، فقال للمؤمن: من ربك؟ فقال: ربّي ربهما، فقال لهما فرعون: سميتما برجل على ديني لأقتله: فقتلهما".

(٢) "استحن ابن أبي داود الحارث بن مسكين أيام المحنة فقال له: أشهد أن القرآن مخلوق، فقال الحارث: أشهد أن هذه الأربعة مخلوقة، وبسط أصابعه الأربعة وقال: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فتخلص".

ما زال عنصر "الأزمة" حاضراً في هذين الموقفين. في القصة الأولى يشي رجلان من أتباع فرعون برجل مؤمن، وعندما يكون الثلاثة بين يدي فرعون، يكون السؤال المنطقي: من ربكم؟ يتحاول الرجل المؤمن للخروج من هذه الأزمة العقائدية بالتقية، فإجابته "ربّي ربهما" صحيحة وصائفة على مستويين: على المستوى الأول، سوف يربط فرعون بين إجابة الرجلين "أنت" - فرعون - وإجابة الرجل المؤمن: "ربّي ربهما"، وقد قال إنّ ربهما أنت، إذن ربّي أنت، لا شك إذن في إيمان الرجل بفرعون - كما فهم فرعون. على المستوى الثاني، يقرّر الرجل المؤمن أن ربه رب الرجلين، وهو صائب في هذا في نظر نفسه.

وقد كانت نتيجة التقية باهرة، فقد نجا الرجل المؤمن، وقتل المتأمران. أمّا الحيلة اللغوية في القصة الثانية، فتكمن في الإيوائية الدلالية لاسم الإشارة "هذه"، حيث تضي في وقت واحد: "هذه الأصابع الأربعة"، وكذلك "هذه الكتب الأربعة" - التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. ما يحدث هنا، وفي حالات كثيرة مشابهة، هو غشوض مقصود وإيهام موظف وانتهاك قاعدة "الطريقة"، حيث تفقد كلمة "هذه"، ومن قبلها

"رَبِّهِمَا"، الثقة والتحديد، ويبدو هذا الانتهاك ضرورياً في ظل رغبة الرجل المؤمن في القصة الأولى والحارث بن مسكين في الثقة في تحقيق غايتين متعارضتين وهما: تجنب الكتب وتجنب الصدام المباشر مع فرعون في القصة الأولى، ومع ابن أبي داود في الثانية.

ومن أمثلة توظيف قواعد المبدأ التعاوني كذلك ما لا حصر له من تورية، وفكاهة، واستعارة، وغموض، وكذب مقصود، وتحسين قبيح، أو تقييد حسن، ومداراة، ومواربة، وتغطية، وتعتية، ورطانة، ومبالغة، واستطرادات، وخروج عن النص، يبدو أن قيمة المبدأ التعاوني لا تكمن في محاولة اتباعه أو التقيّد به، بل فيما يثني به انتهاكه وتجاوزه، عن قصد أو غير قصد، من غايات بلاغية أو شعرية، أو سياسية، أو ترويجية - مع ملاحظة أن "أو" لا تفصل بالضرورة بين متعارضين أو متناقضين. ولهذا يبقى المبدأ التعاوني أداة ملائمة ومهمة في تحليل الخطاب ولغويات النص وتحليل الخطاب النقدي وتحليل الخطاب السياسي. ومما يحسب للمبدأ التعاوني كذلك أن تأسست عليه نظريات التادب والكراسة، التي ترد مناقشتها لاحقاً، على سبيل توضيح ما غمض من جوانبه أو استكمال ما نقص منها.



## التضمين

لعلنا لاحظنا في الأمثلة السابقة أن خرق قواعد المبدأ التعاوني يحقق غاية تواصلية بلاغية، بل يحدث تأثيرات مادية في الواقع. كلما انتهك الكاتب أو المتكلم قاعدة من قواعد هذا المبدأ، دل ذلك على شيء ضمني لا يرد التصريح به، لعنر أو قهر أو غاية، أكثر أهمية من مجرد التصريح. من هنا نصل إلى التضمين أو الإضماع *Implicature* الذي يقارب ما وصف الجاحظ في البيان والبيان بالكنية، لكنه لا يشبه في شيء تعلق آخر البيت من الشعر بأول البيت الذي يليه، ولا قبحاس جزم من نص في نص غيره.

حتى يستطيع السامع أو القارئ أن يتوصل إلى المعنى الضمني، لا بد أن يأخذ في الحسبان ما يقال بالفعل، وما يحيط به من سياق، وقواعد المبدأ التعاوني التي يفترض أن يراعيها الطرفان. على سبيل المثال، حين نصل عن إحداهن هذا السؤال "كم تبلغ من العمر؟" فيجيب أحدهم عن السؤال "إنها متروجة ولديها طفلان"، ربما دل ذلك على عدم معرفته عمرها. هنا يلجأ السائل إلى السياق الاجتماعي الذي يشمل على معلومات عن السن الطبيعي للزواج والإنجاب في مجتمع معين. وربما دل تجاهل أو خرق قاعدة من قواعد المبدأ التعاوني على رغبة المتكلم في حفظ ماء وجهه أو وجه غيره، فيصبح التجاهل أو الخرق نوعاً من التأنب واللياقة. وعلى هذا تلمست أطروحات جيفري لينش *Leech* (١٩٨٣) التي نرد مناقشتها لاحقاً.

إلى نفس هذه الفئة من المسكوت عنه أو التضمنين ينتمي الافتراض المسبق *Presupposition* والمعلوم من اللفظ أو العبارة بالضرورة *Entailment*. من نمثلة الافتراض المسبق:

§ "ذهب الولد إلى المدرسة": تفترض مسبقاً أن هناك ولداً وهناك مدرسة؛ "الحرب على الإرهاب": هناك "حرب" وهناك "إرهاب". هنا، وفيما يلي من افتراضات مسبقة، يبقى الافتراض حتى إذا تحولت الجملة من الإثبات إلى النفي - "لم يذهب الولد إلى المدرسة".



§ "كمذا يكرهوننا؟" (من خطاب بوش عقب ٩/١١): تفترض مسبقاً أن المسلمين يكرهون الولايات المتحدة.

§ "التطرف الإسلامي خطر يهدد الغرب": تفترض مسبقاً أن هناك تطرفاً إسلامياً؛ "هزيمة الجيش ... الياسل": هناك جيش ... وهو "ياسل".

§ "أعلم أنه مخاطرة كبيرة" (من خطاب الرئيس المصري الراحل أنور السادات أمام الكنيست الإسرائيلي): تفترض مسبقاً أن السفر إلى إسرائيل مخاطرة كبيرة.

§ "عملية السلام في الشرق الأوسط تحتاج دفعة قوية": تفترض مسبقاً أن هناك شرقاً أوسط وهناك عملية سلام.

§ "لا بد أن نتوقف عن الإساءة إلى جيرانك" - تفترض مسبقاً أن المخاطب يسبى إلى جيرانه.

§ "أحمل إليكم رسالة شعب مصر الذي لا يعرف التعصب" (من خطاب الرئيس المصري الراحل أنور السادات أمام الكنيست الإسرائيلي) - تفترض مسبقاً أن شعب مصر لا يعرف التعصب.

§ "عاد المستشرق إلى الجزيرة العربية": تفترض مسبقاً أن المستشرق كان في الجزيرة العربية، أو زارها من قبل؛ "عاد الفتنة نطل بوجهها البغيض": تفترض مسبقاً أن هناك "فتنة"، وأن لها وجهاً بغيضاً، ولو على سبيل الاستعارة، وأنها اطلت من قبل.

§ "الفتنة نعمة لعن الله من أبقظها" تفترض مسبقاً أن هناك "فتنة" "نعمة" وأن أحداً قد أبقظها أو ربما يوقظها.

§ "اغلق الباب" - تفترض مسبقاً أن المتكلم لديه صلاحية إصدار الأمر، ولعل العلاقة بين المتكلم والسامع تمنح الأول هذه الصلاحية دون هيمنة أو قهر.

§ "كم أشعر بأي قدر من الإشقاق على الرئيس الأمريكي جورج بوش عندما عرفت أنه سوف تحاوره مذبة مصرية تتفوق عليه في مستوى الذكاء بفارق شاسع" (نصار عبد الله "منى وبوش". المصريون، ٢١ مايو ٢٠٠٨): تفترض مسبقاً أن للإشقاق

نرجات، وأن بوش موجود وهو "الرئيس الأمريكي" - هكذا كان - وأن "منفعة  
مصرية" سوف تحاوره، وأنها "تتفوق عليه في مستوى الذكاء بفارق شاسع".  
يشير الافتراض المصنق، إذن، إلى التسليم بصحة مقولة أو فكرة، ودعوة السامع أو  
القارئ إلى التسليم بها، بينما ينشغل بتلقي خبر أو استند آخر، في "عملية السلام في  
الشرق الأوسط تحتاج دفعة قوية"، الخبر هو جملة "تحتاج دفعة قوية". بينما نتلقى  
هذا الخبر، ونسأل: هل هي حقاً تحتاج دفعة قوية، لا نسأل: هل هناك حقاً عملية  
سلام في الشرق الأوسط؟ وهنا يكمن الخطر الجسيم، إذ يستخدم الساسة والمروجون  
والدعائيون ما لا حصر له من الافتراضات المسبقة لتعريض مقولات أيدولوجية  
ملتبسة، وكأن علينا حين نطالع جملة من قبيل "التطرف الإسلامي خطر يهدد الغرب"  
أن نسلّم بوجود "تطرف إسلامي" بينما ننشغل بتلقي خبر تهديد الغرب.  
لما المعلوم من مكتوب أو ملفوظ بالضرورة فهو أنه التصاقاً بالمكتوب أو الملفوظ،  
وربما لهذا السبب لا نجد له نفس التأثيرات البلاغية التي للتضمنين. ولا نفس الأهمية  
في دراسات تحليل الخطاب. إذا قلنا إن علياً لديه ثلاثة أولاد، فمن المعلوم بالضرورة  
أن له وك ولدين، ومن المعلوم بالضرورة أنه تزوج مرة واحدة على الأقل. على  
أننا لا ينبغي أن نغفل السياق، لأن ما هو معلوم بالضرورة في ثقافة ما، ليس معلوماً  
بالضرورة في غيرها دائماً، فليست كل الثقافات تضع الزواج شرطاً للإنجاب.



## ماذا نفعل بالكلمات؟

### إن لصاحب الحق مقالاً

"حُشِنَا مُسَدَّدًا، حُشِنَا يَحْيَى، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ  
سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ رَجُلٌ يَتَقاضَا قَاعَظَ لَهُ فَهَمَّ بِهِ  
اصْتِحَابَهُ. فَقَالَ دَعُوهُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ  
مَقَالًا". وَقَالَ ضَرَّ إِنَّ مَقَاطِعَ الْخَلْقِ عِنْدَ  
الشَّرْوَطِ، وَكَذَا مَا شَرَطْتَ. وَقَالَ الْعَمُورُ  
سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ صِهْرًا  
لَهُ فَأَتَى عَلَيْهِ فِي مَصَافِرَتِهِ فَاحْضَنَ قَالَ  
حَدَّثَنِي وَصَنَّقَنِي وَوَعَدَنِي فَوَقَى لِي" (صحيح  
البخاري).

### دعاهم الكلام أربع

"وقال أبو ريز لكاتبه: اعلم أن دعاهم المقالات  
أربع، إن التمس لها خامسة لم توجد، وإن  
نقصت منها واحدة لم تتم، وهي: سؤالك  
الشيء، وسؤالك عن الشيء، وأمرك  
بالشيء، وإخبارك عن الشيء. فإذا طلبت  
فالسج، وإذا سألت فلأوضح، وإذا أمرت  
فأحكم، وإذا أخطرت فحقق. وأجمع الكثير مما  
تريد في القليل مما تقول" (العقد القريب لا ين  
عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص  
١٧٥).

لم يكن جون أوستن، أو جون  
سيرل من قبله، أول من تناول اللغة  
يوصفها فعلاً له تأثيره وشروط  
نجاحته، لكن نظرية أفعال الكلام  
Speech Acts (والكتابة  
كذلك)، التي أسس لها الأول  
وطورها الثاني، هي التي ألقت  
الضوء على هذا الجانب من اللغة  
ووضعت في بؤرة اهتمام الباحثين،  
وجعلته ضرورة لازمة في دراسة  
اللغة، وكرست فرعاً مهماً من  
فروع علم اللغة هو فلسفة اللغة.  
وما زال لهذه النظرية أثرها الفاعل  
في كل ما تلاها من مقاربات لغوية.  
وهي فصل مهم في تحليل الخطاب،  
وتحليل النص، وتحليل الحوار،  
وتحليل الخطاب السياسي  
Political Discourse  
Analysis، وتحليل الخطاب  
النقدي (الرايديكالي) Critical

Discourse Analysis، والأسلوبية Stylistics.



تشمل المقولات والأطروحات المؤسسة لهذه النظرية تمييز أوستن (١٩٦٢) بين نوعين من الجمل، أو الملفوظات، يقتصر الأول على الوصف أو التقرير constatives (مثل: "تناولت طعام الإفطار")، بينما يتجاوز الثاني ذلك إلى الأداء والإنجاز أو الفعل performatives (من قبيل: "أعذر"، "فتح الباب من فضلك")، بل يرى بعض شراح النظرية أن كل التلفظات والجمل هي في نهاية الأمر أفعال، حتى التقرير والوصف والإخبار أفعال، مثلها في ذلك كمثل الأمر، والاعذار، والتسمية، والمنح، والمنع، وما إلى ذلك. ومن المقولات المؤسسة للنظرية كذلك تصنيف أوستن جواب التلفظ أو الجملة إلى ثلاثة هي:

#### ١. الصيغة locution - ظاهر التلفظ

أو الجملة، أي نطقها أو كتابتها.

#### ٢. المعنى المقصود illocution - ما

يريد المتكلم أو الكاتب أن ينقل إلى المتلقي.

#### ٣. التأثير perlocution - رد فعل

المتلقي، وصول الرسالة من عنده.

هنا ينبغي أن نلاحظ أن العلاقة بين الصيغة والمعنى المقصود ليست مباشرة أو شفافة في كل حال. لنأخذ مثلاً سؤالك بين أحد أصدقائك على الهاتف "هل والدك موجود؟". من الواضح أنك لا تنتظر مجرد إجابة بنعم أو لا، بل تريد أن يفهم الابن أنك تريد أن تتحدث إلى والده، إذا أجابك الابن بنعم ولم يعقب، فقد توقف عند

#### اللغة والبيبول

"أية نظرية في اللغة لا بُد أن تكون جزءاً من نظرية في الفعل؛ لمسيب بسيط، ألا وهو أن الكلام نوع من السلوك الذي تحكمه قواعد وقوانين، ولأنه سلوك تحكمه قواعد وقوانين، فإن له سمات شكلية يمكن دراستها في صورة مستقلة. غير أن دراسة تلك السمات دون دراسة دورها في إنجاز وأداء أفعال اللغة يشبه دراسة العلات ونظمة الانتماء في الاقتصاد دون دراسة دور تلك العلات والأنظمة في المعاملات الاقتصادية. إن هناك الكثير مما يمكن أن يُقال عن اللغة دون التعرض لما تنجز من أفعال، غير أن مقارنة شكلية مجردة كهذه تبقى حتماً منقوصة، وكأنا ندرس البيبول كمجموعة من القواعد والقوانين المجردة، لا بوصفها لعبة من الألعاب (سيرل Searle، ١٩٦٩، ص ١٧).

المعنى الظاهر المباشر لما قلت، وإذا فهم أنك تريد أن تتحدث إلى والده، فقد حققت ما كنت تبتغي من وراء سؤالك.

من هذه المنطقات ننقل إلى تصنيف الأفعال التي تؤذيها اللغة، أو التي تؤذيها نحن باللغة. وفيما يلي تصنيف سيرل (١٩٦٩)، الذي يثابس على تصنيف أوسثن (١٩٦٢)، هذه الأفعال، حيث نستطيع باللغة أن:

§ "تقرّر"، "تعتقد"، "تجزم"، "تخبر"، "تختتم"، "تقر"، "تتفر" - وكلها تنتمي إلى فئة الإخبار أو التقرير أو تمثيل الواقع Representatives. والمصطلح الإنجليزي أصله الفعل represent ويعني "يمثل"، أو "يعرض".

§ "تأمر"، "تنتهى"، "تطلب"، "ترجو"، "تسل"، "تنوّل"، "تنضرخ"، "تدعو"، "تصر"، "تلتج" - وكلها تنتمي إلى فئة الأمر والنهي Directives. والمصطلح الإنجليزي أصله الفعل direct ويعني "يوجه"، أو "يلزم".

§ "تعد"، "تتعهد"، "تقسم"، "تحلف"، "تلتزم"، "تحمّل"، "تحمّل" وزرا أو مسؤولية، أو "تأخذ على عاتقنا" - وكلها تنتمي إلى فئة التعهد أو الالتزام Commissive. والمصطلح الإنجليزي أصله الفعل commit ويعني "يلزم"، أو "يلتزم".

§ "تعذر"، "تأسف"، "تنتهى"، "تعزي"، "تشكر"، "ترحب"، "تشكر"، "تمدح"، "تنم"، "تجمل"، "تنطقا"، "تندم"، "تعتن"، - وكلها تنتمي إلى فئة التعبير، أو البوح Expressives. والمصطلح الإنجليزي أصله الفعل express ويعني "يعبر".

§ "تعلن" (حربا مثلا)، "تزوج"، "تطلق"، "تسمي"، "تحكم"، (بغرامة مثلا)، "تشهد"، "توقع (عقداً)"، "تعلن"، أو "تفصل" من العمل، "تمنح" نقيا، أو درجة، "تبيع"، "ترهن"، "تقرض" - وكلها تنتمي إلى فئة الإعلان، أو المنح والمنع Declarations. والمصطلح الإنجليزي أصله الفعل declare ويعني "يعلن"، أو "يصر".



حتى تتحقق لهذه  
الأفعال نجاحها  
وصلاحيتها *felicity*،  
لا بُدَّ أن تتوافر بعض  
الشروط والمقدمات  
التي يصنفها سيرل  
(١٩٦٩) إلى: شروط  
تمهيدية —  
*preparatory* (كل  
يكون لمن يؤدي الفعل  
صلاحية ذلك أو  
سلطته، فلتعالم أن  
يفتني، وللقاضي أن  
يحكم، ولصاحب الحق  
أن يتكلم، على الأقل  
في عهد كعهد الرسول  
صلى الله عليه وسلم،  
وللماتون أن يزوجه،  
والوالدين أن يسميا،  
وليس للمجنون أن  
يشهد، وللقاتل أن  
يحكم أن يعن الحرب  
— طالما كان مستوره  
يخوِّله هذا الحق)،

## الإشياء:

### بذور نظرية أفعال اللغة في البلاغة العربية (١)

الإشياء هو ما لا يحتمل صفقا ولا كثبا، كالأمر والتهنى  
والاستفهام والتعني والنداء وغيرها، وينقسم إلى طلبى  
وغير طلبى. الإشياء غير الطلبى هو ما لا يستدعي  
مطلوبا غير حاصل وقت الطلب، وهو على أقسام: المدح  
والذم والعقود، نحو "بعث" و"وهبت" "أمرأتى طلق"  
و"عبدى حر" أو "أنت مفصول"، انقسم نحو: "واة"،  
والتعجب، نحو "كيف قبلت هذا العرض؟ والرجاء. أما  
الإشياء الطلبى فهو الذي يستدعي مطلوبا غير حاصل  
وقت الطلب — حسب اعتقاد المتكلم — وهو مجال علم  
المعاني، وأنواعه خمسة: الأول: الأمر، وهو طلب حصول  
الفعل من المخاطب على سبيل الاستعلاء، ومن ذلك  
الدعاء، والالتماس، والإرشاد، والتهديد، والتعجيز،  
والإباحة، والتسوية، والتكريم، والامتنان، والاهلة  
والنوام والتعني، والاعتبار والثن، والتخيير، والتكبيب،  
والتعجب. الثاني: النهي، وهو طلب المتكلم من المخاطب  
الكف عن الفعل، على سبيل الاستعلاء. ومن ذلك الدعاء  
والالتماس، والإرشاد والنوام، وبين العقبة، والتنبيس،  
والتعني، والتهديد، والكراهة، والتوبيخ، والتحقير.  
الثالث: الاستفهام، وهو طلب الفهم، فيما يكون المستفهم  
عنه مجهولا لدى المتكلم، وقد يكون لغير ذلك كالأمر،  
والنهي، والتسوية، والتعني، والإنكار، التشويق،  
والاستئناس، والتقرير، والتهويل، والاستبعاد، والتعظيم،  
والتحقير، والتعجب، والتهكم، والوعيد، والاستبطاء،  
والتنبيه على الخطأ، والتنبيه على ضلال الطريق،  
والتحسر والتكثير. الرابع: التعني، وهو طلب المحبوب  
الذي لا يرجى حصوله، لاستحالة عقله أو شرعا أو  
عادة، والفرق بين التعني والترجي أن التعني يأتي فيما لا  
يرجى حصوله، ممكنا كان أم مستعنا، والترجي فيما يرجى  
حصوله. الخامس: النداء، وهو طلب توجه المخاطب إلى  
المتكلم، وربما يسعى النداء إلى تحقيق غايات أخرى  
كالاستغاثة، والإغراء، والزجر، والتعجب، والتضجر،  
والتذكير (الشيرازي، ١٩٩٧).



وشروط مصداقية أو إخلاص sincerity (أن يتحرى من يؤدي الفعل الصدق ويتجنب الكذب ما استطاع)، وشروط جوهرية essential (تصل بملازمة الفعل للسياق والموقف الذي يحيط به، فنحن لا نشكر الناس إذا سيئونا أو أهقونا - إلا إذا رأينا في ذلك ما يستحق الشكر، ولا نهني إلا بحدث سعيد، ولا نعد إلا بما يفيد). ولعل مما يقض مضاجع كثيرين اليوم أن كل هذه الشروط والمقدمات تنهك دون مداراة أو خجل، في الإعلانات التجارية التي تزكم الأكوف، وفي فتوى من لا يظنون، وإمامة من لا يصلحون، وفي ادعاء المدعين، ونشئ المتنقنين، وتهافت المتنهاتين، وفي تحليلات أشباه المحللين، وفي الترويج لما يضر، وحجب ما ينفع، ربما لأن بعض البشر بجهلون ما تفعل اللغة في حياتهم وحياة غيرهم، وربما لأنهم يظنون.

اللغة إذن تفعل، ويفعل بها ومن خلالها، وفيها، نتكلمنا (على معنى أنها تعبر عنا، فالمرء، بعبارة الإمام علي كرم الله وجهه، "مخبوء تحت لسانه فإذا تكلم ظهر") كما نتكلمها، وتشكلنا (على معنى أنها تشكل وعينا بالعالم، وبالفن، وبالأخرين) كما تشكلها، وتؤثر فينا كما تؤثر فيها وبها ومن خلالها. ولهذا نطوّر نظرية لفعل الكلام أو اللغة عند أوستن وسيرل فصلا مهما من فصول التداولية، بل من فصول تحليل الخطاب، والتحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي، وكذلك الأسلوبية - تحليل لغة الأنثروب أو التحليل اللغوي للأدب، وهو فصل لا غنى عنه لكل من ينشغل بالتداولية أو تحليل الخطاب - وجاراتهما ومثيلتهما وأخواتهما من الاتجاهات الوظيفية - ويسعى إلى فهم أو تحليل الخطاب في سياقاته وأنواعه المختلفة، غير أن لفعل اللغة تكتسب أهمية خاصة عند تحليل النصوص الحوارية، من محادثات، ومسرحيات، وحوارات في الرواية أو القصة، وما إلى ذلك، لأن المواجهة مباشرة، وفي المواجهة تلعب اللغة أدوارها المؤثرة في حسم صراعات الأفكار والمصالح والهويات والأهواء والانتماءات والولاءات - وربما في تأجيل هذه الصراعات أو تعليقها أو تقاديبها.

## الإشياء (٢)

هذا مجرد تلخيص لا يسعى إلى شرح الخير والإشياء في البلاغة العربية، بل يريد أن يلفت النظر إلى أن بذور التداولية، بل ثمارها، كانت حاضرة في تلك البلاغة كما ذهب إلى ذلك كثيرون ومنهم مسعود صحرأوي (٢٠٠٥) الذي يشير إلى أن أفعال الكلام قد جرى بحثها في تراثنا اللغوي ضمن "نظرية الخير والإشياء"، في مؤلفات عدد من البلاغيين العرب الذين أسوا لهذه النظرية من أمثال: عبد القاهر الجرجاني، وأبي نصر الفارابي، وأبي علي ابن سينا، والقاضي عبد الجبار المعتزلي، ونجم الدين الكندي القزويني، وأبي يعقوب السكاكي، وسيف الدين الأمدي، وشهاب الدين القرافي، وفخر الدين الرازي، وأبي إسحاق الشافعي، والإسبري، وابن الحاجب، وابن يعقوب المغربي، وسعد الدين التفتازاني، وغيرهم ممن استعملوا أدوات التحليل المنطقية والتداولية في تحليل الظواهر اللغوية.

وتطبيقها على أصناف من الخطاب العربي في الطبقات المقامية المثالية. يشير صحرأوي كذلك إلى أن ظاهرة الأفعال الكلامية عند الأصوليين، قد انقسمت إلى نوعين أساسيين: أفعال كلامية منبثقة عن الخير، وأفعال كلامية منبثقة عن الإشياء، مع إلحاحه على تداولية ظواهر أسلوبية كثيرة بحثها الأصوليون والفقهاء مثل ألفاظ العقود والمعاهدات باعتبارها "أفعالاً كلامية" تتحقق فيها "الحمولة الإنجازية".

بفتنا التعبير الأخير في الفقرة السابقة إلى مشكلة حقيقة نكتف بتلخيصنا - نحن العرب - منجزات الغرب في مجال علم اللغة وغيره، ألا وهي مشكلة الترجمة، وإلى ذلك نرد إشارات أخرى في غير موضع من هذا التمهيد. ما الذي تعنيه عبارة "الحمولة الإنجازية" لمن لم يطالع أصلها الغربي؟ تتطرق المشكلة الثانية بتهافت مقولات السبق المعرفي التي لم يعد لها محل من الإعراب إذا جاز التعبير.

لا ينبغي أن تكون الغاية هي إثبات سبق البلاغيين العرب في هذا الصدد أو غيره، بل ينبغي أن تكون الغاية مراجعة التراث البلاغي العربي، والإفادة من منجزات اللغويات الغربية الحديثة في سبيل بلاغة عربية جديدة. ربما يبدو هذا قولاً مكروراً، لكن التكرار في هذا المقام واجب.



## صدق الخير وكثيـه

"وعليه، فتعريفُ البلاغيين الخير في الدرس البلاغي بأنه ما احتمل الصدق والكذب - بزعمهم - تعريفٌ غيرُ مانع أبداً... أرأيت لو أن شخصاً نادى غيره، أو امرأة، أو نهاد، وهو لا يقصد ذلك ألا يكون كاذباً؟ بلى والله! فبئس الكذب مخالفة العبارة لمقتضى الواقع، وهذا منه؛ لأنَّ المنادي، أو الداعي، أو الناجب، أو المستغيث، أو الأمر، أو الناهي ... إلى آخر ما صنفوه في معنى الإنشاء، كلُّ ذلك إذا لم يصادف إرادة في نفس المتكلم وفصداً فهو كذبٌ محض. فالإنشاء إذن - بهذا المعنى الوجودي - يحتمل الصدق والكذب أيضاً. وهل يتوَجَّع المتوَجَّع لغير وجع؟ وهل يستغيث المستغيث لغير فرج؟ (فريد الأصراري: "كشفت الله في معركة السلام"، مجلة حرام، ع ١٦، ٢٠٠٩، ص ص ٣١-٣٤).

الفعال لغوية سياسية - أمثلة مترجمة من دراسة عطونه Atawneh (٢٠٠٨)

(١) "عرفات يطالب العرب بمسيرة التحرك لمساعدته في الخروج من مأزقه" (Al-Quds Daily، ١٨ إبريل ٢٠٠٢). (٢) "ملك المغرب يدين السياسات الإسرائيلية أمام الاتحاد البرلماني" (Al-Quds Daily، ١٨ مارس ٢٠٠٢). (٣) "إذا لم تتسحب من الكويت سحباً كاملاً غير مشروط، فسوف تخسر الكويت وأكثر" (من خطاب بوش الأب إلى صدام حسين، ٩ يناير ١٩٩٠). (٤) "وزير الأمن الإسرائيلي يقول: سوف نتحكم مناطقهم، ونحطم جهاز الأمن الفلسطيني، حتى ننتهي إلى تسليم السلطة الفلسطينية" (New York Times، ١٨ يوليو ٢٠٠٢). (٥) "شارون يقول: إسرائيل تريد أن تمحو حماس كقوة عسكرية سياسية قبل أن يحدث أي انسحاب" (Al-Ahram Weekly Online، ١٦-٢٢ إبريل ٢٠٠٤). (٦) "تيمون بيريز يقول إن دم الرنتيسي لا بد أن يسقى انتقاماً من مقاومة حماس وهجمات على أهداف إسرائيلية" (Al-Ahram Weekly Online، ٢٢-٢٨ إبريل ٢٠٠٤). (٧) "إسرائيل ترفض قرار الأمم المتحدة بشأن عرفات" (AP Online، ٢١ سبتمبر ٢٠٠٢). (٨) "حماس تنوعاً يخطف الجنود" (Jerusalem Post، ١ فبراير ٢٠٠٤). (٩) "يقول الرنتيسي إن عبارة وقف إطلاق النار ليست من مفردات قاموس حركة حماس" (Jerusalem Post، ١٥ يونيو ٢٠٠٢). (١٠) "مسلحون فلسطينيون يحدقون من محاولات إسرائيلية لاغتيال عرفات" (Xinhua News Agency، ٢٥ مارس ٢٠٠٤). (١١) "عرفات يلتئم من الولايات المتحدة التخلّي لوقف حماس النجم والجرائم الإسرائيلية" (Al-Ahram Weekly Online، ٢٢-٢٨ إبريل ٢٠٠٢). ومن نفس المصدر كذلك: (١٢) "السلطة الوطنية الفلسطينية تلتئم من الصليب الأحمر إلقاء حياة الجرحى". (١٣) "الفلسطينيون يلتئمون من دول العالم التخلّي لرفع الحصار". (١٤) "عرفات يطالب المملكة المتحدة بالمساعدة في دفع عملية السلام". (١٥) "وزارة الأوقاف تستنكر منع إسرائيل الفلسطينيين الوصول إلى المسجد الأقصى". (١٦) "عرفات يستنكر محاولة إسرائيل اغتيال الرنتيسي" (ومن ذلك أيضاً أفعال الشجب والإدانة والاستهجان، وغيرها، مما يملكه قبيلو الحيلة، وربما غير ذوي المصالح، من أساليب لغوية. ليس غريباً ما انتهى إليه عطونه وخلاصته أن الأقوياء - إسرائيل والولايات المتحدة - هم من يملكون صلاحيات التفريز، والتهديد، والوعيد. أما الضعفاء والمستضعفون - ومنهم الفلسطينيون - فلا يملكون إلا التماس، والشجب، والإدانة، والاستنكار. وحين يطالبون أو يلحون، فمن قبيل 'العضم').

## التأدب والكياسة

"التأدب" هي ترجمة عثاني (١٩٩٦) لمصطلح politeness. وهي تتجم مع ما نعرفه عن "أدب الحوار"، و"الأدب والأخلاق"، و"أدب الدعاة"، وغيره. ومع التعابير الواردة من قبيل: "ولد مؤدب"، أو "مُهدَّب"، و"فليل أدب"، و"قصة الأدب"، و"تأديب الأبناء". ولعل عثاني أثر "التأدب" على "الأدب" حتى لا يختلط الأمر بين الأدب بالمعنى الذي نتناوله هنا، والأدب بمعنى الشعر والمسرحية والرواية وما إليها. وربما جاز أن نترجم المصطلح إلى "اللباقة"، بمعنى "قول ما يليق"، لكن الترجمة ربما تنكس باللباقة (بالياء لا الياء) التي تعني الطلاقة اللغوية. وربما جاز أن نترجم المصطلح إلى "التهذيب"، إلا أن الكلمة لا تبدو مستساغة - على صحتها. وربما جاز أن نتجا إلى "الكياسة"، بمعنى التعقل والفطنة، ومن ذلك اختيار ما يناسب من القول. الاختيار الأخير هو أكثر ترجمات المصطلح الإنجليزية رشاقة واستساغة. لكنني أشرت الصرامة الدلالية على الرشاقة، ولهذا وقع الاختيار على "التأدب" - مع تكديده أو استبداله بما يناسب من مرادفات وفق الحاجة أو الضرورة.

أول طرح لمبدأ التأدب Politeness كما نعرفه في التداولية الغربية الحديثة هو ما قدمته روين ليكوف Lakoff (١٩٧٣) - مع ملاحظة أنها من كتبت عن المرأة واللغة واللغة والحرب، لكنها ليست جورج ليكوف الذي كان له دور مهم في دراسة الاستعارة وبلورة مفاهيمها وأدوات تحليلها، وفي تحليل استعارات الحرب. تعتقد روين ليكوف أن الحوار بطير بجناحين - مع أنها لا تستخدم هذه الاستعارة - هما الوضوح والتأدب be clear and be polite. وأن المبدأ التفاوضي الذي طوّره جرايس قد وفي حق الوضوح، لكنه لم يعر التأدب الاهتمام اللائق به. من هنا، وتأسيساً على أطروحات جرايس، طوّرت روين ليكوف طرحها عن التأدب، وهو أكثر الأطروحات التي نتناولها هنا إيجازاً - وهذا بعض ما يؤخذ عليه - ويتكوّن من ثلاث قواعد كبرى هي:



§ لا تفرض نفسك (أو آراءك أو ذوقك) أو ثقمتها على الآخرين Do not impose

§ اترك لغيرك حرية الاختيار Give options

§ اجعل الآخرين يشعرون بالبهجة والارتياح Make people feel good

هذه القواعد لا ترد في أدبيات الكياسة والتأدب الغربية الحديثة بوصفها "نظرية"، تكن تبقى للمقاربة وجاقتها ومشروعيتها. إن هذه القواعد الثلاث تختصر جل ما جاء بعدها من تصوّرات، ويبقى لها فضل الصيق والريادة.

ونستطيع أن نعيد صياغة هذه القواعد أو شرحها من خلال تصوّر مفاده أن التآدب يتراوح ما بين الإحجام والإقدام (وقد وجدتهما "الاحترار" و"التوند" في دراسة مجهولة المؤلف)، ومساحة من الاختيار فيما بينهما. لننصوّر مثلاً صديقاً أصلياً البارد، ولننصوّر ثلاثة ردود أفعال إزاء مرضه العارض: الأول، أن تتجنب صديقك حتى لا تشعره بالضيق، وحتى لا يصدر منك ما يوحي بأنك تخشى العدوى؛ والثاني، أن تبادر بالمسؤول عنه، والتخفيف عنه؛ والثالث، بين هذا وذاك، بعض إحجام وبعض إقدام.

ولننصوّر قياساً على ذلك شخصاً فقد عزيزاً أو حبيباً، ولننصوّر ثلاثة ردود أفعال إزاء ما أصابه: الأول، أن تتركه وأحزانه حتى لا تضاعفها؛ الثاني، أن تبادر بالمسؤول عنه والمواساة والتخفيف عنه؛ الثالث، بين هذا وذاك، بعض إحجام وبعض إقدام؛ أن تخلف دون إلحاح، وأن تنصح بالصبر دون وصاية أو تضيق.

كيف نختار ما بين الإحجام والإقدام؟

الإجابة عن السؤال تكمن في طبيعة العلاقة بين طرفي الحوار - هل هي جفاء ومسافة، أم حميمية وألفة. حين يتعلق الأمر بعزيز في قومه لا تربطنا به علاقة شخصية أو بمن لا نعرف، عادة نؤثر الإحجام، لكن حين يتعلق الأمر بصديق أو حبيب أو قريب، نؤثر الإقدام.

هذه القواعد

ليست عامة

على كل حال،

لكنها تخضع

لما لا حصر له

من اعتبارات

وعوامل تتصل

بطبيعة الموقف

وسببته

وأطرافه.

يصح هذا

كذلك على ما

ذهب إليه

ليخوف في

موضع آخر

(١٩٧٥) من

أن النساء أكثر

كياسة من

الرجال وفق

تعريفها

وتوصيفها

الكتاب،

فليست كل

النساء أكثر

### قوائد قل ما يجمعها كتاب

"فقدت بخطي في الأعوام الكثيرة وجمعت من تلك قوائد قل ما يجمعها كتاب أو يحويها لغزتها وغربتها اذهب إلا أنها ليست مرتبة على مثال ولا مهذبة بطريقة ما نسج على منوال أردت أن ألخص منها أنباء ما يدور مصر من الآثار الباقية عن الأمم الماضية والفرون الخالية.. وأثر خلال ذلك نكتا لطيفة وحكما بدية شريفة من غير إطالة ولا أكثر ولا إجحاف مغل بفرض ولا اختصار بل وسط بين الطرفين وطريق بين يمين قل هذا سمعته...

والى لأرجو أن يحظى إن شاء الله تعالى عند الملوك ولا ينو عنه طباع العامي والصغول ويجله العالم المنتهي ويعجب به الطالب المبتدئ وترضاه خلّاق العابد الناسك ولا يمجّه سمع الخابع الفلك ويتخذة أهل البطالة والرفاهية سمرا ويعدده أولو الرأي والتدبير موعظة وعبرا يستدلون به على عظيم قدرة الله تعالى في تبديل الأبدال ويعرفون به عجائب صنع ربنا سبحانه من تنقل الأمور من حال إلى حال، فإن كنت أخصت فيما جمعت وأصبت في الذي صنعت ووضعته فذلك من عظيم منن الله تعالى وجزيل فضله وعظيم نعمه علي وجليل طوله وإن أنا أسكت فيما قطعت وأخطأت إذ وضعت فما أجدر الإنسان بالإساءة والعيوب إذا لم يعصمه ويحفظه علام الغيوب... فليسل النظر في هذا التلخيص على مؤلفه ذيل ستره إن مرت به حقوة وليغض تجاوزاً وصفحاً إن وقف منه على كبره أو نبوة فأب جود وإن علق ما يكون وأي غضب مهند لا يكمل ولا ينو لاسيما والخطير بالاعتكاف مشغول والعزم لالتواء الأمور وتصرها فامر محلول والذهن من خطوب هذا الزمن القطوب قليل والقلب لتوالي المحن وتواتر الإحسان عليل.. (من فاتحة الخطط المقرزية).

من الطريف أن نقرأ هذه الفاتحة في ضوء ما يرد في هذا الفصل من نظريات، فنرى ما فيها من توتر بين مدح الذات والكتاب من ناحية، والتوسل إلى الله تعالى أن يحقق الكتاب القبول وإلى القارئ أن يغض الطرف عما يجد فيه من قصور من الناحية الأخرى، بين الوعي بما بذل المؤلف من جهد وتبرير ما يمكن أن يقع في الكتاب من قصور.



(أ) سوف نفتقد بل وأجاثا، أليس كذلك؟

(ب) بلى، سوف نفتقد بل. (ص ٨٠)

في هذا الحوار القصير يتفق (ب) ولو جزئياً مع (أ)، وبعض الاتفاق خير من الاختلاف، لكن (ب) لا يراعي قاعدة الكمية في مبدأ جراس التعاوني، حيث يتجاهل "أجاثا" تماماً. تفسير ذلك أن (ب) ربما ليس لديه من الخير ما يمكن أن يقول عن "أجاثا"، فيؤثر الصمت على أن يقول ما لا يسنّ.

هكذا يقصر مبدأ التاذب كثيراً من الاختيارات البلاغية. تلك الاختيارات تتشكل من خلال التوثر بين الغايات التواصلية والغايات الاجتماعية. يقترح لينش أربع صيغ للتعامل مع هذا التوثر على أساسها يمكن تصنيف الفعل اللغة/الكلام إلى (ص ص ١٠٤-١٠٥):

§ تنافسية competitive: وفيها تتعارض الغاية التواصلية مع الغاية الاجتماعية، لكن التعارض ربما لا يؤدي إلى التضحية بأى منهما، كما في الطلب والأمر.

§ تعاونية collaborative أو محايدة: ليس فيها للغاية التواصلية من أثر ملحوظ على الغاية الاجتماعية، كما في الإخبار والتقرير، طالما لم يكن أي منهما وثيق الصلة بالمتكلم أو السامع.

§ متناغمة convivial: وفيها انسجام وتناغم بين الغاية التواصلية والغاية الاجتماعية، كما في الشكر والتهنئة والتحية.

§ صدامية conflictive: وفيها صراع حاد، بل أكثر حدة من مجرد التنافس، بين الغايتين التواصلية والاجتماعية، كما في توجيه الاتهامات والسب والإهانة.

توثرات أخرى يستخدمها لينش في صياغة مبدأ التاذب، بين الأرباح benefits والخسائر أو التكاليف costs، بين المدح praise والذم dispraise، بين تشفق disagreement والاتفاق agreement، بين التعاطف sympathy والشماعة antipathy (ص ص ١٢٢-١٢٩).

لما القواعد التي ينظمها مبدأ التائب من وجهة نظر ليتش فيياتها فيما يلي، مع ما يلزم من تصرف:

§ اللياقة Tact: لا تكلف غيرك أكثر مما تكلف نفسك، ولا تمنح غيرك أقل مما تمنح نفسك.

§ الكرم Generosity: لا تكلف نفسك أقل مما تكلف غيرك، ولا تمنح نفسك أكثر مما تمنح غيرك.

§ الاستحسان Approbation: أكثر من منحك غيرك، وأقل من نعتك غيرك.

§ التواضع Modesty: أكثر من نعتك نفسك، وأقل من منحك نفسك.

§ الاتفاق Agreement: أكثر من الاتفاق، وأقل من الشقاق مع غيرك.

§ التعاطف Sympathy: أكثر من التعاطف مع غيرك، وأقل من الشفقة في غيرك.

من الواضح أن لكل قاعدة من هذه القواعد وجهين: أحدهما يتعلق بالمتكلم أو الكاتب، والثاني يتعلق بالمتلقي أو الطرف الآخر؛ أحدهما يتعلق بالسلب أو التخفيف (فيما هو ضار أو قبيح)، والثاني بالإيجاب أو المبالغة (فيما هو نافع وطيب). فإذا كنت في مقام النوم أو الحزن، فقلل منه ما استطعت، وإذا كنت في مقام الامتنان أو التهنية، فأكثر منهما ما استطعت. من التائب أن تمدح الآخرين، لكن ليس منه أن تمدح نفسك، فإن كان لا محالة، فقليل منه يكفي، ومن التائب أن تلوم نفسك، لكن ليس منه أن تلوم الآخرين، فإن كان لا محالة، فقليل من اللوم المهدب يكفي، ويظل الإحجام مقدما على الإقدام، وتظل السلطة الاجتماعية - حتى إن كانت مؤقتة أو مشروطة - والألفة عاملين مؤثرين في تحديد الأسلوب المناسب للتعبير عن التائب.

إلى هذه القواعد يضيف ليتش تحبيذ كل ما هو مبهج، من هنا تبدو جملة "مقالتك رديئة" أقل كياسة من "مقالتك إلى حد ما رديئة" ومن "مقالتك جميلة ولكن...". يضيف ليتش كذلك قاعدتين هما المدح في صورة النتم Banter، والنتم في صورة المدح Irony أو السخرية. يقع الأول بين الأصدقاء المقربين الذين زالت بينهم



الحوار التي تستلزم التآلب، فيكون السبب والشتم والخشونة والتألب تعبيراً طريفاً عن الألفة. أما الثاني، فيهدف إلى تجنب النقد المباشر أو الفظة الظاهرة، فنقول لنص أدبي ردي "هذه رانعة أدبية!"

يظل مبدأ التآلب الذي طوره ليتش نظرية مهمة ومقاربة مشروعة، لكنه لم يحظ بما يستحق من اهتمام في الدراسات التداولية، وظل يعاني الحيث هذه الدراسات إلى نظرية براون ولفيسون Brown and Levinson (١٩٧٨/١٩٨٧)، تنطلق نظرية براون ولفيسون من مقولات عالم الاجتماع إرفنج جوفمان Goffman حول صياغة الانطباعات وتشكيلها، وكذلك من الكتابات المؤسمة لأوسن وسيرل وجرايمس.

وتدور النظرية حول مفهوم ماء الوجه face، إن حفظاً وإن إراقة. قبض ما نقول أو نكتب فيه حفظ face-saving، وبعضه فيه إراقة face-damaging، وبعضه يندز بإراقة ماء الوجه face-threatening - ماء وجه المتكلم (أنا) self-face، أو المتلقي (الأخر) other-face. وكما هو الحال فيما سبق، يظل للكماسة وجهان هما الإحجام والإقدام - هما التآلب السالب أو السلبي negative politeness، والتآلب الإيجابي positive politeness في نظرية براون وليفيسون - وهما يقابلان حاجة البشر إلى الخصوصية والتحرر من الضغوط ومن فضول الآخرين وتطفئهم negative face من ناحية، وإلى التناء والاستحسان والقبول positive face من الناحية الأخرى (براون وليفيسون، ١٩٨٧، ص ص ٦١-٦٢).

وكما هو الحال فيما سبق، تظل سلطة المشاركين في الحوار والمسافة أو الألفة بينهم أو بينهما تحدد أسلوب التآلب ومقداره واتجاهه (براون وليفيسون، ١٩٨٧، ص ص ٧٧-٧٨)، حيث يصلح الإحجام إجمالاً مع من لهم سلطة أو نفوذ عينا، ويصلح الإقدام مع من تجمع بيننا وبينهم ألفة أو مودة.

حين يكون المتكلم في مقام التلطف بما يحتمل إهانة، أو إساءة، أو تكثيفاً، أو لوماً، أو زجراً، مما يهدد بإراقة ماء وجه من يكلم أو وجهه هو، تبقى أمامه مجموعة من الاختيارات. الاختيار الأول: بين أن يتلفظ بذلك وألا يتلفظ به. إذا اختار، أو كان عليه أن يتلفظ بما يحتمل شيئاً مما سبق، يبقى لديه الاختيار بين التصريح *on-record*، والتلميح *off-record*. حتى إذا اختار التصريح، بقي أمامه أن يفعل ذلك دون مداراة أو تهوين أو تخفيف أو تلطيف *without redressive action*، أو أن يفعل مع شيء من التلطيف والتخفيف *with redressive action*. إذا اختار التخفيف والتلطيف، فقد اختار التأدب، وبقي عليه أن يختار بين نوعين من التأدب تكررت الإشارة إليهما من قبل - الإحجام والإقدام (براون ولغسون، ١٩٨٧، ص ٦٠، ٦٩).

ولنضرب لهما سبق مثلاً. أنت تريد أن تقترض بعض المال من صديق. أمامك في البداية طريقان: أن تسأله المال أو ألا تسأله (لعله يفهم من تلقاء نفسه). إذا قررت أن تسأله المال، فأمامك طريقان: أن تصرّح أو تلمّح (تخبره عن ظروفك الصعبة غير المواتية وضرورات الحياة التي لا تنتهي - وربما لا يفهم، وربما يفهم فلا يبيّن). إذا اخترت التصريح، بقي أمامك أن تفعل ذلك دون تلطف أو تلطيف ("أقرضني مبلغ كذا وكذا" أو "عفوز ....." أو "هات ....."، أي "لحاج" أو "يعوزني")، أو أن تفعل مع شيء من التخفيف والتلطف ("من فضلك ....."، "وآلو مضحكش متع ....."، "ويمكن لو سمحت ..."، أو "تكرمًا"، و"إذا لم تكن متاعب"). في هذا المخطط كثير من التبسيط غير أنّ له وجاهته.

وفي تفصيل نوعي التلطف أو التأدب يطرح براون ولغسون عدداً من الأساليب البلاغية التي تدرج تحت الإحجام (التأدب السلبى) والإقدام (التأدب الإيجابى) (براون ولغسون، ١٩٨٧، ص ١٠٢-١٢٩، ١٢٩-٢١١، والأمثلة هنا من اللغة العربية). تشمل أساليب الإحجام أو الكفّ والمنع ما يلي: الموارد وتجنب المباشرة، ووضع الطلب في صورة تساؤل، والتعبير عن التمعنى. واستخدام صيغ التوقير



والاحترام ("حضرتك" و"سعادتك" و"طال عمرك" و"فخامتك" و"سموكتك")، والاعذار وطلب القبول ("أسف للإزعاج ..."، و"معذرة ..."، و"أرجو أن تصفحني ...")، وتجنب صيغ الخطاب المباشر "أنا" و"أنت" ("كيف يمكن الوصول إلى ...")، وتفضيل الصيغ المصدرية على الفعلية ("ممنوع التدخين" بدلا من "نحن نمنعك من أن تدخن") والتصميم ("حسب التوائح والتعليمات، يمنع ...")، وحفظ الجميل والاعتراف به ("سأكون ممتنا غاية الامتنان لكم ...")، واستخدام صيغة الجمع ("على السادة الركاب المسافرين ..."، و"نعذر" بدلا من "أعذر")، والتخفيف ("فقط أردت أن أسأل إذا كان من الممكن أن ...")، واستخدام صيغة الماضي ("أردت أن ..."، و"كنت أود أن ...").

وتشمل أساليب الإقدام أو العجز ما يلي:

مراعاة حاجات الآخرين ("لا بد أنك جوعان")، والاستحسان والاهتمام والمباينة فيهما كلما كان ذلك ممكنا ("ما أروع قصيدتك؟"، و"أعجبتني مذاقك اليوم جدا"، و"حلوة خالص"، و"وايد حلوة"، و"ممتاز!"), والتعبير عن الألفة من خلال الصيغ الدرجة ("هات يا عم البناعه دي"، و"رسمه عودة"، و"يش لوتك؟"، و"زي الحلق؟"). وتجنب الاختلاف والشقاق ("دا صحيح"، و"أنا أتفق مع ما تقول") وطلب الوفاق والاتفاق، بل افتراض وجودهما أحيانا ("سوف نلتقي غدا، أليس كذلك؟"، و"هشوفك بكرة"، و"أنت جاي معنا، مش كده؟") وافتراض وجود أرضية أو خلفية مشتركة بين المتكلم والسماع ("كما تعلم ..."، و"تعلمون أن ..."). والفكاهة، والمبادرة الكريمة والوعود بما يسنو ("أزورك غدا إن شاء الله") والتعبير عن الترابط والمشاركة ("كيف حالك اليوم؟"، و"لا، احنا النهارده عال العال"، و"مشينا")، وتقديم العبررات والاعذار كلما لزم الأمر ("لقد تأخرت ..."، و"لا بد أن أذهب الآن ..."). والتعاطف ("تبدو مرهقا اليوم")، والعطاء في مقابل الأخذ ("أرد لك هذا الجميل يوما"، و"هذا دين في حقي").

هنا ينتهي الكلام

عن مبدأ التأنيب

في الدراسات

الدولية

العربية، لكن

هذه الدراسات

حققت بما لا

نستطيع له هنا

حصراً من

مقاربات

ومراجعات ألفت

على ما تعلقي

منه هذه

الدراسات

والتصورات من

تجريد، ومن

الحيل إلى

ثقافة الغربية،

ومن تبسيط

مخل في تصنيف

التأنيب إلى إقدام

أو إحجام، دون

معالجة الدرجات

الرمائية فيما

### الكلمة الطيبة

M/3034 6375 dy+x 255 243 248 249 250 251 252 253 254 255 256 257 258 259 260 261 262 263 264 265 266 267 268 269 270 271 272 273 274 275 276 277 278 279 280 281 282 283 284 285 286 287 288 289 290 291 292 293 294 295 296 297 298 299 300 301 302 303 304 305 306 307 308 309 310 311 312 313 314 315 316 317 318 319 320 321 322 323 324 325 326 327 328 329 330 331 332 333 334 335 336 337 338 339 340 341 342 343 344 345 346 347 348 349 350 351 352 353 354 355 356 357 358 359 360 361 362 363 364 365 366 367 368 369 370 371 372 373 374 375 376 377 378 379 380 381 382 383 384 385 386 387 388 389 390 391 392 393 394 395 396 397 398 399 400 401 402 403 404 405 406 407 408 409 410 411 412 413 414 415 416 417 418 419 420 421 422 423 424 425 426 427 428 429 430 431 432 433 434 435 436 437 438 439 440 441 442 443 444 445 446 447 448 449 450 451 452 453 454 455 456 457 458 459 460 461 462 463 464 465 466 467 468 469 470 471 472 473 474 475 476 477 478 479 480 481 482 483 484 485 486 487 488 489 490 491 492 493 494 495 496 497 498 499 500 501 502 503 504 505 506 507 508 509 510 511 512 513 514 515 516 517 518 519 520 521 522 523 524 525 526 527 528 529 530 531 532 533 534 535 536 537 538 539 540 541 542 543 544 545 546 547 548 549 550 551 552 553 554 555 556 557 558 559 560 561 562 563 564 565 566 567 568 569 570 571 572 573 574 575 576 577 578 579 580 581 582 583 584 585 586 587 588 589 590 591 592 593 594 595 596 597 598 599 600 601 602 603 604 605 606 607 608 609 610 611 612 613 614 615 616 617 618 619 620 621 622 623 624 625 626 627 628 629 630 631 632 633 634 635 636 637 638 639 640 641 642 643 644 645 646 647 648 649 650 651 652 653 654 655 656 657 658 659 660 661 662 663 664 665 666 667 668 669 670 671 672 673 674 675 676 677 678 679 680 681 682 683 684 685 686 687 688 689 690 691 692 693 694 695 696 697 698 699 700 701 702 703 704 705 706 707 708 709 710 711 712 713 714 715 716 717 718 719 720 721 722 723 724 725 726 727 728 729 730 731 732 733 734 735 736 737 738 739 740 741 742 743 744 745 746 747 748 749 750 751 752 753 754 755 756 757 758 759 760 761 762 763 764 765 766 767 768 769 770 771 772 773 774 775 776 777 778 779 780 781 782 783 784 785 786 787 788 789 790 791 792 793 794 795 796 797 798 799 800 801 802 803 804 805 806 807 808 809 810 811 812 813 814 815 816 817 818 819 820 821 822 823 824 825 826 827 828 829 830 831 832 833 834 835 836 837 838 839 840 841 842 843 844 845 846 847 848 849 850 851 852 853 854 855 856 857 858 859 860 861 862 863 864 865 866 867 868 869 870 871 872 873 874 875 876 877 878 879 880 881 882 883 884 885 886 887 888 889 890 891 892 893 894 895 896 897 898 899 900 901 902 903 904 905 906 907 908 909 910 911 912 913 914 915 916 917 918 919 920 921 922 923 924 925 926 927 928 929 930 931 932 933 934 935 936 937 938 939 940 941 942 943 944 945 946 947 948 949 950 951 952 953 954 955 956 957 958 959 960 961 962 963 964 965 966 967 968 969 970 971 972 973 974 975 976 977 978 979 980 981 982 983 984 985 986 987 988 989 990 991 992 993 994 995 996 997 998 999 1000

في القرآن الكريم، وهو معين البلاغة العربية الأولى، أشارت  
لغزى إلى فضيلة الكلام الطيب. ومن ذلك خطاب الله عز وجل  
رسوله صلى الله عليه وسلم

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ كَانَ يَوْمًا بِاللهِ  
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يُوْذِي جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يَوْمًا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،  
فَلْيَكْرَمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يَوْمًا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَقِلْ خَيْرًا أَوْ  
لِيَصْمِتْ. (١) "حدثنا إسماعيل بن عدي: حدثنا سعيد بن أبي هريرة  
عن أبي موسى الأشعري، عن أبيه، عن جده قال: قال النبي صلى  
الله عليه وسلم: على كل مسلم صدقة. قالوا: فإن لم يجد؟ قال:  
فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق. قالوا: فإن لم يستطع أو لم  
يقدر؟ قال: فيعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال:  
فليأمر بالخير، أو قال: بالمعروف. قال: فإن لم يفعل؟ قال: فليصم  
عن الشر فإنه له صدقة." (٢) "وقال أبو هريرة، عن النبي صلى  
الله عليه وسلم: الكلمة الطيبة صدقة." (٣) "حدثنا أبو الوليد: حدثنا  
شعبة قال: أخبرني عمرو، عن خيثمة، عن عدي بن حاتم قال:  
ذكر النبي صلى الله عليه وسلم النار، فتعوذ منها وأشاح بوجهه،  
ثم ذكر النار فتعوذ منها وأشاح بوجهه، قال شعبة: أما مرتين فلا  
أشك، ثم قال: اتقوا النار ولو بشق تمر، فإن لم تجد فيكلمة  
طيبة. وفيه الصحيح كذلك كثير عن بر الوالدين، وصلة الرحم،  
والرحمة، وحسن الخلق، والرفق، والتواضع، والأمانة، والوفاء.



بينهما، ودون اهتمام مناسب بنقيض التاذب، أي الوقاحة أو البذاءة ("قلبة الأتباع"). حتى الدراسات التداولوية العربية - التي تبقى حبيسة المكتبات الجامعية - تتناول من منظور غربي. وحين تُترجم نظرية التاذب خصوصا والتداولوية عموما إلى العربية، ينتهي الأمر إلى نصوص غريبة تستعصي على الفهم، وتضطر قراءها إلى الرجوع إلى الأصول الغربية. هذا إلى ما نألفه من تهافت ادعاءات السبق الحضري والاختيار غير الواعي بين بلاغة عربية قديمة دون تجديد أو مراجعة، وبلاغة غريبة بفضائها وقضيضها، دون تفنيد، ودون اهتمام بالمصالح الثقافي الذي تطوّرت فيه.

## كياسة أون لاين

ثم ينضب بعد معين البحث في التادب. مازال ينتقل من جنس خطابي إلى آخر، وتتوالى الدراسات في مختلف اللغات والثقافات، ويستجيب لمتغيرات العصر فيتجلى في آداب وأخلاقيات استخدام الانترنت أو *netiquette* التي نجد شرحاً مفصلاً لها في كتاب فيرجينيا شيا Shea (٢٠٠٤). من تلك الآداب:

§ تكفيد البعد الإنساني، لأن وراء الأجهزة والشاشات والرسائل البريدية والخدمة والمنتديات بشرًا يشعرون ويعقلون.

§ التزام نفس الآداب والقواعد الأخلاقية والسلوكية التي ينبغي الالتزام بها في الواقع البشري الذي ألفناه عند الانتقال إلى الواقع الافتراضي الذي لم يعد هناك بهد من معيشتنا، على معنى أن القواعد التي وردت فيما سبق صالحة للتطبيق في الواقع الجديد، مع ملاحظة ما يثمم به من خصائص وما يستلزم من وسائل.

§ الوعي بالمكان والمقام في هذا الفضاء الواسع حتى لا تقع فريسة الرسائل غير المرغوب فيها، والإعلانات المضللة، والفرصنة، والفيروسات، وغسيل الأموال، وحتى صنوف الاحتيال والتحايل، وحتى لا نؤذي الآخرين، أو نلحق بهم الضرر.

§ احترام خصوصيات الآخرين وأوقاتهم وانشغالاتهم، لأن لهم أولوياتهم التي ربما لا تتفق مع أولوياتنا، والتزاماتهم التي ربما لا تشبه التزاماتنا.

§ حسن المظهر وحفظ ماء الوجه على الانترنت، فلا تفعل ما يسيئ، أو يثير الكراهية أو التقزز أو النفور.

§ تداول المعرفة وتقاسمها، وتبادل الخبرات والمهارات عبر ما يتيح الواقع الافتراضي من وسائل ووسائل.

§ مناهضة التعصب والحروب الكلامية، والتنازع، والإساءات المتبادلة بين أنصار المذاهب المختلفة، والفرق الرياضية المتنافسة، والعرقية المتصارعة، والبلدان المتجاورة.



§ تجنب إساءة استخدام

ما يتيح الواقع الافتراضي لبعض "سكان" من قوة أو سلطة وهيمنة مصدرها الخبرة، أو المعرفة، أو الإحاطة بما لا يحيط به الآخرون. ومن ذلك أن يتجنب مثيرو المواقع والمشرقون على المنتديات الغفلة، والفظافة، والسخرية، والتطاول في إصدار ونشر تعليماتهم.

§ التسامح والتجاوز عن

هفوات وأخطاء الآخرين التي ربما تتجم عن حداثة عهدهم بالواقع الافتراضي واليائه، والوائه، وقواعده. وربما يقتحم التدريشة أو المراسلات أو المنتديات أو المدونات قراصنة، وينجحون في إشعال فتيل الكراهية والحروب الكلامية بين المتحاورين.

### بلاغة الصمت

وردت إشارة إلى الصمت، وهو جدير بشيء من الاستطراء، فعنه، ومن مرافقه السكوت، ما يكون أبلغ أو أكثر كياسة ولباقة من الكلام، فيكون ذهباً حين يكون الكلام فضة، ومنه ما يكون كلاماً يغير كلام، كما نجد في الثقافة العربية الإسلامية - "السكوت علامة الرضا". ليس كل الصمت بالقطع رضا أو قبول، فعنه ما يكون خوفاً، أو هروباً من الرقابة والمحكمة - كما في "السكوت عن" من أمور الدين والسياسة والجنس - أو كمداً، أو خجلاً، أو حيرة، أو دهشة، وتيهيراً، أو تأملاً، أو استراحة من الكلام، أو استعداداً له. ومنه ما يكون اضطراراً جسدياً، كما يحدث أثناء النوم والتنفس. ومنه ما يكون رعاية لبعض القوانين أو التعليمات والآداب، كما نعين في المكتبات العامة، وأثناء خطبة دينية. ومنه ما يكون صمت الغرياء الذين لا يجمعهم جامع إلا مكان كالطائرة أو الحافلة. ومنه ما يكون استماعاً وطلباً للمعرفة أو المتعة، أو كليهما، يتبين في تركيزه، ووقاره يتبين ما يقال من تلاوة، أو محاضرة، أو خطاب سياسي أو أخية. ومن الصمت ما يكون إجلالاً للموت، وما يصاحبه من حزن، وتعزية، وجثارة، وما يتلوه من جذلة. ومنه ما يكون صيماً عن الكلام وقاءً لنذر، كما فعلت السيدة مريم وروى عنها القرآن الكريم. ومنه ما يكون تعقلاً عن قول ما لا يليق - ولا بد أن ما "يليق"، ومن ذلك الكلام في الأمور الأسرية، والسؤال عن العمر، والراتب، والحالة الزوجية، والديانة، أو المذهب، يختلف من سياق إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى. ومن الصمت ما يكون إشارة إلى انتهاء حوار أو كلام. ومن الصمت والسكوت ما يكون قهراً، أو قمعاً يمارسه ذوو القوة والسلطان والتفوذ على من سواهم. ومنه ما يكون جهلاً بما يقال، أو إغراءً له، أو لمن يقولونه. ومنه ما يكون من قبيل ضعف الثقة بالنفس أو فقدانها، وما يصاحب ذلك من خوف الوقوع في الخطأ، والتعرض للسخرية. ومن الصمت ما يكون احتجاجاً، أو اعتراضاً، أو امتناعاً مؤقتاً عن الكلام في محكمة، أو أمام النيابة.

(انظر على سبيل المثال إيفرات Ephratt، ٢٠٠٨).

## الإشارة

### عن الالتفات في القرآن الكريم

ما أبلغ خطاب هارون أخاه موسى عليهما السلام بما بينهما من صلة دم ورحم حتى لا يبالغ في لومه وتقريعه:

أَقْبَسَ بَعْدَ مَا نَبَّأَ هَارُونَ بِمَا قَالَ إِلَىٰ مُوسَىٰ - وَأَنَّهُ لَئِيَّا قَتَلْتَهُ - (سورة طه)

وفي البلاغة العربية وفقات دالة عند ظاهرة الالتفات deictic/pronoun shift - وهي ترد إشارة في غير هذا الموضع من هذا التبسيط - تنطلق من القرآن الكريم الذي يحفل بأمثلة لهذه الظاهرة، في التحول من المتكلم إلى الغائب أو المخاطب، ومن الغائب إلى المخاطب، ومن الغائب إلى المتكلم، من ذلك ما نقرأ في

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ إِذَا دُخِلَ عَلَيْهِمْ خُبْرٌ - وَلَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّهُمْ يُطَاقُونَ - (سورة النجم)

أما ما يؤدي الالتفات من وظف بلاغية في القرآن الكريم مما نجد في تفاسيره، فيشمل المبالغة، والتعجب، والتخصيص، والامتنان، والتشريف، والتذكير، والترهيب، وإقامة الحجة والغائب، والتخفيف، والتوبيخ. ليس من المقبول إذن الوقوف - كما درجت بعض كتب البلاغة - عند "رفع المسألة أو درء الملل" بوصفها الغلبة الوحيدة للالتفات.

تجاوز التعابير

الإشورية أسماء الإشارة

(ذا) أو "هذا" و"ذي" أو

"هذه" و"ذلك" و"تلك"

وهذان" و"هذان"

و"هؤلاء" و"أولئك" -

مع ملاحظة أن "هـ" أو

"ها" اضيققت للتشبيه -

واستغلتها العامية

المتنوعة من قبيل "دا"

و"دي" و"دولة" أو

"نولت" و"هذيلة")،

لكنها تشاركها طبيعتها

الدالية، وهي الإحالة

إلى ما يفهم من سياق

النص - سياق اللغوي

وغير اللغوي الذي ورد

تفصيله فيما سبق.

من خلال تصنيفات

لنسون Levinson (١٩٨٣، ص ص ٥٤-٩٦)، وكروز Cruse (٢٠٠٠، ص

ص ٣٢٢-٣٢٣)، وجرندي Grundy (٢٠٠٠، ص ص ٢٢-٤٧)، يمكن أن

نخص أصناف الإشارة فيما يلي، مع ما يلزم من توضيحات وأمثلة وإحالات إلى

بلاغة العربية:



## الإشارة

### عن الالتفات في القرآن الكريم

ما أبلغ خطاب هارون أخاه موسى عليهما السلام بما بينهما من صلة دم ورحم حتى لا يبالغ في لومه وتقريعه:

أَقْبَسَ بَعْدَ مَا نَبَّأَ لُوطُ أَخَاهُ لُوطُ قَالَ لِي وَبَنَاتِي هُنَّ حَبْلُ الْوَدَّاعِ (سورة طه)!

وفي البلاغة العربية وفقات دالة عند ظاهرة الالتفات deictic/pronoun shift - وهي ترد إشارة في غير هذا الموضع من هذا التبسيط - تنطلق من القرآن الكريم الذي يحفل بأمثلة لهذه الظاهرة، في التحول من المتكلم إلى الغائب أو المخاطب، ومن الغائب إلى المخاطب، ومن الغائب إلى المتكلم، من ذلك ما نقرأ في

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ هُمْ يَوَدُّونَ (سورة النجم)!

أما ما يؤدي الالتفات من وظائف بلاغية في القرآن الكريم مما نجد في تفاسيره، فيشمل المبالغة، والتعجب، والتخصيص، والامتنان، والتشريف، والتذكير، والترهيب، وإقامة الحجة والغائب، والتخفيف، والتوبيخ. ليس من المقبول إذن الوقوف - كما درجت بعض كتب البلاغة - عند "رفع المسألة أو درء الملل" بوصفها الغاية الوحيدة للالتفات.

تجاوز التعابير

الإشارية أسماء الإشارة

(أنا أو "هذا" و"ذي" أو

"هذه" و"ذلك" و"تلك"

وهذان" و"هذان"

و"هؤلاء" و"أولئك" -

مع ملاحظة أن "هـ" أو

"ها" اضيققت للتشبيه -

واستغلتها العامية

المتنوعة من قبيل "دا"

و"دي" و"دولة" أو

"نولت" و"هذيلة")،

لكنها تشاركها طبيعتها

الدالية، وهي الإحالة

إلى ما يفهم من سياق

النص - سياقته اللغوي

وغير اللغوي الذي ورد

تفصيله فيما سبق.

من خلال تصنيفات

لنسون Levinson (١٩٨٣، ص ص ٥٤-٩٦)، وكروز Cruse (٢٠٠٠، ص

ص ٣٢٢-٣٢٣)، وجرندي Grundy (٢٠٠٠، ص ص ٢٢-٤٧)، يمكن أن

نخص أصناف الإشارة فيما يلي، مع ما يلزم من توضيحات وأمثلة وإحالات إلى

بلاغة العربية:

## § الإشارة إلى (أو في) الخطاب discourse deixis :

"في الفقرة السابقة"، "فيما يلي"، "في هذه الرواية"، "فيما سبق". هذه العبارات نصية تنظيمية تحيل إلى أجزاء في النص أو الخطاب وتسمى إلى تنظيمه وتحقيق السبك والحبك فيه. ومن ذلك الإشارات الشارحة - كما نجد في هذا الاقتباس - "تنظر" - من مقدمة قطعة من أوروبا لرضوى عاشور - وما نتحدث من خلاله بؤرة السرد وزاويته: "في هذه الرواية أنا الناظر. ليس هذا الاسم هو ما اختره لي والدي، ولا هو فنيتي التي يناديني الناس بها، أنا الناظر لأن مهمتي النظر، أنقل عبر حجابي ما نظرت إليه من نظر العين والقلب، أي ما رأيته بالبصر والبصيرة. حين رجعت إلى المعاجم لأتأمل مادة "نظر" وأطمئن أن الاسم يفي تمام الوفاء بالغرض، استوقفتني عبارة "تنظر العين"، وهي النقطة السوداء الصافية التي في وسط سود العين، وبها يرى الناظر ما يرى، وهي البصر نفسه، وهي أيضا عرق في الأكف (أو عرقان على جانبي الأكف) فيه (أو فيهما) ماء البصر، أترجمهما بلختا المعاصرة إلى قناة السمع. قلت هذا اسم يناسبني، ثم عدلت عن استخدامه لغرابته، وأيضاً لمنافاته النقة، فما أرويه ليس البصر نفسه بل ما رأيته فأعجبني أو ساعني، أتفكر فيه وأقدره فينسأ على موقعه مني وموقعي منه. ثم أعجبتي "نظيرة القوم" وهو طليعتهم، ينظر إليه قومه، يمثلون ما أمنتل، وهو طريقتهم، ولكنني وجدت هذا الاسم الثاني تماماً كسابقه غير مألوف ويفتقد النقة، فانا، على عكس نظيرة القوم، رجل وحيد معتكف في داره، نلت طريقة أهلي، ربما كان لي أهل أتعرف عنهم ذات يوم، ولكن هذا أمر مستبعد لأن العمر لن يمتد طويلاً. أنا الناظر، منظرتي تلة عمري، أكف عليها رقبيا وحارسا، أنتظر وأعتبر وأقدم دلائل المحبة، لأن النظر في لسان العرب دليل محبة، وترك النظر دليل انصراف أو بغض وكراهية. ربما كان هذا التوضيح زائداً عن الحاجة، يستيق الرواية بإعلان ما قد تشير إليه وتضمته، ولكنني أردت رفع التيس، لأن كلمة "الناظر" في العربية الدارجة في مصر تحيل إلى مدير المدرسة، وفي الماضي غير البعيد كان الوزير المنتفذ يدعى الناظر، يدبر شئون نظارته المحددة ويحكم سير الأمور فيها. ثم



أعمل مديراً لمدرسة في حياتي، ولا توفرت لي سلطة الإدارة والمسيرين، أنظر المدرسة أو الوزارة ينافي المقام والمقال وتجربتي، كيف لي وأنا أقصد الثقة والأمانة أن أترك لأسمي الدال على مهمتي أن يسحب خيال القارئ إلى طريق مفارقة تغير المعنى وتعكسه؟ (رضوى عاشور: قطعة من أوروبا، ٢٠٠٣).

#### § الإشارة الوجدانية empathetic deixis :

"هذا" للقريب و"ذلك" للبعد، والبهذا هنا قد يكون مكتباً، أو زمناً، أو شعورياً، وقد يكون تعبيراً عن التوقير والإجلال، من هنا تبدو غرابة تعبير من قبل "هذا الماضي البعيد" إلا في سياقات خاصة، وبلاغة التعبير القرآني عن القرآن ذاته في سورة البقرة: "ذلك الكتاب لا ريب فيه". ومن جميل ما ورد في البلاغة العربية عن ذلك أن "للمشار إليه ثلاث مراتب: قريبة وبعيدة ومتوسطة. فيشار إلى ذي القربى بما ليس فيه كف ولا لام: كأكرم هذا الرجل أو هذه المرأة وإلى ذي الوسطى بما فيه الكاف وحدها: كتركب ذلك الحصان، أو تلك الناقة، وإلى ذي البعدى: أي البعيد، بما فيه الكاف واللام ساء، كخذ ذلك القلم، أو تلك الدواة" (الغلاييني، ص ٢٩).

#### § ظروف الزمان time deixis :

"الآن"، و"عندئذ"، و"صباح"، و"مساء"، وهكذا. لكل فعل أو حدث أتيته، فحين نقول "أنا الآن أقرأ"، نحيل "الآن" إلى زمن نعرفه الآن في هذه الجملة ويرتبط بها وترتبط به، وحين نقرأ "الآن حصحص الحق" على لسان امرأة العزيز في سورة (يوسف)، نحيلنا "الآن" إلى زمنها وزمن "يوسف" عليه السلام، لا زمانك أنت بينما نقرأ، ولا زماننا بينما نكتب.

#### § ظروف المكان place deixis :

"هنا"، و"هناك"، و"ثم". ماذا نضي حين نقول "هنا"؟ لعلها "هنا" حيث نقرأ أنت، أو "هنا" حيث أكتب أنا، أو "هنا" أخرى لمتكلم آخر. لا بد أن "من هنا وهناك" تعني من مكان/ فضاء المتكلم في النص ومن فضاءات أخرى بعيدة.

## § الضمائر person deixis :

"أنا"، "نحن"، "هو"، "هي"، "هم"، "هن"، "هما"، "أنت"، "أنتا"، "أنتما"، "أنتن"، "نحن". عن الضمير يقول ابن منظور في لسان العرب "كما أن أكثر المضمر في العربية إن شئت جئت به، وإن شئت لم تأت به"، ويقول الرازي في مختار الصحاح "أضمر في نفسه شيئاً، والاسم الضمير، والجمع الضمائر، والمضمر الموضع والمفعول".

## § الإشارة الاجتماعية social deixis :

"السيد"، "حضرة"، "عماد"، "استاذي الفاضل"، "أفندم"، وما إليها، تضع العشر إليه في مكانة اجتماعية بالنسبة إلى من يستخدمها، فيما عدا ما يكثر اليوم من استخدامات ساخرة أو فكاهية. وينبغي أن نلاحظ أن الإشارات الاجتماعية وغيرها من صنوف الإشارة ربما تتضافر، أو تتعارض، أو تتناثر في نص ما لتحقيق بعض غاياته البلاغية. في اقتباس "الناظر" ضمائر متكلم تتضافر مع التعريفات الشارحة لتحديد دور المتكلم في الخطاب أو النص، والزاوية التي يعاينه منها المتلقي.

من الأهمية بمكان، إذن، أن نتناول النص من زاوية التعبير الإشارية. من تساؤلات التحليل في هذا الصدد ما يتعلق ببؤرة الأحداث، ونقطة انطلاقها، ومن ثم وجهتها، أو وجهاتها، وتحولاتها، وإدراك الشخصية المحورية ما يحيط بها من شخصيات وأماكن وأحداث بعدا، وتباعدا، أو قربا وتقاربا، وتقربا، ألفة، أو جفوة. سوف نرى فيما يلي من هذا التبسيط أن الإشارة باللغة الأهمية، وأنها تتجاوز مجرد التحديد والتصنيف والتمييز والتسمية أو النداء إلى تكريس الانتماءات، وصراع الهويات والاحتيزات. لكن ينبغي التمييز بين الإشارة بالمعنى الذي ورد هنا وبين الإشارة بمعنى الحركة والإيماءة، وربما النظرة، أو الإشارة باليد، أو الكتف، أو الرأس، أو العين - مع أنهما يتقاسمان القدرة على الإبلاغ والتأثير. ما نقصده هنا هو إشارة النص أو الخطاب إلى العالم الذي يحيط به، وإلى ما فيه من شخوص، وما بينهم من علاقات تقارب، أو تباعد، مساواة، أو تمايز، وإشارة الخطاب إلى نفسه ومختلف أجزائه



ومكوناته. وسوف تعاود الإشارة الظهور بهذا المعنى في معرض الكلام عن ترميز النصوص وسيكها. أما الإشارة بمعنى الحركة والإيماء وما إليها فمجالها دراسة الاتصال غير اللفظي *nonverbal* التي تستلزم جهداً مستقلاً، لأنها تعين اللغة التقليدية على أداء ما يرد هنا من غايات ووظائف، أو تعوقها عن ذلك كله.

من ذلك ما ورد في القرآن الكريم في سورة مريم: *وإذ قالت لربها: أنى يهديني ربى؟* (الآية: ٢١). لقد نذرت مريم للرحمن صوماً، وعزمت على ألا تكلم ذلك اليوم (سياً). ولما كانت تريد أن تبرّ بعهدهما، وفي ذات الوقت تدحض الاتهام، وكان لابد لتحقيق ذلك من التواصل، لم تجد مفرّاً من اللجوء إلى الإشارة. ولقد تحقق التواصل من خلال الإشارة، ودليل ذلك أن الرسالة بلغت هدفها، فردّ عليها قومها المرتابون بقولهم: "كيف تكلم من كان في المهد صبياً". في هذا السياق، حلت الإشارة غير اللفظية محلّ اللغة وأنجزت وظيفتها. هذه تداولية موزنية، لا سبيل إلى الإحاطة بها هنا، ولا الوفاء بحقيها، إلا على سبيل "الإشارة" العابرة.

## اللغة، إذن، تشير

من خلال مناقشة نظرية أفعال اللغة، ومن بعدها الإشارة، ومن قبلهما السياق وعناصره، نستطيع أن نجعل القول فيما تفعل اللغة في أنها "تشير"، أو أنها "مؤشر" - وكلاهما ترجمة صالحة لكلمة index، فعلاً واسماً - بدلُ ويوحى، أما الإيم تشير اللغة، وعلام تدلُّ، فهو على سبيل التلخيص، والكلام لبول تشيلتون وكريستينا شيفتر (٢٠٠٢، ص ص ٣١-٣٢)، مع ما يلزم من توضيح وتمثيل:

### • درجات اليقين والشك :

موقف المتكلم مما يقول، والكاتب مما يكتب، من حيث اليقين أو الشك، ومن ذلك ما نجد في "أنا اعتقد"، و"أزعم"، وأظن"، و"مما لا شك فيه"، و"الحقيقة"، وفي "الواقع"، وقد نلاحظ أن اللغة الإعلامية في غير دولة من الدول العربية تتجرد بالتدريج من محتواها، فتسمع على سبيل التمثيل لا الحصر، "يمكن النهارده تحب ترحب بـ"، ويذهلنا ما يحدث في برامج "التوك شو" - أو البرامج الحوارية - من تعابير من قبيل "في الواقع" و"في الحقيقة"، وهذا الغياب اللافت لتعابير الشك والاحتمال في ثقافتنا العربية.

### • العاطفة والوجدان، أو الحالة الشعورية :

من خوف أو حب أو كراهية، وما تنسم به لغة المياسة من تعبير عن الوطنية patriotism، أو حب الوطن والانتماء، وكراهية الغريباء والأجانب xenophobia، إذا لزم الأمر.



• الغاية أو المقصد، أو الفعل الذي يُراد إنجازه من خلال الكلام أو الكتابة :  
وقد تقدم الكلام عن تلك الأفعال، على أننا لا بد أن نبقى على الحذر اللازم إزاء ما نجد في لغة السياسة والإعلام من خير يُراد به الإنشاء، أو تقرير لا يُراد به مجرد التقرير، بل الاتهام أو التلوم، أو وصف في إعلان لا يُراد به مجرد الوصف، بل الدعوة إلى الشراء، ومن كلام الجاحظ ما ورد في استطراد سابق بعنوان "وهذا كتاب:" "و هذا كتاب موعظة ... والكثرة من السامة..." وقد تقدم أن من غايات هذه المقدمة ومقاصدها: التبرير - تبرير المزج والفكاهة في مقام الجد - وفتويه إلى ما يسعى الكتاب إلى إنجازه وتوصيله - "موعظة وتعريف وتلقين وتنبيه".

• جنس الخطاب، سواء أكان كلاماً أم كتابة :  
في كل نص أو خطاب بعض ما يشير إلى نوعه، سواء كانت الإشارة ظاهرة شارحة - من قبيل "سوف أحكي لكم حكاية"، أو "فيما يلي بيان وزارة الداخلية"، أو "والآن مع النشرة الجوية" - أو تركيبية شكلية - فالنص الذي يتشكل من أبيات كل منها من شطرين أغلب الظن أنه قصيدة، والموسيقى التي تصاحبها كلمات منقحة أغلب الظن أنها أغنية، وهكذا.

• هويات المشاركين في الخطاب، وانتماءاتهم الاجتماعية والسياسية والعرقية :  
وقد تقدم الكلام عن ذلك، لا تكفي هذه المقدمة بالكلام عن جنس الكتاب - وهو التاريخ أو الكتابة التاريخية، عن "أنباء ما بديل مصر" - وأسلوبه - "من غير إطالة ولا إكثار ولا إجحاف" - والتعبير عن التأثير بين مدح الذات والكتاب من ناحية، والتوسل إلى الله تعالى أن يحقق الكتاب القبول وإلى القارئ أن يقض الطرف عما يجد فيه من قصور من الناحية الأخرى، بين الوعي بما بذل المؤلف من جهد، وتبرير ما يمكن أن يقع في الكتاب من قصور، بل تتجاوز ذلك إلى الإشارة إلى انتماء الكاتب وخلفيته الدينية الإسلامية - "عجائب صنع ربنا سبحانه" و"فذلك من عليم مكن الله تعالى وجزيل فضله وعظيم نعمه علي وجليل طوله" و"إذا لم يحصمه ويحفظه علام الغيوب".

• أدوار المشاركين في الخطاب، والعلاقات التي تربط بعضهم ببعض، وتبادل

الأدوار وتغيرها :

فالمدرّس في المدرسة زوج وأب في البيت، وصديق في جلسة الأصدقاء، وهكذا. ولكن دور لغة التي تميزه عن غيره من الأدوار، ولكن علاقة لغتها - كما يرد في غير هذا الموضع من التبسيط - ولكن ارتباط مقصود بين الدور واللغة التي ترتبط به في نصّ أو خطاب غاباته البلاغية التواصلية.



## التداولية العامة

• طور يورجين هابرماس Habermas تداولية إنسانية عامة Universal Pragmatics تنسجم مع جملة الاتجاهات الوظيفية التي ورد ذكرها في هذا التبسيط في تركيزها على اللغة المتداولة، لا القواعد النحوية أو الصرفية، مع تركيزها الخاص على المصداقية والقول بالصدق أو زعمه، وتسمى إلى اكتشاف ما يحقق التفاهم من خلال التواصل بين البشر، لأن التفاهم هو السبيل إلى تجنب الصراع والشقاق وإلى حل النزاعات، أما سوء التفاهم أو عدم التفاهم، فقد ينجّم عنهما القتل والحروب والفترات والعداوات. وهي تداولية تسعى إلى تجاوز الفصل المتفعل بين الجسد والعقل، بين النظرية والتطبيق، بين التحليل والنقد أو التنفيذ. حتى يتحقق التفاهم، لا بدّ من لغة مشتركة يفهمها طرفا الحوار أو التفاعل، ومجموعة من القواعد التي تنظم التفاعل أو الحوار، ومن التوقعات التي يحترمها الطرفان، غايات التفاهم الذي يتحقق من خلال التواصل اللغوي هي الاستجم وتبادل المعرفة، وترسيخ الثقة بين الطرفين بما يحقق التنوير وروح الجماعة والاتفاق، ويكرّس الإحسان المتبادل بحسن النية (هابرماس، ١٩٧٩، ص ٣). فيما يلي تلخيص أركان تلك التداولية ومكوناتها:

أسس الصدق	مجاله	نوع التواصل	وظيفة اللغة
الحقيقة	العالم الخارجي	معرفي موضوعي	تمثيل الواقع وتبادل المعرفة
الأمانة	المتكلم أو منتج الخطاب - الذات المشاركة في التواصل	تعبيري ذاتي	الابوح بما يشعر به المتكلم وبما يعتقد
النواصة	المجتمع/ الجماعة	تفاعلي توافقي	تأسيس علاقات اجتماعية مقبولة بما يحقق انسجام القيم والمواقف

أركان التداولية العامة ومكوناتها

نقلًا عن هابرماس (١٩٧٩، ص ٢٨-٢٩، ٦٨)

الركن الأول من أركان تلك التداولية - الحقيقة - هو الوظيفة النصورية الوصفية ideational في نسق هاليداي، وهو التقرير في نسق أوستن وميرل، وهو الخير في البلاغة العربية. أما الركن الثاني - الأمانة أو الإخلاص - فجزء من الوظيفة التفاعلية التواصلية interpersonal في نسق هاليداي، وهو يناظر ضرورات الصق والنجاعة في نظرية الفعل اللغة عند أوستن وميرل، كما يرد في غير هذا الموضع. ينتظم الركن الثالث في التداولية العامة - وهو المواصلة - خصائص الأجناس الخطابية، والضرورات والقواعد الاجتماعية التي تحيط بالخطاب، وهو شرط من أشراف النصية، أو النصوصية، في لغويات النص.

كيف يتحقق للخطاب صفته ونجاعته؟ من خلال الإحالة إلى حقائق قابلة للملاحظة أو الاختبار في العالم الخارجي، ومن خلال ما ينشأ بين منتج الخطاب ومستقبله من ثقة ولفة وتفاهم، ومن خلال الالتزام بالأعراف التواصلية الاجتماعية التي تجدها تحت سميات التقاليد الأدبية، أو أدب الحوار، أو الأجناس الخطابية، وغير ذلك، مما يحقق التفاهم بين طرفي الحوار أو الخطاب مما يرد في هذا التبسيط في معرض الحديث عن أشراف النصية، والمبدأ التعاوني، واللياقة والكرامة.

وكيف يحقق المتكلم أو الكاتب غاياته البلاغية التواصلية، ويدافع عن موقفه أو موافقه وتوجهاته، وينقل ما يريد من معنى؟

لا بد أن يكون ما يُقال أو يُكتب قابلاً للفهم، وأن يشتم بالصق، وأن يعبر عن مقاصد المتكلم أو الكاتب، وأن يتأسس نوع من الفهم المشترك بين المتكلم أو الكاتب والمتلقي، أو بين أطراف الخطاب (هايرماس، ١٩٧٩، ص ٤).

وحتى تتحقق للتواصل غاياته، هناك مجموعة من الافتراضات التي يجب أن يقبلها المشاركون في الخطاب، أو يسعوا إلى تحقيقها، ومنها أنهما أو أنهم يستخدمون نفس العلامات اللغوية بنفس الطريقة وب نفس المعنى، وأن الجميع حقاً المشاركة والتفاعل، وأن الفضل لا يكون إلا للحجة القوية، وأن الجميع حريصون على تحقيق التفاهم، وأن كل ما يُقال يمكن أن يخضع للتنفيذ والمساءلة.



## التداولية المقارنة

توقفنا فيما سبق عند جملة من مبادئ تداولية منها مبدأ الكياسة في ثلاث أطروحات متميزة، على ما فيها من تشابه، والمبدأ التعاطفي، وما يتصل بهما من تضمين، والتهاك، وتجاوز، وما تستند إليه التداولية في جملتها من تصنيف لقميل اللغة أو الكلام وشروط نجاحها وفق تصورات أوستن ومن بعده سيرل.

لم نتوقف طويلاً فيما سبق من هذا التمهيط عند حقيقة أساسية مهمة، ألا وهي أن تلك المبادئ والقواعد التداولية تختلف في تجلياتها من لغة إلى لغة، ومن ثقافة إلى ثقافة، ومن موقف إلى موقف، بما في ذلك من يشارك في الموقف من شخص أو شخصيات. هذا التباين هو موضوع التداولية المقارنة أو التباينية *contrastive pragmatics* أو *cross-cultural pragmatics* أو *continental pragmatics* - وهي تهتم بالكلام والحوار - وما يتصل بها من بلاغة مقارنة *contrastive rhetoric* - وهي تشغل بالكتابة، والتداولية بين تدوالتين *interlanguage pragmatics*، وتتناول أساليب التعبير التي يستخدمها من يتعلم لغة أجنبية حيث تختلط فيها تداوليته التي درج عليها والتداولية الجديدة التي ترتبط باللغة الجديدة (على سبيل المثال كاسير وبلوم كولكا *Kasper and Blum-Kulka*، ١٩٩٣).

لن يقع الاختلاف والتباين في تداول اللغة بين الثقافات المختلفة؟

فيما يلي بيان بعض مواضع التباين، تأسيماً على شرح يوهل *Pohl* (٢٠٠٤)، بكثير من التصرف والتوضيح:

• الميول الذهنية وعادات التفكير *mental sets*:

كيف يفسر الضيف سلوك مضيفه حين يلح في دعوته إلى الطعام أو إلى القهوة؟ كيف نفكر؟ وكيف نفسر ما يقع حولنا من أحداث؟ كيف يتشكل سلوكنا اللغوي من

خلال طرق تفكيرنا؟ كيف نفسّر تبسم أحدهم بينما يستمع إلى ما نقول؟ لا بد أن طرق تفسيرنا ما يحدث لنا وحوالنا تؤثر في ربود أفعالنا اللغوية وغير اللغوية.

- الأساق والنصيرات، أو المخططات، الذهنية المسبقة أو الجاهزة *schemata* عن الأشياء والموجودات والأماكن ومما تتشكل. ومن ذلك تصوّر المرء عن هيئة أو مظهر المدرسة، ومعنى العطلة أو الإجازة. لا بد أن يكون لهذه التصورات عن المقام، ومن عناصره المكان، تأثيرها فيما يحدث فيه من سلوك لغوي.

- التصورات، أو السيناريوهات، الذهنية المسبقة *scripts* عن الأحداث ومكوناتها وتتابعها، ومن ذلك التسوق، أو مراجعة الطبيب، أو الاتصال لحجز موعد مع مدير شركة أو إدارة، وما يصاحب كل ذلك من أفعال لغوية.

- الأحداث التواصلية *speech events* والأغراض اللغوية، وكيف تتحقق من خلال تتابع أفعال اللغة.

من ذلك على سبيل المثال الاعتذار *apology* وما يشمل عليه من تلقف وإقرار بالخطأ ثم تبريره، إذا كان هناك ما يبرره، ثم التعهد ألا يقع الخطأ مرة أخرى. من هنا تتجاوز الأحداث التواصلية أو الأغراض اللغوية، من اعتذار، وطلب، وشكوى، وإطراء، وغير ذلك، مجرد الأفعال الكلامية المنفردة إلى مجموعة من الأفعال الكلامية التي تنظم وفق أعراف تداولية تحكمها الثقافات التي تحيط بها.

- الأعراف الاجتماعية الثقافية *socio-cultural norms* التي تحدد ما يليق وما لا يليق في الكلام والحوار، وتبادل الأنوار، والسكوت، ورفع الصوت، وما إلى ذلك.

- الكياسة واللياقة، وقد تقدم الكلام عن ذلك، وما يحددها من الالة *solidarity* أو التباعد *distance* بين المشاركين في الحوار، وما لكل منهم من نفوذ أو سلطة، أو مكانة.

كل ما سبق من عناصر يتباين من لغة إلى لغة، ومن ثقافة إلى ثقافة. ومن موقف إلى موقف، ومن هنا ينشأ التباين في السلوك التداولي، إذا جاز التعبير، فإذا كان الشكر أو التعبير عن الامتنان غرضاً لغوياً إنسانياً عاماً، فإن الطريقة التي تعبر بها



كل لغة وكل ثقافة عن ذلك تختلف عن الطريقة التي تعبر بها لغة أخرى في ثقافة أخرى عن نفس الغرض. وقد ظلت التداولية التقليدية رهن الاحياز للاتساق اللغوية والثقافية الأنجلوأمريكية، حتى تطوّرت التداولية المقارنة، بين سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، وهي تنطلق من التسليم بالفروق الجوهرية بين الثقافات المختلفة في إنتاج أفعال الكلام أو اللغة وتلقيها، وفي تطبيق أو انتهاك المبدأ التعاوني، وفي سلوك الكياسة والتأدب، وغير ذلك من جوانب التداولية. لا سبيل إلى حصر الدراسات التي تتناول الفروق الثقافية في تحقيق الأغراض التواصلية من شكر، وشكوى، وطلب، وإطراء، واعتذار، وتعزية، وتهنئة، ولوم، وغير ذلك، غير أن جلّ تلك الدراسات تقع في أشارك الاحتكام إلى الاتساق اللغوية الأنجلوأمريكية، وتطبيق النظريات التي تنطلق من تلك الاتساق، دون مراجعة أو تفنيد، واختزال ما يلاحظ من تعابير لغوية وأساليب تداولية، قد تدعو إلى إعادة النظر، حتى تخرج تحت النمذج الغربية.

حين يحدث التلاقي بين لغتين، ومن ثمّ ثقافتين، تتبدى تلك الفروق التداولية، وقد ينجم عنها سوء فهم أو ارتباك حين يحاول طرف من الطرفين أن يفرض أساقفه اللغوية التداولية على الطرف الثاني، وحين يجهل طرفاً عادات غيره التداولية، وهذا بعض ما يشتمل عليه مصطلح pragmatic failure (توماس Thomas 1985)، وقد يقع الاختزال، فينبئى الجميع تداولية الأقوياء، فتصبح المعيار والنموذج الذي يجب أن يُحتذى. ولا تخلو تلك المواجهات بين الثقافات من الطرافة. على سبيل التمثيل لا الحصر، في مقام الإطراء ربما يبدى غريباً إعجابه بساعة يد يضعها محدثه العربي، فلا يكون من الأخير إلا أن يقنمها إليه، ويدعوه أن يأخذها، لو لم يكن الغريب على دراية ببعض العادات اللغوية التداولية العربية، لحسب أن الدعوة صافقة جلاء - ولعلها كذلك في بعض المواقف. وربما يخطئ عربيّ تعوداً "الرسميات" مخاطبة زميلة غربية إياه باسمه الأول، فيظنها حباً أو ألفة تنمو، وما هي كذلك.

لا تقتصر تلك التباينات على الأفعال اللغوية المفردة أو التعبيرات والجمل، بل تتجاوزها إلى العادات التداولية، من قبيل تجنب الرفض والإجابة بـ "لا أعلم"، وغير ذلك، وإلى أساليب التعبير الكبرى، وما قد تشتمل عليه من مباشرة أو مداراة، ومن

تكرار، واستطراد، أو اقتضاب، وخروج عن الموضوع، أو التزام به، وما إلى ذلك من أساليب تداولية.

تقع تلك التباينات، ومن ثمّ المفارقات، كذلك على مستوى التعبير غير اللفظية، من لمس، وإيماء، وحركات، وإشارات، وتبسم وضحك، واقترب أو تباعد، وهمس، ونظرات، وما إليها. من ذلك أن الصمت لا يعني الرضا في كل حال، كما يرد في غير هذا الموضع، ولا الإيماء بالرأس، بما يفيد الموافقة في ثقافتنا العربية، له نفس المعنى في غيرها من ثقافات، وليس وضع الساق على الساق في حضرة من يكرنا فعلاً غير لائق في كل الثقافات، ولا خلع الحذاء عند دخول منزل مضيفك ضرورة أخلاقية في كل المناسبات أو الثقافات.

وليس يستغرب، والحال هكذا في الكلام والإشارة، أن يقع التباين في أساليب الكتابة وطرائقها وأدواتها من لغة إلى لغة، ومن ثقافة إلى أخرى. وهذا هو مدار النشغل البلاغية المقارنة أو التقابلية كما سلف. تبلورت تلك البلاغة في نسختها الغربية تأسيساً على دراسة كابلان Kaplan (١٩٦٦) المهمة، والتي تتناول أساليب الكتابة في ثقافات مختلفة، منها ما يسير في خط مستقيم، ومنها ما ينور ويدور حتى يصل إلى غايته البلاغية، ومنها ما بين ذلك. تبقى تلك البلاغة، بعد مرور ما يقارب نصف قرن منذ نشر كابلان دراسته التي تتخذ من أسلوب الكتابة الأمريكي معياراً للحكم على غيره، موضوعاً ثرياً، على أن تتجاوز التصنيفات الجاهزة في تناولها أساليب الكتابة وبلاغتها في المكاتبات والرسائل العلمية، وما تشتمل عليه من حاجة، ومقدمات الكتب، وغير ذلك من أجناس تحريرية.

وليس يستغرب كذلك أن يقع في الكتابة ما يقع في الكلام من انتقال transfer الأساليب البلاغية من اللغة الأم إلى اللغة الثانية، أو الأجنبية، وتشكل ما يسمى تداولية بين تداوليتين، لا هي تداولية اللغة الأم، ولا هي تداولية اللغة الجديدة التي يقبل الطالب والدارسون على تعلمها. من ذلك ما يمكن أن يصدر عن معلم عربي في رده الإعجاب بهاتفه المتحرك باللغة الإنجليزية قللاً "Please take it" - مفردات



إنجليزية ونحو إنجليزي، لكن الدعوة عربية. إذا ظل المنظم على هذا الزئج، ولم يتفن التنقل بين اللغتين والتداوليتين، كان كالغراب الذي أراد أن يدرج كالحجلة في كلفة ومئة. ليس من صالح أحد أن يتم إقصاء إحدى اللغتين لصالح الأخرى، ولا أن تصبح اللغات جميعا نسخا شالهة من لغة كالإنجليزية، لكن من صالح الجميع احترام عادات الآخرين اللغوية والتداولية، والوعي بالفروق الثقافية بين البشر بما يضمن الفهم، وحسن الظن، وتجنب الضرر.

يبقى أن نهرج على بعض ما يناط بدراسات الترجمة وهي تتناول الأساليب البلاغية والتداولية المختلفة. (وهل الترجمة الجميلة الآمنة إلا مهارة وفرة على التنقل بين تلك الأساليب، وما يحملها من مفردات وتركيب بما يناسب السياق؟) من الأصعب يمكن أن تتناول تلك الدراسات علاقات القوة والهيمنة والأيدولوجيا في النص الأصلي، وتحولاتها في النص المترجم. كيف تنتقل علاقات القوة والتأثير من الأصل إلى الترجمة؟ هل يبقى الفاعل فاعلا، والمنفعل منفعلا، والمفعول به مفعولا به؟ هل يبقى القاتل قاتلا، والضحية ضحية؟ هل نترجم "John killed Mary" إلى "جون قتل ماري"، أم "لقيت ماري حتفها"، أم "قتلت ماري"؟ وما دلالة تلك على غايات الترجمة، وسياقها، والعوامل المؤثرة فيها؟ وكيف نترجم وجهة نظر النص الأصلي ومؤلفه؟ هل يبقى التهم تهكما، والسخرية سخرية، والنقد نقدا، أم يتجمل النص في الترجمة؟ وما هو حظ الترجمة من اليقين بالنسبة إلى الأصل؟ هل نقل فعل الكلام على حالها في الترجمة، فيبقى الطلب طلبا، والأمر أمرا، والنهي نهيا، والخبر خبرا، والحكم حكما؟ أين مباشرة "افتح الباب" من مداراة "Would you please open the door" وتلطفها؟ وأين كياسة "يمكن لو سمحت سمكت؟" من فظافة "I Shut up"، وهل تترتب على "أنا أعلنكما زوجا وزوجة" في الثقافة العربية نفس الحقوق والواجبات التي تترتب على "I declare you man and wife" في الثقافة الإنجليزية؟ وهذا كله غرض من فيض الأسئلة الممكنة في تفصيل بعض ما تستطيع دراسات الترجمة أن تفعل في سياق التداولية.

### مثل: أوباما في القاهرة

"شكرا جزيلا، وطلب عصركم. إنه لمن دواعي شرفي أن أزر مدينة القاهرة الأزلية حيث تستضيفني فيها مؤسستان مرموقتان للغة، إحداهما الأزهر الذي بقي لأكثر من ألف سنة منارة العلوم الإسلامية، بينما كانت جامعة القاهرة على مدى أكثر من قرن بمثابة منهل من مناهل التقدم في مصر. وسعنا تعلمان حصن الانساق والانسجام ما بين التقاليد والتقدم. وإنني سمعت نكم لحسن ضيافتكم ولحفاوة شعب مصر. كما أنني فخور بنقل أطيب مشاعر الشعب الأمريكي لكم مقرونة بتحيةة السلام من المجتمعات المحلية المسلمة في بلدي: "السلام عليكم". (من خطاب أوباما في جامعة القاهرة، ٤ مايو ٢٠٠٩).

في هذه الترجمة ما يشي بأن من ترجمها، وقد صارت عن البيت الأبيض، ليس من أهل اللغة العربية، أو أنه قد تركها زما أفقده الإحساس بجمالياتها، وبلاغتها، و"تداولها" بين الناس في الواقع. من ذلك ما نجد في "طلب عصركم" في ترجمة Good afternoon، وهي تحية لا ترد في لهجة من لهجات اللغة العربية - في اللهجات العربية تحايا من قبيل "مساء الخير"، و"سعد الله مساعك/ مساعكم"، "مساكم الله بالخير". وما شابهها. وفي الترجمة تلازم لفظي مقحم بين "التقاليد والتقدم" - والصواب أن يتلازم "الماضي والحاضر"، و"التقدم والجديد"، و"الأصل والمعاصرة". وهكذا - وتلازم آخر بين "مناهل" و"التقدم" - والصواب أن تنهل من العلم والمعرفة والحكمة - ولها تعبير نأى هو "المجتمعات المحلية المسلمة" - والمألوف هو "الجاليات الإسلامية" في الولايات المتحدة - ومفردة نكتة هي "الأزلية" في وصف القاهرة - والصواب هو "العتيقة"، وما إليها - وفي الترجمة مبالغتان على الأقل في "من دواعي شرفي" و"فخور" - والصواب في ذلك المقام "يسرني" و"يسعدني" وما إليهما.



## تحليل الخطاب ولغويات النص

### مصطلح تحليل الخطاب

"مصطلح تحليل الخطاب مصطلح يقع الغموض، سوف استخدمه في هذا الكتاب بمعنى التحليل اللغوي للخطاب الطبيعي المكتوب أو الشفهي (المنطوق)، وعلى سبيل التبسيط، يشير المصطلح إلى محاولات دراسة تنظيم اللغة فيما يتجاوز مستوى الجملة أي على مستوى الوحدات اللغوية الأكبر، كما في المحادثات والنصوص المكتوبة. يعنى هذا فيما يعنى أن تحليل الخطاب يهتم بالمعنى الاجتماعي الذي تستخدم اللغة فيه وخصوصاً ما يتصل منه بالتفاعل بين من يستخدمونها" (Stubbs، ١٩٨٣، ص ١).

### والنص

"... نستطيع أن نقول إن أي استخدام للغة هو نص - وهو تعريف يظل على سطحه محدوداً، لأن نصوصاً كقوائم التليفزيونية تتشكل إضافة إلى اللغة التقليدية من مؤثرات صوتية وبصرية. ... أما مصطلح الخطاب فيشير إلى اللغة قيد الاتصال في الواقع بوصفها جزءاً من الحياة الاجتماعية يرتبط بغيره من عناصرها ومكوناتها" (فركلف، ٢٠٠٣، ص ٣).

ترد التداولية وتحليل الخطاب في غير موضع بوصفهما مترادفين، أو مصطلحين مختلفين لمفهوم واتجاه واحد، وترد التداولية أحياناً بوصفها نوعاً من تحليل الخطاب، هي بالفعل نوع من تحليل الخطاب، يركز على فعل اللغة، وما يرتبط بها من تضمين، وفراض، وكياسة، وقواعد تعاونية، ومقاصد، ونوايا، وطرائق تأويل، لكنها تفتقر إلى شمولية تحليل الخطاب، واتساقه بالنصوص، لا الجمل. في نفس هذا الفلك - فلك تحليل الخطاب - تدور كواكب ونجوم أخرى لا سبيل إلى الإفاضة في شرح تفاصيلها، من اللسانيات البنيوية structural linguistics ومقولات رائدها في الغرب دي سوسير عن اللغة والكلام والعلامة، وعلاقتها بسياقها، وبغيرها من

العلامات، إلى دراسات مستويات اللغة، والأسلوب، وتحليل الأنواع الخطابية وفق جنس الخطاب، وغايته، والمشاركين فيه register and genre analysis، إلى دراسة بينات الكلام والتواصل اللغوي ethnography of speaking،

وكيف يتشكل بها، ومقولات فوكو عن القوة والمعرفة، ومقولات التوسير عن النظم والأجهزة الأيديولوجية للدولة ideological state apparatuses، ومقولات بورنيو عن العنف الرمزي وأشكال القوة، والمفاهيم التي طورها جوفمان عن ماء الوجه والتأطير framing، وتبدل أحوال المشاركين في الخطاب، وتغير الانتماءات والمواقف footing، و"إدارة الانطباعات" أو تشكيلها impression management، ودراسات الشعر في المجتمعات البدائية وعند "أهل البلد" الأصليين، وكذا دراسة التراكم والصيغ الشعرية التي تتسم بها ثقافة معينة ethnopoetics، إلى الأنثروبولوجيا اللغوية واللغويات الاجتماعية التفاعلية interactional sociolinguistics، وما بعد البنيوية، خصوصا عند باختين - الخيال الحوارى dialogic imagination، وتعدد الأصوات polyphony في الخطاب - إلى علم العلامات semiotics، والدراسات الثقافية cultural studies.

ليس من غايات هذا التبسيط شرح تحليل الخطاب Discourse Analysis أو مراجعة نشأته وتاريخ وتطوره، ولا استقصاء أصوله الفلسفية واللغوية، لأن موضوع التبسيط هو التداولية - التي يراها بعض الباحثين نوعاً من أنواع تحليل الخطاب - ولأن في دراسات أخرى غناء وكفاية في تناول أصوله الفلسفية واللغوية وتاريخه (فضل، ١٩٩٢). غاية هذا الجزء من تبسيط التداولية هو عرض بعض أدوات تحليل الخطاب ومقولاته ومفاهيمه، تأسيساً لمناسبة التحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي.

ولا سبيل إلى فض الاشتباك بين تحليل الخطاب من ناحية، وتحليل النص أو لغويات النص Text Linguistics وتحليل الحوار أو المحادثة Conversation Analysis من الناحية الأخرى، لأنها تلتقي جميعاً في غير موضع، وتطلق من نفس الانشغال بالمسياق والجوانب الدلالية ووظائف اللغة، وتتجاوز حدود المفردة



والعبارة والجملة إلى ما يتشكل منه الخطاب أو النص - الذي يشمل من وجهة نظر تحليل الخطاب كل ما هو مكتوب أو شفهي، ويقتصر على الحوارات والمحادثات المنطوقة في تحليل المحادثة، وينطلق من النصوص المكتوبة لكن لا يتوقف عندها في تحليل النص. في قليل من المقاربات النحوية، نجد تعارضاً بين الخطاب discourse والنص text، لكن الأول لا يقتصر، كما رأينا، على ما هو منطوق، ولا يقتصر الثاني على ما هو مكتوب.

في تحليل الخطاب وتحليل النص، يبرز مفهومان تتباين ترجمتهما إلى اللغة العربية، وهما مفهوم cohesion ومفهوم coherence. سوف نجد من يطالع ما كتب في هذا الصدد باللغة العربية عدداً مريباً من الترجمات من قبيل "الاتساق" و"التربط" و"التجانس" و"الاتساق". على سبيل التبسيط، يشير المصطلح الأول إلى تراكب المعنى، أو الوحدات النحوية (الشكل)، والثاني إلى تراكب المعنى أو الأفكار (المضمون). فبإذا قلنا "ذهب الولد إلى المدرسة، التقى زملاء صفه وحياتهم" فنحن نراء نصاً، على قصره وربما افتعالة، يسم بالتراكب والوحدة العضوية - ولتستقر من الآن على "السبك" والحبك" نفادياً للالتباس والارتباك، حيث يرى بعض الدارسين العرب، ومنهم سارحية (٢٠٠٧)، أن للمصطلحين جذوراً في البلاغة العربية. وهما على كل حال مصطلحان رشيقتان معبرتان، في النص القصير السابق، ترتبط الجملة الثانية بالأولى من خلال الضمير المتصل في "صفه" والذي يعود على "ولد"، ومن خلال العلاقة الدلالية، علاقة الكل بالجزء، بين "المدرسة" و"صفه" - هذا بالإضافة إلى السبك في كل من الجملتين على حدة.

ليس السبك والحبك كل ما في تحليل الخطاب أو تحليل النص من جوانب مهمة - فهما يستخدمان مجمل الأدوات التحليلية ومنها التضمين، والافتراض المسبق، وأفعال اللغة، والمبدأ التعاوني، كما يرد تفصيل ذلك في الحديث عن التحليل النقدي للخطاب - لكنهما مفهومان محوريان في كل الاتجاهات الوظيفية كما يرد لاحقاً. وكما يعيب انتقاد وكما عابوا - على الأقل قبل الحداثة وما بعد الحداثة - على الشعراء انتقاد

بعض قصائدهم الوحدة العضوية، وكم شكوا المدرسون ويشكون افتقار ما يكتب تلاميذهم لترابط و"التسلسل المنطقي"، وكم شكوا الممتحنون ويشكون افتقار أطروحات طلابهم الانتقال المنطقي المبرر من جزء إلى آخر، وكم يشكو الجميع اليوم ما تحفل به الكتابة العربية الصحفية من ولوات عطف لا تعطف، وفواصل لا تفصل، وجمل تراص دون مبرر أو منطق، ودون فواصل أو وقفات - وعنى المتضررين إن شاعوا أن يتكفوا بسبك النص وحبكه بطرقهم الخاصة!

ولأن السبك من أشرط الخطاب والنص، فقد خصه هاليداي ورقية حسن بكتاب كامل (١٩٧٦) أصبح مرجعا لا يستغنى عنه الدارسون في تحليل الخطاب وما يرتبط به من اتجاهات تداولية وفريقية. فيما يلي تبسيط بعض ما ورد في الكتاب من صنوف السبك، وأمثلة توضحها من اللغة العربية. وطالما أن الغاية هي التبسيط فلا ينبغي أن نتوقع تعبيرات من قبيل "إشارة إكسوفورية"، أو "خارجية"، أو "خارجة" في ترجمة exophoric مثلا، أو تعبيرات من قبيل "الأنفردة"، أو "الإثارة المرتدة"، أو "الراجعة" في ترجمة anaphora، حتى لو كان ثمن التبسيط ترجمة كلمة واحدة إلى عبارة أو جملة.

## § طرائق السبك وأدواته

### ١. الإشارة reference

أ - إلى خارج النص exophoric :

على سبيل التمثيل: "ضع الكتاب على هذه الطاولة"، و"تلك السماء الصافية".

ب - إلى داخل النص endophoric :

- إلى ما سبق anaphora - على سبيل التمثيل: "كما ورد في هذا الكتاب من قبل"، "في الفقرة السابقة كلام عن الميت"، "ذهب الولد إلى المدرسة. انتفى زملاءه وحياهم"، "بعض ما قلت عار من الصدق"، وكما يشير الهامش إلى المتن.



- إلى ما يلي cataphora – على سبيل التمثيل: "في الجزء التالي، نتناول لغويات النص وتحليله"، "أجب عن السؤال الآتي"، "قررنا ما هو أ"، "في الفصل التالي، نتناول الرسالة أدبيات الخطاب الإعلامي بالمراجعة والنقد"، وكما يشير العنوان إلى النص.

## ٢. الاستبدال substitution

على سبيل التمثيل: "هاتان الروايتان لك؟ أعزني واحدة؟"، "هل كتب التقرير؟ لفتنه فع"، "اختلف الأصدقاء، فقال لخدمهم: لا بد أن تحتكم إلى طرف محلي".

## ٣. الحذف ellipsis

على سبيل التمثيل: "ما اسمك؟ أحمد"، وتقدير الكلام "اسمي أحمد"، و"أنا اسمي أحمد"، و"تكرما افتح الباب"، وتقدير الكلام "افتح أنت الباب"، و"عم"، وأصلها "عن ما أو ماذا"، و"كيف حالك؟ بخير"، والأصل "أنا بخير". ويكون الحذف لتجنب الإطالة، وربما لأن المحذوف معلوم من السياق اللغوي وغير اللغوي، وربما للاختصار، أو خفية نوي المصطفى، وغير ذلك من مبررات.

## ٤. الربط conjunction

على سبيل التمثيل: "و" العطف والحال والمفعول معه، و"كن"، و"هل"، و"من ثم"، و"على ذلك"، و"غير أن"، و"أو"، و"ف" التعاقب والسببية، و"عند"، و"حينئذ"، وما شابهها، و"سوى"، و"حتى"، و"لكي"، و"أن"، و"أن"، و"و" التعليل والوجود والسببية، و"من"، و"إنما"، و"حيثما"، و"متى"، و"أى"، و"لو"، و"مذ"، و"منذ". القائمة طويلة، ولا سبيل إلى حصرها هنا.

## ٥. السبك الدلالي lexical cohesion

ومن ذلك التكرار، والتلازم الدلالي، والجناس، والترادف، والطباق، والحقول الدلالية: "سرور"، و"البهجة"، و"السعادة"، و"الخبور"، و"الفرح" (ترادف)، و"الخير والشر"،

و"القضيلة والرديلة"، و"الأفراح والأتراح"، و"الأياس والأمل"، و"اليدية والنهاية"، و"الأبيض والأسود"، وما بينهما، و"يفعل ولا يفعل" و"محور الشر ومحور الخير" (طباق)، و"البحر والمحيط والنهر والمضيق والخليج"، و"الشمس والقمر والسماء والتجوم"، و"القمم والقرطاس والريشة والحبر والطابعة" (حقول دلالية).

ماذا تفعل أصوات وطرائق السبك تلك في النص؟ فلنتخيل نصاً عربياً يخلو منها جميعاً. أو فلنتخيل نصاً آخر ليس فيه من رابط إلا "أو" العطف. ليست طرائق السبك وأدواته إن مجرد حضور، بل هي التي تخلص الخطاب من الرتابة، وتضفي عليه التماسك، وتعين المتلقي على التعامل معه بوصفها علامات طريق.

لكنّ علينا أن نمارس ما نستطيع من حذر في قراءة تلك الأصوات والروابط - خصوصاً ونحن نعاين نضج التحليل النقدي للخطاب وتحليل الخطاب السياسي. وقد وردت في غير هذا الموضع أمثلة لما يمكن أن تفعل حروف الجر، وما يمكن أن تنقل الإشارة من تصورات عن العالم، وعن الآثا والآخر وما بينهما من تطور أو جذب، وقرب أو بعد. ماذا نقرا في أداة الربط في جملة كهذه: "إنه فقير، لكنه يعيش في سعادة دائمة"؟ لعلنا نلاحظ تعارضاً بين الفقر والسعادة، ونضميناً مقاده أن القنى لا الفقر هو السبب الطبيعي للسعادة، وإن حالة الشخص الذي تشير إليه الجملة مجرد استثناء من القاعدة.

#### مزائق ومحاذير

أحياناً يصبح تحليل الخطاب نوعاً من شرح النصوص أو تلخيصها دون تفسير أو تأويل، وأحياناً يقتصر على مجرد مثل من هنا وآخر من هناك لتأكيد ملاحظة أو فرضية، دون محاولة اكتشاف الأساق الكبرى والظواهر الدالة في الخطاب. وربما يجب تحليل الاحيز السيق إلى وجهة نظر أو تفسير - أو الانكفاء على نموذج أو نظرية لا تصلح للتعامل مع ما يتناوله التحليل من نصوص. وقد يجب دراسات تحليل الخطاب أن تكتظ بالاقتراسات المعطوكة من النصوص موضوع التحليل دون ميرر أو تفسير. وقد تقع بعض دراسات تحليل الخطاب في شرك التعميم والاعتقاد بأن ما يصدق على سياق يصدق على غيره. هذا بعض ما يمكن أن يقع فيه تحليل الخطاب من مزائق. نجد شرح هذه الأخطاء وتوضيحها بالأمثل في دراسة تشولز أنتاكي Antaki وآخرين (٢٠٠٣).



وفي موضع آخر، يرد حديث عن الثنائيات التي يحفل بها الخطاب السياسي المعاصر، خصوصاً تحت تأثير مقولة صراخ الحضارات / الثقافات، وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، والحرب على أفغانستان، وغزو العراق. في ترميز هذه الثنائيات تحتشد مفردات الخير، والعدل، والحرية، والسلام، والديموقراطية، في طباق حتمى مع مفردات الإرهاب، والتطرف، والقمع، وتحتشد مفردات الجهاد، والاستشهاد، والمقاومة، في طباق آخر مع مفردات وعبارات الاستعمار، والحروب الصليبية، والغرب المنحرف، والانحياز، والكيل بمكيالين. وحين نقرأ في سياق مفاهيم تقريرنا إخبارياً عن "غرق عبارة لأن المسافرين لم يتحلوا بالصبر وتدفقوا حتى تجاوزت العبارة حمولتها الطبيعية"، فلا ينبغي أن نكتفي بحصر الروابط وتصنيفها إلى روابط سببية، لأن الأسباب الحقيقية ربما تختلف عما ورد بعد "لأن" وقبل "حتى" ولم يكن للمسافرين من يد في غرق العبارة. وحين يداهنا إعلان تجاري بتغيير مُحكم من قبل "بتسم للحياة ... ابتم لـ ... (اسم المنتج)"، فلا ينبغي أن يكون مبلغنا من التحليل مجرد رصد التكرار - تكرار فعل الأمر وتكرار البنية النحوية التي تتكون من فعل الأمر والفاعل المستتر والجار والمجرور، لأن التكرار هو الذي يحقق بلاغة هذا النص، وينقل رسالته، وهي أن المنتج المُعلن عنه هو الحياة والحياة هي هو، ولا حياة للمستهلك المستتر في الجملة، المُستهدف في الواقع، بدون هذا المنتج. من هنا، لم يعد كافيًا بحال من الأحوال عند تحليل السبك في نصٍّ سياسيٍّ أو إعلاميٍّ أن نكتفي بحصر الأمثلة وتصنيفها، وإنْ نشعر بالرضا حين نجد في النصِّ مثلاً أو مثالين لكل فئة من فئات السبك كما حددها هاليداى ورقية حسن. لا مفرٍّ من إعادة قراءة ابواب السبك وطرائفه في ضوء مقولات ومفاهيم تحليل الخطاب السياسي والتحليل النقدي التي تزد مناقشتها فيما بعد.

نفس هذا الحذر ينبغي أن نتحلى به ونحن نتناول السبك. وهو قرين السبك الذي لا ينفصل عنه - إلا لغايات بلاغية خاصة - من منطلق ما تردد في فيلم سينمائي مصري معاصر على لسان أستاذ التمثيل حتى أصبح مثير سخرية طلابه وطالباته،

وهو أن "الشكل والمضمون وجهان لعملة واحدة"، "المك والكتابة". وقد تقدم أن الحبك هو تراكب المعنى والمجسم، في علاقات سببية، أو تفسيرية، أو تمثيلية، أو علاقات تعارض، أو مقارنة بين الجمل، أو الانتقال من الخاص إلى العام، ومن العام إلى الخاص، وعلى نطاق أرحب، يتجلى التأكيد على الحبك في توقع الوحدة العضوية في النص الشعري منذ كانت القصيدة الجاهلية تستعمل على الوقوف على الأطلال، ثم ذكر الرحلة، وبلوغ الحبيبة، ثم بعض الحكمة والنصح، إلى أن تبلورت مفاهيم البناء الروائي والقصصي التقليدي الذي ينظم وصف المكان، وتحديد الزمان، وتقديم الشخصيات، ثم تصاعد الأحداث إلى نقطة تصادم أو كشف، ثم الزواج أو البراءة أو غير ذلك من النهايات السعيدة التي لم تعد لا هي، ولا خطية الزمن من بداية إلى وسط إلى نهاية، ولا الوصف التقليدي للمكان - وقد اختلط الواقعي بالخيالي والآنشوري، واختلط الوعي باللاوعي - من سمات السرد المعاصر.

ونجد التأكيد على الحبك كذلك في تعاليم التسلسل المنطقي، وكتابة المقالة الدراسية من مقدمة، ووسط، وخاتمة، مع ما يلزم من أمثلة توضيحية، وتعليقات، ومقارنات، ورشادات كتابة البحوث العلمية، والمقالات، والأخبار الصحفية. كلما تطور جنس خطابي جديد، تبلورت معه طرائق الحبك الملائمة له. حتى إذا استقرت، شرعت فئة من الكتاب والمبدعين في الخروج عليها رغبة في تحقيق غايات بلاغية جديدة، والمجامع مع سياقات وظروف تاريخية متغيرة، لأن المقننات اليوم لا تصل بنا إلى المنتج بنفس السهولة والثقة التي كانت تصل بها في الماضي (ليس كل من يزرع اليوم يحصد، ولا كل من يحصل على "شهادة جامعية" يجد وظيفة، وليس "فلان" مفكراً، من منطلق أنه إسماعيل، وأن كل إسماعيل بطبعه مفكر)، حتى تنماهي الحدود بين الأجناس الخطابية، وتتداخل الأنواع، وتتطور أجناس خطابية جديدة، في النظر من يغامر بالخروج على قواعدها.



ولأنّ السبك والحبك هذه الأهمية والتأثير، انتقلنا من تحليل الخطاب إلى لغويات النص التي يرى باحثون، من أمثال روبرت دي بوجراند de Beaugrande، أنها يجب أن تتشغل أول ما تتشغل بشروط النصية، أو النصوية، textuality وضرورتها - على معنى ما ينبغي أن يتحقق في مجموعة من الجمل أو التراكيب النحوية حتى تستحق أن تُسمى نصاً.

وقد ألف دي بوجراند وبريسلر Dressler كتاباً كاملاً (١٩٨١) لمنقضة شروط النصية بعد مراجعة مهمة لنشأة وتطور علم لغة النص أو لغويات النص. فيما يلي شرح وتبسيط هذه الشروط - ما عدا السبك والحبك فقد تقسم الكلام عنهما - وتوضحها بالأمثلة، ونماذج مما يتردد من ترجماتها إلى اللغة العربية.

#### ١. التماسك والتماسك والسبك cohesion:

المشكلة هي أنت بالضبط يا حضرة الصاغ، لا ينفع في هذه الدنيا أن تكون نصف طبيب ونصف شاعر، نصف وطني ونصف خائن، نصف شجاع ونصف جبان، نصف مؤمن ونصف عاشق، دائماً في منتصف شيء ما (بهاء طاهر: واحة الغروب، ص ٢٠٢). في هذا الاقتباس يتحدث "محمود" إلى نفسه، وقد أخرجها، وفصلها عن نفسه في لحظة وعي ومحاسبة، حيث تضي الإشارة وصيغة المخاطبة بهذه المسافة التي يبتعد بها "المتكلم" عن "المخاطب" - مع أنهما واحد - ويتضارب الطبق بين الجميل والقيح في نفس المتكلم المخاطب والتراصف بين جوانب القبح وبين جوانب الجمال فيها للتعبير عن روح ممزقة، وذات منقسمة، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فكيف يقر لها قرار؟

#### ٢. التقارن والتناسق والحبك coherence:

"قال نبشليم الملك لبيديا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل. فأضرب لي مثلاً في شأن الذي يضع المعروف في غير موضعه، ويرجو الشكر عليه. قال الفيلسوف: أيها الملك إن طبائع الخلق مختلفة. وليس مما خلقه الله في الدنيا مما يمشي على أربع أو على

رجلين أو يطير بجناحين شيء هو أفضل من الإنسان، ولكن من الناس البر والفاجر. وقد يكون في بعض البهائم والسماع والطيور ما هو أوفى منه نعمة، وأشد محاماة على حرمة، وأشكر للمعروف، وأقوم به، وحينئذ يجب على ذوي العقل من الملوك وغيرهم أن يضعوا معروفهم مواضعه، ولا يضعوه عند من لا يحتمله ولا يقوم بشكره... (ابن المقفع: كلیلة ودمنة، باب السالح والصالح). في كتاب كلیلة ودمنة طبقات متداخلة ومتراكبة من المرد، بحيث تحتوي القصة الإطار، قصة الملك والفيلسوف، مبررا للقصة التي يرويها الفيلسوف، وهو النزول على رغبة الملك والإجابة عن سؤاله، وتتوالد القصة من القصة، وفي كل مرة نجد في الثانية تبريرا منطقيا للأولى، وفي الأولى توضيحا لما غمض في الثانية، أو إجابة عن بعض تساؤلاتها. هذا التبرير هو الذي يحفظ للفصص حبكة ومنطقها - هذا بالإضافة إلى انتهاء الفصص إلى جنس خطابي أثير هو الأمثلة fable. أو الحكاية على لسان الحيوانات، ودخولها في باب النصيح والتعليم، وما فيها من مجاز وزدواجية دلالية تنتج المتعة البرينة لمن أرادها، وتنتج الحكمة والفلسفة لمن أرادها. وفي كل مرة يفتح الباب بما يقول الملك - "قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثلاً" في إشارة بليغة إلى ما سبق وإلى ما يتبع من الحكايات.

### ٣. القصدية والقصد intentionality:

وراء كل نص إرادة إنسانية واعية، وغايات مقصودة، وليس ظاهر النص كباطنه، إذا جاز التعبير، فربما تسأل عن الوقت وأنت تقصد أن توحى إلى ضيفك أن يذهب لأنك مرهق، أو لديك التزامات وواجبات أخرى معقدة - سواء على ضيفك أنهم ما ترمي إليه أم لم يفهم. وقد تقنم الكلام عن الإنشاء في البلاغة العربية، وأفعال اللغة والتضمين، والتأثير، أو المعنى المقصود في التداولية في نسختها الغربية، غير أن مزيداً من التوضيح لن يضر، ربما نجد في الخطاب ما يشير إلى قصد مُتَّبِعه - "أريد أن أسألك"، "ترجو أن نحيطكم علماً"، "على سبيل الاعتذار" - مع ضرورة توخي الحذر، لأن المقاصد الحقيقية ربما لا تنسجم مع ظاهر الأقوال، كما نعلم في غير



موضع من هذا التبسيط. تفتتح أمانة بنت الحارث وصيتها لبنتها لم يباس - وهي إحدى روائع النثر العربي التي تكفي إزاءها في الغالب بالاعتباس أو "سوء الاستعمال" لتحقيق مصالح شخصية ذكورية - بتحديد غايتها ومقاصدها البلاغية - "تذكرة للغافل ومعونة للعافل" - والاعتذار عما يمكن أن يقع من سوء الفهم - "إن الوصية لو تركت لفضل أدب، تركت لذلك منك" - وتبرير ما سوف تقدم من النصيحة، ناهيك عن الاستمالة والتحبب والتكريم اللازم - "أي بنية" و"لو أن امرأة استفتت عن الزوج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عنه" - حتى تساوي النصيحة ثمارها المرجوة.

#### الجنس الخطابي لا الأنثى

"لا تستمد اللغة جمالياتها من تكوينها الذاتي فقط، أي باعتبارها أصواتاً وتركيب ومجازات ذات طاقة تأثيرية مباشرة، ولكن أيضاً من علاقتها بالجنس الأنثى الذي تدعّن له في صوغ أنيتها، إذ تصيح اللغة بموجب هذه العلاقة في الفج جمالي جديد حيث يعدد المبدع إلى نسج خيوطها واختيار ألوانها وفق ما يقتضيه هذا الإطار من مكونات وثوابت" (مبطل، ٢٠٠١، ص ٥١-٥٢).

هذه إشارة مهمة إلى نوع الخطاب وجنسه وتأثيره على اللغة والأسلوب، مع التحفظ اللازم على "الأنثى" وضرورة استبدال "الخطابي" بها، مع ملاحظة أن الياء تلحق بالمشرك، كما يرد في غير هذا الموضع، وعلى "المبدع"، لأن كل استخدام للغة يشتمله نوع أو أنواع خطابية.

وتختتم أمانة نصيحتها بالدعاء لابنتها، فكيف لا تقل الابنة لو لا تستمع والنصيحة ما بين تحبيب وأمنيات طيبة؟ لعل أم يباس لم تخطئ مقصد والدتها، ولم تجد في النصيحة نوعاً من القهر أو الوصاية: "أي بنية: إن الوصية لو تركت لفضل أدب، تركت لذلك منك. ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعافل. ولو أن امرأة استفتت عن الزوج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عنه. ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال".

#### ٤ . التقبُّلية والقبول والتقبُّل والمقبولية acceptability:

وهي أن يتوافق النصُّ مع توقعات المتلقي - مع ضرورة أن يتحقّق المتلقي بالتماسيح  
إزاء النصوص التي تنتهك الحدود النوعية والتنظيرات النقدية، وتخرج عن ألق  
توقعاته بفرض صياغة توقعات وخصائص نوعية جديدة.

حين نقرأ خبراً صحفياً، نتوقع أن نجد فيه إجابة عن أسئلة يتعلّقها طلاب وطالبات  
الإعلام - "من؟" و"ما؟" و"متى؟" و"أين؟" و"لماذا؟" و"كيف؟" - كما نجد في هذا  
الخبر:

"بدأت روضة اليافوت (من؟) في منطقة مصفوت النخبة التابعة لمنطقة عجمان  
التعليمية (أين؟) بتطبيق مشروع الحافلة المرحلة (ما؟) الذي يعتبر الأول من نوعه  
على مستوى الدولة بدعم مباشر (كيف؟) من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل  
مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي (من؟) الذي أمر بتوفير  
الدعم اللازم للمشروع عقب زيارته للمناطق النائية العام الماضي (متى؟)"  
(جريدة البيان، ٣٠ مايو ٢٠٠٨، الإقواس والأسئلة ليست في الأصل).

#### ٥ . الإعلامية والإعلام والإخبار informativity:

كل نصٍّ يخبر بشيء - حتى الكلام "الفارغ" يخبر بشيء عن صاحبه -  
وتتفاوت النصوص في نوعية المعلومات أو الحقائق التي تنقلها من عظمية إلى أدبية  
وصحفية، إلى غير ذلك، وفي نصوبها من الصدق أو الكذب، كما تتباين الحقائق من  
حقائق طبيعية إلى حقائق شعورية أو روحية، فليمت "حقائق" الفيزياء مثلاً كحقائق  
الشعر.

ولعلّ من توابع تطوّر التحليل النقدي للغة تناول "الحقيقة" و"البرهان" و"البيّنة" من  
منطلق أنّها مفاهيم نسبية، تتباين من ثقافة إلى ثقافة، ومن نسق معرفي إلى آخر.



## ٦. الموقفية والموقف والمناسبة أو الملازمة :situationality

لكلّ مقام مقال، ولكلّ حادثة حديث. "حكمة بالغة، فما يروق لزيد ربما ينفر عمراً، وما يدركه قوم ربما أعجز آخرين.. فلتؤطر حوارك بالحال من حوذك، وتجنب التحديد الواضح عند حوار ذوي الروح النافذة؛ حتى لا يستعجلوا عليك، وتحفظ خط الترجمة مفتوحاً من وراءك.

### مصطلح وترجمة

"يمثل مصطلح الموقفية تسمية عامة للعوامل التي تقيم صلة بين النص وبين موقف لواقعة ما سواء أكان موقفاً حاضراً أم قديماً للاسترجاع. ولذا ما تتحقق تأثيرات مقام سيأتي معين بدون حدوث التوسط أي مدى تغذية المرء بمعتقداته وأهدافه الخاصة للنموذج الذي يقيمه الموقف الاتصالي الحقي" (الفقرة الأولى من الفصل الثامن - الموقفية :situationality - من ترجمة إيهام أبو غزالة كتاب مدخل إلى علم لغة النص *Introduction to Text Linguistics* هذا <http://www.beaugrande.com>). هذا مثل آخر للكتابة التداولية العربية التي قد لا تصل بالفكر إلى شيء، على ما فيها من جهد وبخلاص، ربما لإصرارها على الترجمة الحرفية.

وقد يتعذر الحوار في أمر ما، لسبب أو لآخر من الظروف الاجتماعية أو السياسية أو غيرها، وإذا كان لزاماً على المحاور الفطن أن يقدر للأمر قدره، وأن يزن المصالح والمفاسد، وألا تغلبه شهوة الحديث عن تقدير العواقب...."

(طريق الحبيب: "لكل مقام مقال".

<http://www.asyeh.com>

٣٠ مايو ٢٠٠٨، بتصرف

(يسير)

## ٧. النصوصية، والتناص، والتضمين :intertextuality

ومن ذلك الترجمة، والاقتباس، وإعادة النشر، والمعالجة، والأسلية، أي تقليد أسلوب نص سابق. والسرقعة الأدبية وغير الأدبية، والتلخيص، والتعقيب، والمراجعة. "ومن الإهداءات المثيرة إهداء كتبه الكاتب السياسي الراحل "أحمد بهاء الدين" إلى: "أرقب العزيز منير حافظ، الذي كان له فضل اختصار الكتاب ليظهر في هذا الحجم الرشيق".. وذلك بتاريخ ١٤/٢/١٩٥٦، أي في مقبل رئاسته لتحرير مجلة صباح الخير. وكان

الكتاب: شهر في روسيا صادراً عن دار النديم، ويعتبر هذا الكتاب من أجمل ما كتب بهاء، وفيه يتحدث عن روسيا من الداخل، ويطلق عدداً من الأفكار الجديدة أو السائدة التي كانت منتشرة آنذاك مثل قوله: "إن روسيا لا تحكمها الوزارة التي يرأسها بولجاتين، ولا الجيش الذي يقوده زوكوف، ولا الحزب الشيوعي الذي يتولى خروتشوف منصب سكرتيره العام.. إن روسيا تحكمها نظرية!.. المهم هل كان بهاء صادقاً في إهدائه إلى الرقيب .. ولريد أن أتوه إلى أن منير حافظ، أصبح فيما بعد مديراً لمكتب شمس بدران" (شعبان يوسف: "إهداءات على الرصيف" جريدة أخبار الأثب، ٢٥ مايو ٢٠٠٨).

# 1

## التناص وما إليه

ذهب جيرار جينيت Genette (١٩٩٧) إلى أن علاقات النص بنفسه وبغيره من النصوص يمكن تصنيفها إلى ما يلي:

- § التناص intertextuality (انظر المتن).
- § النص الموازي paratext – المقدمات، والهوامش، والشروحات، والفتاوى الرئيسية والفرعية، والمراجع، والإهداءات، وما إليها مما يحيط بالنص.
- § المعاصر النصي، أو الجنس الخطابي architext الذي ينتمي إليه النص.
- § النص الشارح metatext – من ذلك ما نجد في الاختصاص من تقارير المسيدة راء.



§ النص اللاحق hyper، وعلاقته بنص سابق hypo، ربما على سبيل المحاكاة الساخرة أو النقص أو المعارضة.

§ النص الفائق hypertext، بمعنى الإلكتروني الذي نجده على صفحات "الشبكة الحاسوبية" أو الإنترنت.

إنّ حديث الناص وما يتصل به حديث بطول، من توظيف النصوص لأغراض إعلانية ترويجية - "عند جبهة الخبر اليقين" (إعلان حليب جبهة) - إلى توظيفها لتحقيق غايات سياسية، إلى "المرفقات الأدبية" - ولا بد من إعادة النظر في صفة "الأدبية"، لأن السرقه لا يمكن أن تكون "أدبية"، ولأنها تقع في الألب وفي غيره من أجناس الخطاب. في البلاغة العربية تصنيف طريف لتلك المرفقات إلى "سبح"، و"مسبح"، و"سبح" - وتعني على الترتيب: سرقه اللفظ والفكرة معاً، وسرقه بعض اللفظ، وسرقه المعنى دون اللفظ. ويتصل بذلك ثمانية أمور هي "الاقتباس" - إعادة إنتاج جزء من نص سابق أو معاصر في نص آخر - و"التضمين" embedding - وهو اقتباس فيه تصوير أو اجتزاء وفق ظروف النص الجديد - و"القطر" versification - وهو نظم النثر - و"الحل" - وهو نثر النظم - و"التصريح" allusion - أي الإشارة إلى مكان أو شخص أو قصة معروفة - والابتداء - أو براعة الاستهلال - والتخلص - الخروج من المقطعة إلى الموضوع - والانهاء - أو حسن الخاتمة (الهاشمي، ١٩٩٩، ص ص ٣٢٥-٣٣٣). إلى ما سبق. لا بد أن نضيف المحاكاة الساخرة، أو الباروديا parody - محاكاة نص سابق أو معاصر بغرض السخرية منه، أو من مؤلفه، أو من سياقه، أو من بعض ما يتناول النص الجديد، أو من هؤلاء جميعاً، كما نجد في الشعر "الحظمتيشي" في مصر مثلاً - والمعارضات والنقائض.

## علاقات بين نصية

(١)

"ككل قصة بطبيعة الحال مقدمة، فإذا كانت القصة "موباساتية" تنسبة إلى الكاتب الفرنسي الشهير جى دو موباسان تطرح المقدمة عناصر حدث يتطور ويتعقد لينفجر في الختام. وإن كانت القصة تنحو منحى الحداثة أو ما بعدها فلا ضرر في أن تكون علاقة المقدمة بالخاتمة غير ظاهرة للعيان، ولا مانع من نهاية مغلقة ومفتوحة. وقصتي؟ لا مقدمة لها سوى خطبة للمؤلفة تفتح فيها باب الكلام، يعقبها سرد الواقعة التي تنتهي بنهاية يمكن ببعض التفاوضي وشيء من الحكمة، اختيارها نهاية سعيدة" (رضوى عاشور: تقارير السيدة راء، ٢٠٠١، ص ص ١٧-١٨).

(٢)

الشاعر المعلم

إبراهيم طوقان (١٩٠٥-١٩٤١)

شوقي يقول وما نرى بمصيبتي	فم المعلم وفيه التمجيد
لقد قديتك هل يكون منجلاً	من كان للتكرم الصغار خيلاً
ويكاد يفتقي الأمير بقوله	كلا المعلم أن يكون رسولا
لَوْ جَرَّبَ المعلم شوقي ساعة	لقضى الحياة شقوة وخمولا
حُب المعلم غمة وكأبة	مرأى الحقد بكرة وأصيلا
منة على منة إذا هي صلحت	وجد الضى نحو القيون سبيلا
ولو أن في التصحيح نقعا يرنجى	وليك لم كه بالقيون بخيلا



فَكِنْ لَصَلَحْ غَلْطَةُ نَحْوِيَّة	مَثَلًا وَاتَّخَذَ الْكُتَّابُ ذَلِكَ
مَسْتَقْنَهَذَا بِالْفَرِّ مِنْ لَيْلِهِ	أَوْ بِالْخَدِيشِ مَقْصَلًا تَقْصِيلاً
وَأَعْوَضَ فِي الشُّعْرِ الْقَدِيمِ فَاتَّقَى	مَا لَيْسَ مَكْتَسَبًا وَلَا مَبْذُولًا
وَكَلَّفَ لَيْعَتَ سَيِّئِيهِ مِنَ الْبَلَى	وَتَوَيَّهَ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ الْأُولَى
قَلَرَى (جَمَلًا) بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ	رَفَعَ الْمَضَافَ إِلَيْهِ وَالْمَقْذُولَا
لَا تَعْجَبُوا إِنْ صَبَحْتُ يَوْمًا صَرِيحَةً	وَوَقَعْتُ مَا بَيْنَ الْبُتُوكِ قَبِيلاً
يَا مَنْ يَرِيدُ الْإِتِّخَارَ وَجَدْتُهُ	إِنَّ الْمُعْظَمَ لَا يَعِيْشُ طَوِيلاً

النص الأول من قبيل الكتابة عن الكتابة، أو الكتابة الشارحة، يتناول المقدمة والنهاية بوصفهما من مكونات السرد، الأولى قد تكون تقليدية أو حديثة، والثانية مفتوحة أو سبعة. يبقى الانشغال بالكتابة - إضافة إلى الانشغال بالعالم - سمة مهمة من سمات السرد العربي الحديث.

النص الثاني من قبيل الباروديا أو المحاكاة الساخرة - أو المعارضة الشعرية - وفيها ساخر (النص الراهن) ومسخور منه (النص السابق: نص شوقي وسلوك المجتمع المعاصر إزاء المعلم) وموضوع السخرية (قيمة المعلم). ليس المقصود هنا أن الشاعر يسخر من أحمد شوقي أو نصه المشهور عن المعلم، لكنه يرثي فيما باتت أو كانت، ويسخر من انهيار صورة المعلم وقيمه في المجتمع المعاصر. لما مفاتيح شفرة المحاكاة ففريبة ميسورة، ومنها الاقتباس والإحالة إلى نص شوقي في "شوقي يقول ..."، وتشابه الوزن والقافية في النص الراهن والنص السابق.

## بين المعلم والمتعلم

من الأطروحات المؤسسة في تحليل الخطاب ما طوّره سينكلير Sinclair وكولتھارد Coulthard (١٩٧٥) في دراستهما التفاعلات اللغوية بين المعلم والمتعلم في الفصول الدراسية. في هذه الدراسة المهمة تمييز بين التفاعل/ التبادل اللغوي/ الكلامي exchange والنقل أو الانتقال move والفعل اللغوي act، فمن الأفعال الكلامية - وهي الوحدات الصغرى ومن أمثلتها السؤال، والأمر، والنهي، والخبر، والنداء، وما إلى ذلك - تتشكل النقات - وهي النوبات في بعض كتب التراث، وهي في دراسة سينكلير وكولتھارد استهلال initiation، أو ردّ response، أو تعقيب على الرد feedback - ومن مجموع النقات يتكوّن التبادل اللغوي. ويرد الاستهلال عادة في صورة سؤال أو طلب أو أمر، كما نجد فيما يلي:

- المدرس: يا مريم، ما هي عاصمة الصين؟
- التلميذة: بكين.
- المدرس: أحسنت.

هذا مثل غاية التبسيط لا الاختزال أو الحصر. في هذا المثل ثلاث نقات تتكوّن أولاهما من فغي كلام: (١) نداء وسؤال، ثمّ (٢) إجابة، ثمّ (٣) تعقيب على الإجابة.

ليس في الثقافة العربية - على قدر علمي - تناول الحوار بين المعلم والمتعلم بهذه الطريقة الوصفية البنائية، غير أنّ فيها ثروة من المقولات والمبادئ التي تخرج تحت ألب العالم والمتعلم، ويقلب عليها النصح والإرشاد، لا الوصف، من قبيل ضرورة التعريض لا التصريح في مقام زجر العالم المتعلم، لما للتصريح من آثار نفسية وخيمة، ومن قبيل ما ورد في تنكّر المّامع والمتكلم في ألب العالم والمتعلم للتشجيع بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله الكندي المتوفى سنة ٧٢٢هـ:



"جرت العادة أن يقول المدرّس عند ختم كل درس: والله أعلم، وكذلك يكتب المفتي بعد كتابة الجواب؛ نكن الأولي أن يقال قبل ذلك كلام يشعر بختم المدرس كقوله: وهذا آخره، أو ما بعده يأتي إن شاء الله تعالى، ونحو ذلك ليكون قوله: والله أعلم خالصاً لذكر الله تعالى، ولقصد معناه، ولهذا ينبغي أن يمتنع كل درس ببسم الله الرحمن الرحيم ليكون ذكراً لله تعالى في بدايته وخاتمته".

## التحليل النقدي للخطاب

"التحليل النقدي للخطاب" هو أفضل ما في الإمكان في ترجمة مصطلح Critical Discourse Analysis، وهو الترجمة الراجعة على كل حال. أما "تحليل الخطاب النقدي" فربما ينجم عنه التباس المصطلح بالنقد الأدبي، لأن المقصود ليس تحليل "خطاب النقد الأدبي" (وهو ما يفعله النقد الشارح والنظرية النقدية الشارحة)، المقصود هنا هو تحليل الخطاب من وجهة نظر ناقدة، فيها تمحيص وتقنيّة ومساءلة، على معنى أن التحليل النقدي للخطاب لا يتكفى على السياقات اللغوية والنصية المحدودة بل يتجاوزها إلى السياقات الاجتماعية المهيمنة، ولا يتخضع بالمقولات الجاهزة، ولا بما تمارسه الأيديولوجيات من تعصّب، وتعتيم، وخداع، ولا يتوقف عند ما هو كائن، بل يتجاوزّه إلى ما يمكن وما ينبغي أن يكون، ويسعى إلى إحداث تغييرات اجتماعية تبدأ من الوعي ولا تنتهي به (هامرسلي Hammersley، ١٩٩٧، ص ٢٣٨).

إذا كان تحليل الخطاب ولغويات النص يضيفان إلى التداوليّة بُعداً نصياً ثانياً يخلصانها من انكفاءها على المفردات والعبارة والجمل والحوارات المنجّثة من نصوصها أو المفتحة، فإن التحليل النقدي للخطاب Critical Discourse Analysis (CDA) - وهو ينتمي إلى نفس الاتجاهات الوظيفية في تناول اللغة والخطاب وينفق معها في رفض السلوكية والبنوية المجردة، وفي الاهتمام بالسياق والمقام وبالوظيفة والغاية - يخلص هؤلاء جميعاً من "البراءة"، ومن تجاهل السياقات الاجتماعية والسياسية، ويضيف انشغالا بما لا بدّ من الانشغال به، وهو صراع القوى والإرادات والمعتقدات، وبالتحليل، والاحتيايل، والقمع والتهمير، والتمييز، والدعاية والترويح، و"غسيل المخ"، والنموية والتجميل في اللغة وباللغة. إلى ما سبق، يثمم التحليل النقدي للخطاب بالوعي بالذات وتوجهاتها وتحيزاتّها، لأنّ من يمارسونه هم بشر كبشر.



لما أسس ومنطلقات التحليل النقدي للخطاب فتشمل اهتمامه بالقضايا الاجتماعية، لأن الخطاب ظاهرة اجتماعية، وتسليمه بأن القوة والهيمنة يتم إنتاجهما وتداولهما أو مناهضتهما باللغة وفي اللغة، وأن اللغة تشكل المجتمع والثقافة كما تتشكل بهما، وأن اللغة أو الخطاب حقيقة تاريخية متغيرة وفعل اجتماعي مؤثر، وأن اللغة تحقق غايات أيديولوجية، وأن هناك ما يتوسط العلاقة بين النص والمجتمع/العالم ألا وهو الوعي أو الإدراك، وأن مهمة تحليل الخطاب لا تقتصر على الشرح والوصف بل تتجاوزهما إلى التفسير والتأويل (فيركلوف ووداك Fairclough and Wodak، ١٩٩٧، ص ٢٧١-٢٨٠، وقد يكتب الاسم الأول في العربية هكذا "فيركلوف" أو "فيركلاف" والثنائي هكذا "ووداك").

من الواضح أن القوة power (ومرافقاتها وبنات عموميتها السلطة authority والهيمنة hegemony والسيطرة أو التحكم control) والأيديولوجيا ideology (أو المعتقد، أي كل ما نؤمن به، وندافع عنه من أفكار، وتوجهات، وميول، وقيم، واتجاهات نحتفظ بها لأنفسنا أحياناً، ونحاول فرضها على الآخرين أحياناً) هما في صدارة اهتمام التحليل النقدي للخطاب. درجات ومرافقات القوة التي سبقت مردّها امتلاك ما لا يمتلك الآخرون، وكلّها تشير إلى القدرة على التأثير في سلوك الآخرين وأفعالهم، أو أفكارهم، أو مواقفهم (فان ديك van Dijk، ٢٠٠٧، ص ١١٢)، وهي قدرة تتيحها التباينات الاجتماعية، أو الاقتصادية، ودرجة القرب من مصادر المعرفة والمعلومات، والخبرات المكتسبة، والفروق الجسدية أو الجنسية أو العرقية، وإجادة بعض اللغات المهمة. وكما أن للغة قوتها وتأثيرها، فللقوة لغتها، على معنى أن اللغة بوسعها أن تؤثر في سلوك البشر، وتوجهاتهم، وأفكارهم - تنظر كيف يتسلق البشر وراء الشائعات، والإعلانات، والحملات الدعائية والترويجية، والشعارات، كيف تؤذي الآخرين باللغة، وربما تُلطِّط همهم، وكيف تُسعدهم أو تُخرجهم من عزلتهم، وكيف نرفع من أقدارهم أو نحطّ منها، وكيف نشوهم أو نجعلهم ، كيف نقلل باللغة، بالوشاية، أو التحريض، أو إيغاز الصدور، كيف نجذب الآخرين أو نثفّرهم، نرغبهم أو نرهبهم. هذه بعض قوة اللغة، والقوة لغتها كذلك -

لأصحاب النفوذ، والعلماء، والخبراء، والمسؤولين، والقادة والرؤساء، وأرباب الأعمال، والمشاهير والنجوم، وغيرهم. وإذا كانت قوة اللغة *power of language* من انشغالات نظرية أفعال اللغة والبلاغة الكلاسيكية من قبلها، كما يعتقد بول تشيلتون Chilton وكريستينا شيفر Schaffner (٢٠٠٢، ص ١)، فإن لغة القوة *language of power* من انشغالات التحليل النقدي للخطاب وتحليل الخطاب السياسي من بعده، كما يرد فيما بعد. هذه ليست نهاية قصة القوة، بل مجرد إيجاز يغلج جذور المفهوم عند فوكو وغيره، وتطور المفهوم في الدراسات التداولية من براون وجيلمان (١٩٧٢) حتى بلغت التحليل النقدي للخطاب.

لما الأيديولوجيا فهي كل ما نؤمن به، وقد أسهب فن ديك (١٩٩٥، ص ٢٤٤ - ٢٤٧) في الكلام عنها، وتحديد سماتها، ومنها أنها تتعلق بالإنрак والوعي، لأنها مجموعة من المعتقدات والأفكار تتوسط، كما ورد من قبل، وكما ورد في تحليل الحيل اللغوية العربية وانهاكاتها المبدأ التعاوني، بين اللغة والعالم المحيط بها، بين ما نقول وما يقال لنا، وما نفعل وما يفعل بنا، وهي إلى ذلك اجتماعية، حيث تميز جماعة عن غيرها، أو فرداً عن غيره في محيط اجتماعي، وربما تتحدد مكانة بعض الأفراد أو الجماعات في مجتمع على أساس ما يؤمنون به، وما ينتمون إليه من اتجاهات فكرية، أو دينية، أو سياسية. وربما يفقد الخلاف في العقيدة أو الأفكار أو أسلوب الحياة - رغم أنه القول المأثور - كل قضايا الود بين الأفراد أو الجماعات، وربما تنجم عنه حروب، وثارات، وعداوات، وربما لا يتجاوز بعض المشاحنات والتبكات. هكذا تتباين الأيديولوجيات والمعتقدات والخلافات التي تنشأ فيما بينها في سطوتها وحدتها. ومن سمات ما نؤمن به من أفكار أو معتقدات أن معايير الصواب والخطأ لا تنطبق عليها بنفس الطريقة التي نجد في حقائق العلوم الطبيعية، وليست كلها من الحقائق على كل حال، فكل جماعة ترى فيما نؤمن به عين الصواب: (كل حزب بما لديهم فرحون) "سورة الروم: ٣٢". تتباين المعتقدات والأيديولوجيات كذلك في عبقها وتعقدها، من مجرد تفضيل طعام على غيره، أو لون على غيره، أو فريق



كرة قدم على منافسه، إلى الانتماء إلى اتجاه سياسي، أو شيعة، أو ملة، وتبليغ مواقف البشر مما يؤمنون به، من تمسك ببلع حد الطرف، إلى مجرد انتماء بالاسم أو بقلبية.

لا انفصام بين القوة ومرادفاتها وبين الأيديولوجيا، لأن بعض الأفكار والمعتقدات تكتسب نفوذاً وقوة لمجرد ذبوعها وانتشارها وربما لقوة من يؤمنون بها. على معنى أن بعض المعتقدات تمنح من يؤمنون بها القوة والسلطة، وبعض ذوي النفوذ والسلطة يمنحون ما يؤمنون به من معتقدات سلطة ونفوذاً. ومن يملكون القوة والنفوذ هم بحكم العادة الأقدر على تكريس معتقداتهم، ونشرها والدفاع عنها، وإضفاء الشرعية والعقلانية عليها، وإقناع الآخرين بها، والأقرب على تشويه ما لا يؤمنون به من معتقدات، وما لا ينتمون إليه من توجهات أو أحزاب، وأسلحتهم في ذلك ضلّى، ومن أكثرها نجاعة وتأثيراً اللغة. وبالتالي يستطيع المجهورون أن يقاوموا القهر والمهمشون أن يقتربوا من المتن، ولو بمجرد الخروج عن الصمت. وسوف نعود إلى أصوات ترسيخ المعتقدات والأفكار وترويجها وإضفاء الشرعية والعقلانية عليها أو مقاومة كل ذلك لاحقاً.

لا حصر لموضوعات التحليل النقدي للخطاب أو مجالاته. فطالما كانت هناك قوة أو سلطة (تفرضها أو تكرسها أو تقاومها)، أو أيديولوجيا (فكرة، أو عقيدة، أو ميل، أو نوع، أو موقف، أو توجه، أو انتماء، أو هوى)، كان التحليل النقدي للخطاب صالحاً للتطبيق، وطالما كانت هناك لغة أو خطاب (حوار، أو مناجاة، أو قصة، أو قصيدة، أو مسرحية، أو تقرير إخباري، أو خطاب سياسي، أو إعلان تجاري، أو أغنية، إلى ما لا نهاية)، فهناك قوة وإيديولوجيا أو عقيدة. غير أن بعض الموضوعات والمجالات حظيت باهتمام خاص من ممارسي التحليل النقدي للخطاب، وهي الصراع والتوتر بين الجنسين gender encounters، والخطاب الإعلامي media discourse، الخطاب السياسي political discourse، وخطاب العنصرية racism (ومناهضتها أو إنكارها)، ولغة البرلمانات parliamentary discourse.

لما أتت التحليل

النقدي للخطاب فلا

تختلف كثيراً عن

أبوت تحليل الخطاب

التقليدي ومسائر

الاتجاهات الوظيفية،

لأن ما يميز التحليل

النقدي للخطاب من

غيره من طرائق

التحليل ليس ما

يستخدم من أدوات،

ولا حتى ما يقارب

من موضوعات أو

مجالات، بل الزاوية

التي يتناول من

خلالها تلك الأدوات

والموضوعات.

نقرأ مثلاً (والأمثلة

من العراق بعد

احتلالها وبعد سقوط

صدام حسين على يد

الولايات المتحدة

وحلفائها في العقد

الأول من الألفية

الميلادية الثالثة):

### في نقد التحليل النقدي للخطاب

هناك الكثير مما يأخذه نقد التحليل النقدي للخطاب عنه، من منطلق اختلافات أساسية بين المدارس اللغوية المختلفة - السلوكية والتوليديّة وغيرها - أو تأسيساً على بعض الممارسات غير الناضجة في هذا الاتجاه. مما يؤخذ على بعض ممارسات التحليل النقدي للخطاب الانحياز إلى الجوانب اللغوية من الخطاب على حساب ما يحيط به من سياقات ثقافية، واجتماعية، وسياسية. يؤخذ على تلك الممارسات كذلك إهمالها الأبعاد التاريخية، وتغير اللغة، ودلالاتها، ووظائفها من عصر إلى عصر. في كتابات الراسخين من أصحاب هذا الاتجاه، من أمثال فان دايك وبول تشيلتون وفيركلوف وروث ووداك Wodak، ما ينحس هذه الاتهامات، وفيها ما ينحس الاتهام بأن التحليل النقدي للخطاب ينطلق من تحيزات أيديولوجية، ويعد إلى ما يثبت تلك الانحيازات، على معنى أنه يبدأ بفروض وفكر جاهزة، ولا يرى في النصوص إلا ما يثبت تلك الأفكار والفروض. عند لا بأس به من دراسات تحليل الخطاب التي لم تبلغ مرحلة النضج هنا وهناك يقع في مثل هذه المزالق، لكن تحليل الخطاب لا ينبغي أن يحكم على أساس هذه الدراسات. ولعلنا نضيف إلى ما سبق، عند تطبيق التحليل النقدي للخطاب في بيئة عربية، مزالق اليقين غير المبرر، والجزم، وتراكم الدراسات والمراجع دون رابط، أو تفسير، أو تبرير، أو تفنيد، تحت عنوان "الدراسات المبكرة"، والتكرار، والتسليم بالنظريات والمفولات الكبرى دون مراجعة، ودون وعي بالفروق الجوهرية بين السياقات الاجتماعية والثقافية التي تطوّرت فيها تلك النظريات، والسياقات الجديدة التي تنتقل إليها، و"التطبيق" على حساب التفسير، ناهيك عن التطوير، والبحث عن مصطلحات عربية أو نحتها إذا لزم الأمر.

إضافة إلى كل ذلك، لا ننسى التحيز، وتجانب الموضوعات التي من شأنها أن تستفز الرقابة، والرقباء - وما أكثرها. من الدراسات والمراجع في نقد التحليل النقدي للخطاب، على سبيل التمثيل لا الحصر: ويدوسون Widdowson (١٩٩٥، ٢٠٠٤) وهامرسلي Hammersley (١٩٩٧) وبلومايرت Blommaert وبولكاين Bulcaen (٢٠٠٠)



"عشرات العراقيين قتلوا أمس"، أو "قتل عشرات العراقيين بالأمس"، أو "توفي عشرات العراقيين مصرعهم أمس". يهتم النحو التقليدي (نحو الكلمة والعبارة والجملة) إزاء هذه الجمل بصيغ الجمع - جمع التكسير وجمع المنكر السالم - والإعراب - "ين"، لا "ون"، لأن "العراقيين" مضاف إليه - والفعل حين يُبنى للمجهول، والضمير المستتر، وما إلى ذلك. وربما يتناول تحليل الخطاب، إضافة إلى ذلك أو تلميهاً على ذلك، السياق الذي حدث فيه ما حدث، والمشاركين، والصيغة الإخبارية أو التقريرية، والسبب والعلل - "هم" المتصلة تعود على "العراقيين" - والإشارة إلى "أمس" الخبر، لا أمسنا نحن اليوم، ومقدار ما تشتمل عليه الجمل من صدق، وما تعطي من معلومات، ربما لا تكون شافية أو وافية، وغير ذلك. أما التحليل النقدي للخطاب فيضيف إلى كل ذلك الكلام عن صراع القوى في العراق، وحول العراق، وبسبب العراق، و"النقطية" الإعلامية التي تتجاهل الفاعل ولا تلقي باللائمة على أحد، وربما تحول الفعل، فعل القتل العمد، إلى مجرد حدث - "توفي ... مصرعهم".

هذا على سبيل التبسيط، لكن لعل تبسيط مفيد، يقدر من التسامح ومزيد من التبسيط نستطيع أن نرى في هذه الأمثال استعادة لما ورد من قبل من تصنيف أو متن مكونات الفعل اللغوية إلى صيغة لغوية، ومعنى مقصود، وتأثير مرغوب.

ويقدر من التسامح والتصرف نستطيع أن نتخذ من هذا التبسيط مدخلاً إلى أبعاد التحليل النقدي للخطاب الثلاثة التي حددها فيركلف (١٩٩٥، ص ٢) وهي:

§ الخطاب بوصفه لغة - مكتوبة، أو منظومة: حروف، وأصوات، ومفردات، وعبارات، وجمل، وتراكيب، وقواعد نحوية.

§ الخطاب بوصفه ممارسة بلاغية - ظروف إنتاج الخطاب، وظروف تلقيه، وسياقاته، وغاياته البلاغية، وطرائق تنظيمه وتداوله.

§ الخطاب بوصفه فعلاً اجتماعياً - علاقة الخطاب بما يحيط به من قوى فاعلة، وأيديولوجيات مؤثرة، وتأثيرها فيه وتأثيره فيها.

في التنقل بين هذه المستويات يستعين التحليل النقدي للخطاب بنفس الأدوات والآليات التي يستعين بها تحليل الخطاب التقليدي، وغيره من الاتجاهات الوظيفية، مع تركيزه على استكشاف تجليات القوة والسلطة والأيدولوجيا في النصوص - تحريرية وشفوية.

من الأدوات التي يستخدمها التحليل النقدي للخطاب والجواب التي يركز عليها:

#### § التعدي / transitivity :

من الفاعل؟ ومن يقع عليه فعل الفاعل؟ من الجاني؟ ومن الضحية؟ وهل يختلف أي من هؤلاء جرأء خوف الكاتب أو المتكلم، أو الحياره؟

#### § درجات اليقين certainty :

اليقين قرين السطة، وقرين المطلق، وربما يكون قرين الجهل، وضيق الأفق، أو غلبة الهوى على العقل، والشك doubt - الشك أول العلم، والطريق إلى اليقين، وهو قرين التواضع، أو الضعف والقمع، وربما يكون قرين الحكمة والتضج الفكري، والإلزام obligation - من الذي يقول "ينبغي"، و"يجب"، و"لا بد"، و"مطلوب"، و"من الضرورة"، و"عليكم أن تفعلوا كذا وكذا"؟ وهل من صلاحياته أن يقول ما يقول؟ وغير ذلك من كليات modalities.

#### § الإثبات والنفي Affirmative-Negative :

"الجو صحو"، "أظن الجو صحو"، "ليس الجو صحو" والتساؤل Interrogative: "هل الباب مفتوح؟"، "ليكون الباب مفتوحاً"، "ليس الباب مفتوحاً" والأمر والنهي Imperative: "افتح الباب"، "ينبغي أن تفتح الباب"، "لا تفتح الباب" (فيركلف، ٢٠٠٣، ص ١٦٧-١٦٨، بتصرف).

#### § اختيار المفردات lexicalization :

من مفردات دارجة أو فصحي، بسيطة أو معقدة، إيجابية أو سلبية، وما بين المفردات من ترافق أو تعارض، وما فيها من تكرار وإسهاب أو إيجاز.



### § الصيغ الاسمية nominalizations والمصدرية :

"مقتل العتات في... لفس"، بدلا من "لقي منات من .... مصرعهم على يد .... في .... لفس". الرسالة واضحة. وما أكثر ما نقرأ من أسماء وصيغ مصدرية توهي بالتحقق في الحديث عن أشياء لا تتحقق، أو لم تتحقق بعد - "زراعة ألف فدان..."، و"زيادة المرتبات والأجور"، و"تحرير العراق"، و"قائمة القولة الفلسطينية"، و"حل مشكلة الشرق الأوسط".

### § الألقاب والصفات labels, adjectives and epithets :

"مجوم التحاري"، أم "مجوم استشهادي"؟ "المجاهدون" أم "الإرهابيون"؟ "المسلمون" أم "المحمديون"؟ الاختيار ليس عفويا، ولا برينا من الهوى أو الانحياز.

### § الاستعارة metaphor :

استعارة "العصا والجزرة" في معرض وصف علاقة الإدارة الأمريكية ببقية دول العالم مجرد مثل لما يفعل الخطاب، والتشبيه simile، والتشخيص personification، والمجاز المرسل metonymy، والمفارقة والسخرية irony، والمبالغة hyperbole.

§ الافتراض المسبق presupposition، والتضمين implicature، والمعطوم من اللفظ بالضرورة entailment.

§ الإشارة deixis - إلى الأشخاص، والأزمنة، والأمكنة، والوقائع، والأشياء، والتلاحم أو التنافر، والقرب أو البعد، وصيغ المخاطبة address forms، والنداء vocative - "يا بني"، "يا بعد عمري" - والانزياح deictic-shift.

### § التجميل euphemism :

في الكلام عما لا يستحب الكلام عنه، من مرض، أو موت، أو وظائف بيولوجية - والتقييد dysphemism - في تسمية الأشياء القبيحة بأسمائها، وفي السب، والقائم، واللعن، وما إلى ذلك.

## § البناء للمجهول passivization :

ليست "ضرب عمرو زيدا" كـ "ضرب زيداً" أو "ضرب أحدهم زيدا"، و"قتلنا" ليست كـ "من تقتلون من أبنائنا"، وفي "هذا العالم الكبير المعقد بصراعاته الدامية، المضطرب بتناقضاته الحادة، المهدد بين الحين والحين بالحروب المنمرة" (من خطاب الرئيس المصري الراحل أنور السادات أمام الكنيسة الإسرائيلية، ١٩٧٧) هروباً من تسمية الفاعلين والمسؤولين عن معاناة العالم إلى أسماء مفعول ثقيل الجرائم ضد مجهول. وهذا ما يفعله الفعل "حل" بمعنى "وقع" أو "حدث"، والمعنى للمجهول "أشدت" في "يوم حلت عليها غارات الغزو العثماني، وأشدت من حولها أمتار الجهل تعوق تقدمها وتمنعها من الوصول إلى عصر النهضة في نفس الوقت الذي بدأ فيه عصر النهضة في أوروبا" (من خطاب الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، بمناسبة الوحدة بين مصر وسوريا، ١٩٥٨).

## § ما ورد من قبل من أفعال اللغة :

من بخير؟ ومن يأمر؟ ومن ينهي؟ ومن يحكم، ومن يهتد؟ على سبيل التمثيل، وقواعد المبدأ التعاوني، وقواعد الكياسة والتأدب.

بعض ما سبق مما لا ترد له أمثلة سبق الكلام عنه في هذا النيسيط، وبعضه سيرد لاحقاً. حتى حروف الجر تستطيع أن تحدث فروقاً جوهرية - هل "الحرب في العراق"، و"الحرب على العراق"، و"الحرب مع العراق" تحمل جميعها نفس الرسالة؟ الإجابة بالنفي على سبيل اليقين لا الظن، لأن الأولى لا تلقى باللائمة على أحد، والثانية تضع العراق موقع الضحية أو المذنب الذي يستحق العقوبة، والثالثة تبرئ المعتدي من العدوان، وتضع طرفي الصراع على قدم المساواة، وكلان كلاً منهما يتحمل نفس القدر من المسؤولية عن الحرب، ويمتلك نفس القدرات والأسلحة والنفوذ، فلا داعي للتعاطف مع أي منهما.



## ترجمة المربع الأيديولوجي

"وبالرغم من كونها ليست بالمفصلة ولا العربية، فإن هذه القائمة الموجزة للمستويات والبنى الخطيئة توفر لنا انطباعاً أولياً حول الكيفية التي يرتبط من خلالها الخطاب وبناء المختلفة ببعض نواحي العصرية. لاحظوا أيضاً أن الأمثلة المعطاة تبين نوع الاستقطاب المجموعي الذي نعرفه نحن أيضاً من خلال التحامل المنطوي تحته، أي ميل مجموعة فداخل العام لتفضيل استنتاجية تمثيل النفس الإيجابي من جهة، وازدراء مجموعة الخارج أو تمثيل الآخر السلبى من الجهة الأخرى.

وبمعنى آخر، يؤكد الخطاب العصري، مع بناء المعنوية النقيضة بالإضافة إلى الصيغ والافتقار، على صفاتنا الحسنة وصفاتهم السيئة، ويتجاهل (أو يخفف أو يخفى) صفاتنا السيئة وصفاتهم الحسنة. إن المربع الأيديولوجي العام لا ينطبق على الهيمنة العصرية فصب، بل كذلك على استقطاب مجموعة الداخل-الخارج ضمن الممارسات الاجتماعية والخطاب والفكر" (توين أ. فإن ذلك الخطاب والقوة، ٢٠٠٧، ترجمة سهى مطلوب، غير منشورة، ص ٩٠).

وهذا مثل آخر لترجمات فيها كثير من الجهد والإخلاص، لكن فيها كذلك استسلام للنص الأصلي، وفيها كثير من النقل الحرفي الذي لا يراعى الفروق البلاغية بين اللغتين العربية والإنجليزية، ولا يحقق الغاية التي من أجلها يجب أن تكون الترجمة وهي التوصيل - توصيل فكرة النص الأصلي إلى القارئ في اللغة التي يترجم إليها. ما الذي يعنيه "المربع الأيديولوجي" عند من لم يقرأ النص الأصلي ومن ليس له سابق عهد بكتابات فإن ذلك؟ ولماذا لا تستخدم الترجمة تعابير عربية أصيلة من قبيل "التجميل والتقييح"، و"تهويل وتهوين"، و"المدح والذم"؟

ومن أدوات التحليل النقدي للخطاب التي شاع استخدامها وانتقلت إلى تحليل الخطاب السياسى ما أطلق عليه فإن ديك (٢٠٠٧ ب، ص ١٣٠) مصطلح "المربع الأيديولوجي" ideological square، أو التجميل والتهويل، والتهويل والتهوين، وببساطة إلى استخدام كل ما سبق من أدوات في تجميل كل ما لنا ومن معنا، وتهويل كل ما نكرهنا ومن علينا أو ضنا.

لتحقيق ذلك، يعدد المتكلم أو الكاتب إلى التهويل والتهوين، بمعنى تضخيم حسناته وسينات غيره، وتهويل سيناته وحسنات غيره:

§ تعزيز صفاته وأفعاله الإيجابية وتاكيدها (أنا): تهويل (كل ما هو) إيجابي (عندي أنا أو عندنا نحن).

§ تعزيز صفات عدوه أو منافسه (الأخر) وأفعاله السلبية وتأكيدهما: تهويل (كل ما هو) سلبي (عندك أنت أو عنده هو أو عندهم هم).

§ التهوين من صفاته وأفعاله السلبية (أنا): تهوين (كل ما هو) سلبي (عندي أنا أو عندنا نحن).

§ التهوين من صفات عدوه أو منافسه وأفعاله الإيجابية (الأخر): تهوين (كل ما هو) إيجابي (عندك أنت أو عنده هو أو عندهم هم).

# 1

## عن لغة الإعلام واستعارات شتى

يعد كثير من الفضل في تطور التحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب المؤسسي من بعده، إلى جورج أورويل Orwell، وما طرح من أفكار، وما نحت من مصطلحات، في مقالاته وروايات منها رواية ١٩٨٤.

من بين هذه المصطلحات يبرز مصطلح doublespeak، وهو الكلام ذو الوجهين، أو الزائف المضلل، ومن أمثلته تجميل ما هو قبيح، أو ما ينفر الناس من الكلام الصريح عنه اسمعزاً أو خجلاً أو خوفاً - "يقضي حجة"، و"وفاء الله"، و"بغية"، و"وعدة"، و"معاذرة". أصبح هذا المصطلح مبرراً لعدد كبير من المصطلحات والمفاهيم التي تصف لغة السياسة والإعلام، ومنها مصطلح لغة الإعلام mediaspeak الذي تناوله فوكس Fox (٢٠٠٠) بالتفصيل، حيث صنف هذه اللغة إلى لغة زائفة مضللة، ولغة تخاطب الحواس sensationspeak، ولغة ترويجية salespeak (إعلانات، وعروض، وهدايا، وتقزيلات). وتشمل لغة



الحواس بدورها الكلام عن النجوم والمشاهير celebspeak (خصوصاً مشاهير ونجوم الرياضة، والفن، وحكاياتهم، وأخبارهم، وزيجاتهم، وموضاتهم، إلى ما لا نهاية - مع الاعتذار بضيق المكان لنون النسوة) والكلام عن الكائنات الفضائية والغريبة alienspeak (الحياة على الكواكب الأخرى، والسباحة الفضائية، والأطباق الطائرة)، ولغة الكراهية hatespeak (وما أكثرها وما أوفرها في المنتديات، والمدونات، ومقالات الصحف، والرسوم الكاريكاتيرية، وفي الرسائل القصيرة على شاشات التلفزيون، وفي البرامج الحوارية التلفزيونية. خصوصاً بعد الحادي عشر من سبتمبر، وكاثرينا، وغزو الكويت، واحتلال العراق، ومباريات الأهلي وفرماتك، ونظيراتها في الدول العربية الشقيقة).

### حماسة وصقر

"على أن مقامكما هناك لن يستغرق إلا ريثما يبحث مختار له عن سكن خاص. وأظنك معي في أنه لا وجه لأن يقيم بيننا بعد الآن، وفي البيت عذراء في جمال زينك. أجل، فيما مضى كنا فرخين لا خوف عليهما من الجوار، ولكن الحمفة تبت ريشها، كما برزت مخالب الصقر، وما أظن أن عشنا واحداً أصبح يصلح لإيوائهما".  
(حصون عفيف: زينك، ١٩٣٩، ص ١٩ - ٢٠)

### الإسلام قضاء وصراط

"الإسلام قضاء ذو حدود: هذه الاستعارة إستراتيجية ليس في الخطاب الديني للإسلام المسلمي فقط، وإنما في الخطاب الديني الإسلامي على وجه العموم. وتقوم هذه الاستعارة على معرفتنا بالفضاءات المغلقة، كالغرفة، أو السيارة، أو قاعة الدرس، أو السينما". الإسلام طريق وصراط مستقيم: "فصدرت مني إليهم إشارة بالانصيحة عن هذا الاعوجاج ومطالبة الرجوع إلى أقوم منهاج". "فأنتم ببعض الكتاب وكفرتم

بعض، واستبدلتهم بالرشد غيا، وبألهدى ضلالاً، وقوله تعالى: "ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل" (من كتاب بذل المجهود في مخالفة النصارى واليهود للإمام السلمي في دراسة الحراسي، ٢٠٠٠)

### استعارات منها ما ورد في القرآن الكريم

من (فقه اللغة للثعالبي)

"رأس الأمر"، و"رأس المال"، و"وجه النار"، و"عين الماء"، و"حاجب الشمس"، و"أنف الجبل"، و"أنف البياض"، و"لسان النار"، و"ريق المزن"، و"يد الدهر"، و"جناح الطريق"، و"جناح الذل من الرحمة"، و"كبد السماء"، و"ساق الشجرة"، و"كشفت عصاهم"، و"كشفت نعمتهم"، و"مرؤا بين سمع الأرض وبصرها"، و"قسا بينهم الطريق"، و"كشفت الحرب عن ساقها"، و"أبدى الشر عن ناجية"، و"حمي القوطيس"، و"دارت رحي الحرب"، و"افتتر الصبح عن نواجذ"، و"سل سف الصبح من غمد الظلام"، و"تعر الصبح في فقا الليل"، و"باج الصباح بسرة"، و"ارتفع النهار"، و"ترحكت الشمس"، و"رمت الشمس بجمرات الظهيرة"، و"خفت رايات الظلام"، و"ساب رأس الليل"، و"كبت الشمس جنبابها"، و"قام خطيب الرعد"، و"خفق قلب الريق"، و"تقطع شريين الضام"، و"تنفس الربيع"، و"تطر النسيم"، و"تبرجت الأرض"، و"قوي سلطان الحر"، و"تصر قناع الصيف"، و"جاشت جيوش الخريف"، و"شابت مفارق الجبال"، و"تشعل فراس شيبا"، و"يوم عبوس"، و"الأدب غذاء الروح"، و"النسب بكورة الحياة"، و"النسب عنوان الموت"، و"العيل موس المال"، و"النار فكهة الشتاء"، و"فوحدة قبر الحي"، و"الصبر مفتاح الفرج"، و"الشمس قطيفة المسكين"، و"كباس الجوع والخوف"، و"سوط عذاب"، و"أم الكتاب"، و"أم القرى" (الثعالبي، ٢٥٦- ٢٥٧).



## استعارات (سياسية واقتصادية ورياضية... إلخ) معاصرة

من الأهرام، والمصريون، والمصري اليوم، والخليج،  
والإمارات اليوم، والرياض (٢ يوليو ٢٠٠٨) وغيرها

(١)

نول "مارقة"، ونول "شقيقة"، ونول "صديقة"، ونول "معادية" (المجتمع الدولي أسرة)،  
و"محور" الشر، والحرب "على" الإرهاب، و"كبش فداء"، و"بطلة سوداء"، وحصان  
"أسود"، ورغبة "متوحشة"، و"الراعي" والنساء، و"غرام" الأقاعي، (البشر حيوانات  
عاقلة)، و"الحيتان" الكبيرة، و"الأسماك" الصغيرة، والعزراء و"العقرب"، و"إخطبوط"  
الفساد، وحكومة "الظل"، وأصوات "محروقة"، و"شراء" الأصوات، و"شاهيندر تجر"  
مصر، و"القيصر"، و"تفريغ" قانون حماية المنافسة (القانون وعاء)، و"لعة شد الحبل"  
بين طهران وواشنطن، و"اللعب" بالنار، و"اللعب" على العقول، و"لعة" الكرسي  
الموسيقية، و"لعة" السياسة، و"الدعارة" السياسية، والعهر السياسي (السياسة لعبة  
قذرة)، و"غسيل" المخ، و"هجرة" العقول، و"استنزاف" خزانة الدولة، ومواطنون "ضد  
الخلاء"، و"جحيم" الأسعار، و"تدثي" الرواتب، والأسعار "تلتهم" الزيادة في الرواتب،  
و"خرق" القواعد، و"اختراق" الصفوف، وأسلحة "الخداع" الشامل، و"خلق" المفاجآت  
الشابة، ويحدد "الخداع" على غرة، و"قجوة" مخصصات السيون، ودون تحميل  
الموزنة لية "أعباء"، و"حسني عبد ربه" من "حق" الإسماعيلي (البشر ممتلكات)،  
ودفع "عجلة" التنمية، ودفع "مسيرة" السلام، والصين قوة "صاعدة"، و"قتل" نريع  
إسرائيل، و"تجاح" لحزب الله، و"شراكة" إستراتيجية، و"تفصل" بين شركتين، و"شد  
وجذب" بين الشركاء، و"تمونامي" الشائعات، و"عيد جلاء" المدرسين الخصوصيين  
عن بيته، و"موجة" من اللاجئين، و"غليان" في شوارع العاصمة، والديمركيون "أسد"  
شعوب العالم، وزيمبابوي الأكثر "تعاسة"، و"حقلاب" وزاوية جديدة، و"بنك"

المعلومات، و"صدام" الحضارات، وثقافة الاحتلال لم "تتجتر" بعد، و"يحيي" الأمل في الوصول إلى حل، و"يزرع" فجر العسكرية المصرية، و"فاتحين الأسبان الجدد" (فريق كرة القدم الفائز ببطولة أمم أوروبا ٢٠٠٨).

## (٢)

"معركة" الهيوط، و"تميح" الحرب والانتفاضة (الأمة جسد)، و"هيئة" الدولة، و"راب الصدع"، و"بلورة" رؤية إفريقية، و"فكروا قيده" (لاعب يريد ترك توقيعه)، و"كول" الاحتلال، و"تدشين" / إطلاق مشروع، و"شمس" الحرية، و"قيود" الانتصار، والحقيقة "العارية"، و"شجرة" / "بئر" الحرمان، وبيت من "لحم"، والصحة "تفحص" الصلاة في بلادها، و"ترسيخ" العمل العربي المشترك، والحضارة "تفعل" الذي "يتأقص" الهمجية، و"عزل" المجتمع و"أفاته" (المشكلات الاجتماعية أمراض)، وكلام "حنو"، وكلام "نذير"، وكلام "مصول"، وكلام "جارح" (الكلام طعام وشراب وسلاح)، ومنذمة "لامعة"، و"تجم" متلقي، و"كوكب" الشرق، و"يحيك" مؤامرة، و"ينسج" قصة من الخيال، و"حرب" كلامية (الجدل والمحااجة حرب)، و"أعمدة" الحكمة، و"لسن" قبلاغة، و"جذور" الاستبداد، والقضاء على الفئنة في "مهداها"، و"ملاحج" أزمة الغذاء (الظواهر الاجتماعية والثقافية أبنية ونباتات وكنائس)، والوطن / اللغة "الأم"، و"حضر" الوطن (الوطن أم)، والأصدقاء "المقربون"، والقراء الزوار الكرام، والمحضر "الضيف" (المواقع والمنشورات بيوت)، وأيام "سوداء" أو "بيضاء"، ومستقبل "مظلم" أو "مشرق"، و"بذير" لغة الأمور، و"ربان" سفينتنا (الحياة سفينة)، و"رحلة" التمسيل، و"رحلة" الحب، والحياة "رحلة" (الحياة رحلة)، وفي "ظلال" القرن / السنة، و"ظلام" الجهل، و"تور" المعرفة، ويوم "حلو" ويوم "مر"، وأيامنا "الخطوة"، وإجترارة سريعة / قصيرة، والزمن "يجري"، والأيام "تعر"، و"لوحة غنية" رائعة (مجموعة من البشر يصلون معا)، والعيون "توافد" الروح، و"كلام" العيون، وله أيد "بيضاء" على تلاميذه،



ويعد "يد" العون، والأم "مدرسة"، و"سيمفونية" رائعة (عن أداء جماعي)، و"عزف" منفرد (عن مهمة فردية)، و"فيروسات" و"قراصنة" (في عالم الكمبيوتر والإنترنت)، والصفحة الرئيسية (في أصلها الغربي homepage)، و"تأكل" الطفلة الوسطى، و"تار" الغيرة، و"بركان" الغضب (المشاعر نيران)، و"بحر" الحياة موجه عال، و"بر" الأسان (الحياة بحر)، و"الزواج" بين الولايات المتحدة وإيران وبين الولايات المتحدة ودول أخرى (العلاقات بين الدول كالعلاقة بين زوج زوجة، الدول بشر).

## تحليل الخطاب السياسي

إن السياسة بمعنى التأثير والتوجيه والتوجيه والتفويض ماثلة في كل زمان ومكان، من هنا يأتي تأكيد التحليل النقدي للخطاب على تناول علاقات القوة والهيمنة، وتجليات الأيديولوجيا في كل أنواع النصوص - في خطاب الآباء والأبناء، والفضاء والمتهمين، والأطباء والمرضى، والمدرسين والطلاب أو التلاميذ، ورجل الشرطة والمواطن "العادي"، والعالم والمتعلم، والشيخ والمريد، والمتنحون والمتنحون، والقراعي الرعية، وأرباب الأعمال ومديرها بموظفيهم، من يمكنون ومن لا يمكنون، من يعلمون ومن لا يعلمون - إذا كانوا يعلمون أنهم لا يعلمون.

وليس من بين أنواع الخطاب ما تتجلى فيه الهيمنة والقوة ومحاولات التأثير أكثر من الخطاب السياسي بمعناه الخاص المحدث الذي يتعلق بأسور الحكم والسياسة، ولهذا السبب استأثر الخطاب السياسي دون غيره من مجالات التحليل النقدي للخطاب، وما زال يستأثر، باهتمام متزايد حتى تطور في دراسته اتجاه مهم هو تحليل الخطاب السياسي **Political Discourse Analysis** الذي ينطلق من مقولات ومفاهيم التحليل النقدي للخطاب، ومن ثم ما تأسس عليه من اتجاهات ومفاهيم، ويركز على لغة السياسة والسياسة، في خطبهم وحواراتهم ومكتسباتهم وقراراتهم ومؤتمراتهم وتصريحاتهم، وعلى وظائف الخطاب السياسي، وغاياته، وأدواته في تحقيق هذه الغايات.

في أدبيات تحليل الخطاب السياسي، التي تتراكم وتزداد تضجاً وتعقيداً يوماً بعد يوم - وتحديداً في دراسة تشيلتون وشيفنر (١٩٩٧) المهمة عن الخطاب والسياسة - أربع وظائف يسعى الخطاب السياسي إلى تحقيقها - ليست مقصورة عليه، لكنها تتجلى فيه بشكل لافت، وهي:



(أ) القمع والفهر coercion - من خلال فرض القوانين والأحكام والعقوبات والتنظيمات، وشنّ الحروب، والتهديد، وفرض الأوامر والتنظيمات وما إليها.

(ب) إضفاء الشرعية أو تجريد الآخرين - الأعداء، والخصوم، والمنافسين، ومن إليهم - منها legitimization/ delegitimation - من خلال تجميل الذات وتقييح الآخر، كما يرد تفصيله في غير هذا الموضع، ومن خلال ادعاء الانحياز إلى جانب الحق والخير والعدل في مواجهة من ينحازون إلى الباطل والشر والظلم.

(ج) المقاومة والمواجهة resistance and opposition - إزاء الخطاب المساند المهيمن، خصوصاً إذا كان خطاباً شمولياً لا يراعي إسمية البشر ولا يعدل بينهم، وفي محاولات التفسير إلى ما هو الفضل. علينا أن نلاحظ هنا أن ما هو همتي في لحظة تاريخية محدّدة ربما يحتل المتن في مرحلة لاحقة، وقد يمارس كل الرذائل التي كان ينتقدها في سابقه.

(د) التضليل dissimulation - من خلال إخفاء بعض التفاصيل أو الحقائق لحساب تفاصيل وحقائق أخرى، أو التركيز على بعض جوانب الواقع دون غيرها تحقيقاً لما سبق من غايات.

يستطيع الخطاب السياسي أن يحقق هذه الغايات من خلال اللغة، ومن آليات ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر - وقد تقدّم تلخيص هذه الآليات في الحديث عن التحليل النقدي للخطاب:

#### (أ) الاستعارة :

من ذلك ما نجد في تعبير الإدارة الأمريكية "hunting down bin Laden" الذي يتحول فيه اسم بن لادن إلى "حيوان" يطارده صيادو البنتاجون. وقد وردت أمثلة أخرى للاستعارة في متن التبسيط وهوامشه.

#### (ب) التشبيه :

تشبيه صام حسين بهتلر، والقاعدة بالمافيا، على سبيل المثال. لا يبدو أن التشبيه نفس التأثيرات السياسية والبلاغية التي للاستعارة، ربما لأن أداة التشبيه تلقت النظر وتمنقر التساؤل عن حقيقة العلاقة بين طرفي التشبيه.

#### (ج) الافتراض المسبق :

من ذلك سؤال يوش في خطابه عقب الحادي عشر من سبتمبر الشهير Why do they hate us? (لماذا يكرهوننا؟) وواو الجماعة تشير إلى المسلمين والعرب و"أنا" (في الأمريكان) الذي يفترض مسبقا صحة الاعتقاد بأن العرب والمسلمين يكرهون الولايات المتحدة، وقوله The enemy of America is not our many Muslim friends الذي يفترض مسبقا وجود عدو يترى بالأمريكا وأن أمريكا لها كثير من الأصدقاء في العالم الإسلامي.

#### (د) التجميل :

من ذلك التعبير عن الاحتلال بالتحريض، وعن الحرب "على" العراق بالحرب "في" العراق، وعن الأخطاء الغبية بالنيران الصديقة، ومن ذلك أيضا ما امتعنا به "صحف" وزير الإعلام العراقي في عهد "صدام حسين من أخبار السلة عن "الانتصارات" العراقية المتعاقبة في "معركة الحواسم" الأخيرة التي ذهب بعدها صدام والصحف إلى غير رجعة، ومن ذلك التعبير عن الهزيمة بالتمسك، والانسحاب بالتراجع، والقتلى والضحايا بالخسائر في الأرواح.

#### (هـ) التفتيح :

من ذلك سيل التمثال التي سمعنا من "الصحف" حين وصف القزاة الأنجلوأمريكيين بـ "الغوج" ومصاصي النماء و"جحوش الاستعمار" و"عصابة الأوغاد الدولية". (بالإضافة إلى التنقل بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول وتحويل الأفعال إلى مجرد أشياء تقع أو تحدث دون قصد أو دافعية إنسانية).



هكذا، ومن خلال متابعة لغة الحرب على العراق، نستطيع أن نتحقق من توظيف اللغة كسلاح مهم وفعل في تبرير الحرب أو مقاومتها من خلال تجميل الذات وتشويه الآخر، فقد عملت الإدارة الأمريكية على تشويه صورة صدام حسين الذي قدم لها كل المساعدات الضرورية من خلال تصرفاته "الطائشة"، من وجهة نظر تلك الإدارة، وعيّه بمفكرات شعبه، وأقمعه إياه. في نفس الوقت، سعت الإدارة الأمريكية إلى تجميل صورتها، وتهميش كل أخطائها وخطاياها، وإخفاء بواطنها الحقيقية من وراء الحرب - صدام ليس الطاغية الوحيد، وهو ليس كذلك في نظر الجميع. ولم يكن في العراق أسلحة دمار شامل، كما أن صدام - من وجهة نظر كثيرين - كان لائن صناعة أمريكية. على الجانب الآخر، أبقى حزب البعث على خطبه الذي يفضّل مشاعر المسلمين والعرب من خلال التعلّق بأستار الكعبة، وبقياس القومية العربية، وحديث الجهاد في سبيل الله، والعرض والشرف والكرامة. في نفس الوقت، بذل الصحف جهداً خارقاً في تشويه الغزاة المستعمرين. لكن آلة الحرب العراقية المنهكة أخفقت، وأخفقت كذلك آلة حربها اللغوية. ولعلّ من أكثر نتائج تلك الحرب أهمية أن العالم قد أصبح أكثر وعياً بتوظيف اللغة كسلاح خداع شامل. لم يكن الأمر من قبيل الاكتشاف، لأنّ توظيف اللغة كأداة للدعاية والحرب قديم قدم الإنسان نفسه، لكن العمالة لم تعد تعمل مزيداً من الانتظار للاهتمام بهذه الوظيفة على مستوى القول الإعلامي والبحث الأكاديمي.

كذلك نستطيع أن نتحقق من خلال مراجعة لغة الحرب على الإرهاب ثم على العراق من توظيف وسائل الدعاية **propaganda** اللغوية لتحقيق غايات سياسية وردّ نكرها أعلاه. من ذلك ما حفل به خطاب الحريين من ألفاظ رثاء، وتعبير برفقة **glittering generalities** كالديموقراطية، والحرية، والعدالة، في صراعها مع الإرهاب، والديكتاتورية، والظلم، والخوف. حين ندقق النظر، نكتشف أنّ هذه الكلمات ليست لها نفس الدلالات عند المتحاربين، فما فعله صدام وابن لائن "جهاد في سبيل الله" تحوّل عند بوش إلى "إرهاب"، وما فعله بوش "حرب على الإرهاب" تحوّل عند مسكوّر "الأعداء" إلى "إمبريالية"، و"غزو"، و"استعمار".

ومن ذلك خلط الأوراق card-stacking في سبيل التعظيم على النوافع الحقيقية، فبدلاً من مناقشة الأسباب الحقيقية "لكراهية العرب" أمريكا، رأينا الإدارة الأمريكية تنسب ذلك إلى ما تتمتع به الولايات المتحدة من حرية، وحضارة، وعدالة، وما يتفلسف كاهل العرب من قمع، وقهر، ومحاكم تفتيش، وأحكام عرقية، وطغيان. لم نسمع بوش يتناول تحيزات إدارته، ومكاييلها المتباينة، وألقعها المتعددة.

ومن أساليب الدعاية السياسية كذلك الحديث بلسان حال العامة plain folks، والإيهام بأن موقف القيادة ليس إلا تعبيراً عن مشاعر الشعب ورغباته. ومن ذلك أيضاً التعصيم والفراض التعبير عن الأغلبية، ليس في الداخل فقط، بل في شتى أنحاء العالم، ويرتبط بهذه الوسيلة الدعائية الثيقن من النصر band-wagon and inevitable victory - "أنا أعجز عن شعبي، والعالم المتحضّر كله معي، وسوف نتنصر؛ إما أن تكون معنا أو علينا، وإذا قرّرت ألا تكون معنا، فسوف تكون حتماً من الخاسرين". هكذا تكلم جورج بوش الابن.

ومن وسائل الدعاية التي تابعتها في الحربيين كذلك التنايز بالألقاب، والنسب، أو الشتم name calling ، وقد وردت فيما سبق أمثلة لذلك في معرض الحديث عن لغة "الصحاف". لم يقصّر جورج بوش من ناحيته، فقد أعم على صدام وبين لائن بسيل من الألقاب التي تحمل العامة على كراهيتهما. ولقد أصبح لقب "إرهابي" تهمة جاهزة لكل من تسول له نفسه معاداة الأقوياء؛ فالفلسطينيون "إرهابيون"، والعراقيون الذين يقاومون الاحتلال "إرهابيون"، و"محور الشر" axis of evil محور إرهاب، وطالما وردت كلمة "الشر"، فقد انتقل الصراع من تنافس على الهيمنة وسمي إلى تحقيق غايات سياسية واقتصادية، إلى صراع بين "الخير" و "الشر". ونحن جميعاً نعرف إلى أي معسكر تنحاز السماء. هكذا أصبح الذين وسيلة دعوية، وآلة حرب. لم يكن بوش رائداً في توظيف الدين لتحقيق غايات سياسية فقد سبقه إلى ذلك عدد لا يحصى به من القادة العرب. وسوف ترد إشارات أخرى إلى ذلك لاحقاً.



لم تنته القصة بعد، لكن المؤكد أن لغة الخطاب السياسي تحتاج إلى كثير من الاهتمام في عالمنا العربي. بومع البلاغة العربية أن تستوعب ما يستجد من مفاهيم تتعلق بوظائف الخطاب السياسي والدعاية السياسية.

ليس المقصود الانحياز لأنّ أياً من الأطراف المعنية في الحروب التي تتحدث عنها لم يقدم للبشرية ما يستحق أن تحمده له أو أن تدافع به عنه (وهذه هي ذاتها مقولة متحيزة)، لكن المقصود هو الوعي والتوعية.

## 1

### خصائص الخطاب السياسي

في ختام تحليله  
نصوصاً سياسية مهمة  
لجورج يوش وأسمامة  
بن لادن ومنافستيه  
تاريخ العلاقة بين اللغة  
والسياسة وغير ذلك  
من جوانب الخطاب  
السياسي.

يلخص بول تشيلتون  
Chilton (٢٠٠٤):

(٢٠٠٦-٢٠٠٥) سمات هذا  
تنوع من الخطاب فيما  
يلي - مع كثير من  
التصرف على سبيل  
التبسيط:

#### تحسين القبيح وتقييح الحسن

من طريف ما تحفل به البلاغة العربية ما كتبه أبو منصور  
الثعالبي - وهو صاحب بتيمة الدهر وفقه اللغة كذلك -  
في كتابه تحسين القبيح وتقييح الحسن، وقد جمع فيه ما  
قبل في تحسين ما تم التعرف على تقييحه، وتقييح ما  
انفق الناس على تحسينه. يذكر الثعالبي في المقايح تقييح  
العلم، والشجاعة، والأدب، والقي، والحلم، والصبر،  
وغیره. ويذكر فصلاً في تحسين الكذب، والوقاحة،  
والذنوب، والمرض، والموت، والجن، والسنن. على أن  
لا ينبغي أن نقع في فخه البلاغي، فهو لا يمدح الكذب  
إطلاقاً، بل يمدح من الكذب ما يوصل به أرحم ويتصلح  
المتأفرون. وهو لا يذم العلم في ذاته، بل يذم منه ما يورد  
صاحبه مولد الترقق ويلبسه لباس الغرور. يقول الثعالبي  
في تحسين الفراق وتقييح التلاقي: "قل بعض الظرفاء: في  
الفراق مصافحة التسليم، ورجاء الأوبة، والسلامة من  
الملل، وعسارة القلب بالثوق، والأمن بالمكعبة! وكتب  
أبو عبد الله الزنجي الكاتب: جرى الله الفراق عنا خيراً!  
فاتما هو زفرة وعبرة، ثم اعتصام وتوكيل، ثم تأميل  
وتوقع.. وقبح الله التلاقي! فاتما هو مسرة لحظة، ومساءة  
أيام، وابتهاج ساعة، ولكتاب زمان" (عن موقع الوراق).

(١) يعتمد الخطاب السياسي

على الإشارة **deixis** -

بمعناها التوسع الذي سبق

توضيحه - إلى الزمان

والمكان والمكانة والعلاقة

والسبق.

(٢) يقوم الخطاب السياسي

على التفاعل

**interaction** الذي تنبئ

من خلاله الحدود التي تفصل

والروابط التي تجمع، تفصل

الأنا عن الآخر وتجمعها

ومن يحالفها أو يشبهها أو

ينتمي إليها، وتتبدى من

خلاله تلك المكانة السياسية

والاجتماعية والاقتصادية

والأشوار التي يلعبها كل

طرف في التفاعل أو حوله.

(٣) يشمل التفاعل على

نوع من التفاوض والتداول،

تداول الواقع، ومراجعة

فرضياته المهمة، ومحاولة

فرض ما نفترض أو نسلّم به

نحن على الآخرين.

إضفاء الشرعية وتجريد الآخرين منها

(فان ليون **van Leeuwen**، ٢٠٠٧: ٩٢، بتصرف)

في "المربع الأيديولوجي" وفي وظائف الخطاب

السياسي تأكيد على ما يقوم به كل خطاب

أيديولوجي من إضفاء الشرعية على نفسه وتجريد

الآخرين - الخصوم والأعداء والمنافسين والخصم

والنقاد - منها، ويستطيع منتج الخطاب أن يحقق

هذه الغاية - التي لا يخلو منها أو من بعض

درجاتها أو ظلالها خطاب إمسي - من خلال:

١ إضفاء السلطة **Authorization** - من خلال

استلزام الموروث والتقاليد والعادات والقوانين

والاستشهاد بأصحاب النفوذ والتأثير الثقافي أو

الفكري أو السياسي، كرجال الدين والرموز

التاريخية.

٢ إصدار الأحكام الأخلاقية **Moral evaluation**:

إصدار أحكام أخلاقية عن الخير والشر والفضيلة

والرذيلة والقيم والصواب والخطأ والحلال والحرام

والعلم والجهل وغير ذلك من ثنائيات.

٣ العقلنة **Rationalization**: إضفاء العقلانية

على مقولة أو قضية أو موقف أو اتجاه، من خلال

الأرقام والإحصائيات والتسلسل المنطقي والاستشهاد

بالمختصين وذوي الخبرة والعلم والمعرفة.

٤ الأسطورة والسر **Mythopoesis**: حكايات

وقصص - حقيقية أو مؤلفة - مفادها أن كل ما هو

شرعي يحظى بالتهليلات السعيدة وكل ما هو خارج

عن الشرعية ينتهي نهايته الطبيعية - "إلى سلة

مهملات التاريخ" بتعبير جورج بوش في خطابه

عقب الحادي عشر من سبتمبر. لا بد أن يتزوج

"البطل" من "البطلة" وأن يلتقي القبض على المجرم

الشرير.



(٤) يشمل الخطاب السياسي على توقع ما يفكر فيه الآخرون والتنبؤ بما سيقدر المتفكرون وما يؤمن به "الأعداء" ومن ثم تفنيده أو إضعافه أو تشويبه وتقييده.  
(٥) يتحقق قدر كبير من التفاعل في الخطاب السياسي بفضل قدرة اللغة على الدلالة على مستويات مختلفة، وقدرتها على التعبير عن الواقع، ثم التعبير عن التعبير عن الواقع.

(٦) يتحقق قدر كبير من التفاعل في الخطاب السياسي بفضل شراء تعبير اليقين والشك وتعبير الضرورة والالتزام الأخلاقي والديني والاجتماعي - تعبير "افعل" و"لا تفعل" و"يجب" و"ينبغي" و"لا بد" و"علينا".

(٧) يركز الخطاب السياسي إجمالاً على تصنيفات ثنائية متعارضة، وربما متصارعة، بين الحق والباطل، بين الخير والشر، بين العدل والظلم، بين الشرعية وعدم الشرعية، بين الوطنية والخيانة، بين الحرية والقمع. عادة ما يكون صاحب الخطاب في المعسكر الأول وأعداؤه في "محور الشر".

(٨) لمفهوم الأنوار roles أهمية خاصة في الخطاب السياسي، والمقصود هنا هو ما يؤدي المشاركون في الخطاب من وظائف وأنوار اجتماعية أو سياسية أو عسكرية، سواء كانت هذه الأنوار حقيقة أو مفترضة أو مرجوة أو مطلوبة من الآخرين، والعلاقات التي تربط بين من يؤمنون هذه الوظائف وينهون هذه الأنوار - "الحكم" و"المحكوم" و"الراعي" و"الرعية" و"الرئيس" و"الشعب" و"الحكومة" و"المعارضة" و"الجمهوريون" و"الديمقراطيون" و"العمل" و"الفنات" و"أعضاء مجلس الأمة" و"الوزراء" وهكذا.

(٩) للتوعي بالمكان والمكانة أهمية خاصة في الخطاب السياسي، ومن ذلك ما يتعلق بمفهوم "الحدود" و"المياه الإقليمية" و"دول الجوار" و"الشرق" و"الغرب" و"الاحتلال" و"الغزو" و"الهجرة" و"الشمال" و"الجنوب" وما يرتبط بذلك من استعارات وتصورات وحقوق وواجبات.

(١٠) يشتمل الخطاب السياسي على قدر وافر من التفكير الاستعاري، على معنى أن الاستعارة وظيفة مهمة في صياغة التصورات وتجسيد المفاهيم والأنطولوجيات السياسية. من ذلك ما نجد في استعارة "اصطياد أسامة بن لادن" في هذا الجزء من التبسيط. لا تكفي الاستعارة هنا بتقبيح قائد تنظيم القاعدة بل تنتقل من تلك إلى تجريده من الشرعية ووضعه في معسكر الشر الذي تصبح محاربه التزاماً أخلاقياً مشروعاً.

(١١) من خلال الوعي بالمكان والتصورات الاستعارية التي ترتبط به، تتشكل الجماعات والقوميات والشعوب والأقليات والدول والدويلات، ويتشكل كذلك وعيها بمن ينتمي إليها ومن لا ينتمي، وتتبلور الهوية identity السياسية والجغرافية والاقتصادية لتلك التجمعات، وتتبلور مفاهيم "نحن" و"هم"، من "معنا" ومن "عينا". وقد يقع التبسيط المخل والالتباس بين الهوية الجغرافية وبين الهوية السياسية أو الدينية كما نجد في تصور هنتنغتون Huntington صراعاً بين غرب "مسيحي" وشرق أوسط "مسلم". ليس كل من في الغرب مسيحيين، وليس كل من الشرق الأوسط مسلمين.

(١٢) يبدو أن هناك ارتباطاً من نوع ما بين الخطاب السياسي وبعض المشاعر الإنسانية الغريزية كحب الوطن والغيرة على الدين والحفاظ على الحرمات والمحرّم والأماكن المقدسة والنفور من الغرباء والرغبة في الانتماء وحب "الأهل" والأسرة والانتماء إلى دين أو عشيرة، وكلها مشاعر يجيد الخطاب السياسي إثارتها والعزف على أوتارها بما يحقق غاياته وأهدافه.

(١٣) نكرراً لبعض ما سبق وتأسيساً عليه، تتجاوز الإشارة والتعبير الإشارية مجرد تحديد المكان إلى تحديد المكانة والدور والعلاقة بين المشاركين في الخطاب، من مجرد الإشارة إلى من أنا ومن أنت ومتى، إلى تأسيس علاقة بين "أنا" وكل ما هو حسن وخير - وبين "عدوي" أو "منافسي" وكل ما هو قبيح وشر - وتحقيق التلاحم بين منتج الخطاب ومن يسعى إلى إرضائهم من ناخبين أو جماهير أو لجان أو هيئات. هكذا تبقى الإشارة بمعناها الرحب سلاحاً مؤثراً في جدل الهويات والانتماءات، درعاً يدفع وسيفاً يقتل، بدأ تضم "كوي القربى" وأخرى تحجب الغرباء.



## في العالم العربي

هناك وعي متزايد في الجامعات العربية بضرورة التحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي. نجد هذا في دراسة سهام القارح El-Kareh (١٩٨٥) التي تتناول عينة من خطابات جمال عبد الناصر، ودراسة ملك هاشم Hashem (١٩٩٠) التي تتناول صراع القوى في قصة قصيرة، ودراسة أبو خليل Abu Khalil (١٩٩٤) التي تتناول الجبرية في خطابات جمال عبد الناصر وهشام حسين، ودراسة الرائد Al-Rashid (١٩٩٤) التي تتناول بلاغة الخطاب السياسي في المملكة العربية السعودية في تسعينيات القرن الماضي، ودراسة وجيه Wageih (١٩٩٤، ١٩٩٦) وتتناولان التفاوض الاجتماعي والسياسي، ودراسة علا حافظ Hafez (١٩٩٩، ٢٠٠٠) وتتناول أولاهما العلاقة بين الخطاب والقوة، والنتيجة الخطاب الجماهيري وما فيه من الثقات وتبادل أفكار، ودراسة الحراصي (٢٠٠٢) التي تتناول الاستعارة المفهومية وتعرض على التحليل النقدي للخطاب، مع تطبيقات على بعض خطب الإمام علي كرم الله وجهه، ودراسة رشا خيرى Khairy (٢٠٠٠) التي تتناول النحوية وجوانب نحوية ودلالية وتداولية أخرى في لغة فضيحة ووترجيت، ودراسات مزيد Mazid (١٩٩٩، ٢٠٠٤، ٢٠٠٧، ب، ٢٠٠٨) وتتناول الأولى التحليل النقدي للخطاب وتطبيقه في تحليل خطاب السادات أمام الكنيست الإسرائيلي وإعلان الاستقلال الأمريكي وأجناس خطبية أخرى، وتتناول ثنائية الكلام الجميل والفبيح في خطاب الحرب على العراق، والثالثة التحليل النقدي لخطاب الترجمة، والرابعة الافتراضات المسبقة في خطاب للرئيس بوش في أعقاب الحادي عشر سبتمبر، وتتناول الخامسة صورة بوش وابن لادن في عينة من النصوص الكافيتيرية، ودراسة محمد Muhammad (٢٠٠٤) التي تتناول بالتحليل النقدي عينة من عناوين الصحف العربية والإنجليزية، ودراسة منديا أحمد Ahmed (٢٠٠٧) التي تتناول بالتحليل النقدي لغة الصحف العربية والإنجليزية.

## في العالم العربي

هناك وعي متزايد في الجامعات العربية بضرورة التحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي. نجد هذا في دراسة سهام القارح El-Kareh (١٩٨٥) التي تتناول عينة من خطابات جمال عبد الناصر، ودراسة ملك هاشم Hashem (١٩٩٠) التي تتناول صراع القوى في قصة قصيرة، ودراسة أبو خليل Abu Khalil (١٩٩٤) التي تتناول الجبرية في خطابات جمال عبد الناصر وهشام حسين، ودراسة الرائد Al-Rashid (١٩٩٤) التي تتناول بلاغة الخطاب السياسي في المملكة العربية السعودية في تسعينيات القرن الماضي، ودراسة وجيه Wageih (١٩٩٤، ١٩٩٦) وتتناولان التفاوض الاجتماعي والسياسي، ودراسة علا حافظ Hafez (١٩٩٩، ٢٠٠٠) وتتناول أولاهما العلاقة بين الخطاب والقوة، والنتيجة الخطاب الجماهيري وما فيه من الثقات وتبادل أفكار، ودراسة الحراصي (٢٠٠٢) التي تتناول الاستعارة المفهومية وتعرض على التحليل النقدي للخطاب، مع تطبيقات على بعض خطب الإمام علي كرم الله وجهه، ودراسة رشا خيرى Khairy (٢٠٠٠) التي تتناول النحوية وجوانب نحوية ودلالية وتداولية أخرى في لغة فضيحة ووترجيت، ودراسات مزيد Mazid (١٩٩٩، ٢٠٠٤، ٢٠٠٧، ب، ٢٠٠٨) وتتناول الأولى التحليل النقدي للخطاب وتطبيقه في تحليل خطاب السادات أمام الكنيست الإسرائيلي وإعلان الاستقلال الأمريكي وأجناس خطبية أخرى، وتتناول ثنائية الكلام الجميل والفبيح في خطاب الحرب على العراق، والثالثة التحليل النقدي لخطاب الترجمة، والرابعة الافتراضات المسبقة في خطاب للرئيس بوش في أعقاب الحادي عشر سبتمبر، وتتناول الخامسة صورة بوش وابن لادن في عينة من النصوص الكافيتيرية، ودراسة محمد Muhammad (٢٠٠٤) التي تتناول بالتحليل النقدي عينة من عناوين الصحف العربية والإنجليزية، ودراسة منديا أحمد Ahmed (٢٠٠٧) التي تتناول بالتحليل النقدي لغة الصحف العربية والإنجليزية.



ودراسة أحلام الخطابي Khattabi (٢٠٠٨) التي تتناول التجميل والتقييح والكلام الزخرف المضلل doublespeak في المؤتمرات الصحفية، ودراسة منى سعد Saad (٢٠٠٨) التي تتناول الاستجابات البرلمانية المصرية من جوابها النحوية والدلالية وما يتعلق بتنظيم خطاب الاستجواب interpellation إجمالاً، ودراسة برهومة (٢٠٠٨) التي تتناول دور لغة السياسة في تكريس الصور النمطية بين الغرب والشرق، وصراع القيم الحضارية في زمن الثقافات السياسية، وخطاب الاستعلاء الأمريكي وموقف الآخرين إزاءه.

هذا إضافة إلى دراسات مهمة تُعرف بالاتجاهات الوظيفية والتداولية كما نجد في كتاب فضل (١٩٩٢) عن بلاغة الخطاب وعلم النص. أما المقالات الصحفية والإلكترونية - على ما فيها مما يعوق الفهم، ناهيك عن الاستساغة - ففيها ترجمة بعض أفكار النحو الوظيفي، وأفعال اللغة، والمبدأ التعاوني، والكمية والنائب، لكنها لم تقارب بعد التحليل النقدي للخطاب، أو تحليل الخطاب السياسي إلا فيما قدر. وتبقى الدراسات الأكاديمية المشار إليها محدودة بحدود أرفف مكتباتها، وحنود من يقبلون على مطالعتها باللغة الإنجليزية.

ليس ضعف الاتجاه النقدي والسياسي في الدراسات اللغوية العربية بمستغرب، بالنظر إلى طبيعة الثقافة العربية التي تؤثر السلامة على الصدام و"الصداع"، وبالنظر إلى مساحة الحرية الأكاديمية المتاحة للباحثين العرب، هذا بالإضافة إلى سوء فهم "النقد" إجمالاً، بحيث يصبح مرادفاً للتفتيش عن العيوب، وإلى ضعف الاتجاه النقدي التحليلي في المنظومة التعليمية العربية، هذا إلى ما يسيطر على كثير من "النوادر" الأكاديمية العربية من قصر "الدراسات اللغوية" على النحو، والصرف، والأصوات، والدلالة، وما إليها، على مستوى المفردات، والعبارات، والجمل، لا النصوص، وكلن الذين يدرسون تحليل الخطاب، والتداولية، والتحليل النقدي للخطاب يهربون من صرامة النحو والصرف والأصوات وعلم المعنى. حقيقة الأمر أن الاتجاهات الوظيفية تنطلق من كل ما سبق من مستويات التحليل اللغوي، ولا تتوقف عنده، بل تتجاوزه إلى البنى الكبرى، والغايات، والمقاصد، والنصوص في سياقاتها، واللغة كما "تداولها" البشر وكما "تداولهم".

## نصوص وتطبيقات

بعض ما يرد فيما يلي تحليل، وبعضه هو أمش على نصوص، وبعضه مسودات تحليل. ولا بد أن نعود فنقول مرة أخرى، قبل النصوص والتطبيقات، إن ما يصدق على النصوص اللغوية يصدق كذلك على النصوص البصرية، ففي الصور استعارات، وتشبيهات، وتكرار، وحذف، وجناس، وطباق، وهكذا.

### (١)

#### دعاء الفرج

"اللهم احرمني عينك التي لا تنام، واكنفني بركتك الذي لا يرام، وارحمني بقدرتك علي، فلا أهلك وأنت رجائي: كم من نعمة أنعمت بها علي قل لك بها شكري. وكم من بلية ابتليتني بها قل لها عندك صبري. فيا من قل عند نعمته شكري فلم يحرمني، ويا من قل عند ابتلائه صبري فلم يخذلني، ويا من رأي علي الخطايا فلم يفضحني، ويا ذا النعم التي لا تحصى أبدا ويا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبدا أعني علي ديني بنشاي وعلي آخرتي بتقواي، واحفظني فيما غبت عنه، ولا تكنني إلى نفسي فيما حضرت. يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة، اغفر لي ما لا يضرك وأعطني ما لا ينقصك. يا وهاب أسألك فرجا قريبا وصبرا جميلا والعافية من جميع البليات وشكر العافية".

#### على سبيل التحليل

الدعاء نوع خطابي ديني يتوجه فيه العبد إلى ربه بطلب المغفرة، أو العون، أو الرزق، أو هؤلاء جميعا، أو ما عداهم. ولكل دعاء سياقاته المختلفة التي تقرر



بمناسبة دينية، أو حاجة إنسانية، أو لحظة حرجة في حياة من يتوجه بالدعاء. يتلخص الدعاء على عقيدة وإيمان بالله أولاً وبقدرته على تحقيق ما يرد في الدعاء. والدعاء أدب وشروط - هي بمثابة مبررات نجاحه في نظرية الفعل الكفة كما تقدم - ومنها الشعور بالافتقار والحاجة إلى الله، والدعاء بما ينفع لا ما يضر. غرر أن لشروط وأدب الدعاء في الإسلام تتجاوز ما نجد من شروط ومفاهيم لفعل الكفة كما ورد من قبل.

من هذه الشروط والأدب ما هو اعتقادي روحي، كالإخلاص لله تعالى، واليقين بالإجابة، وحضور القلب، ومنها ما هو سلوكي أو شعاعي، كالاستقبال القبلة، والتضرع، والخشوع، والرغبة، والرغبة، وعدم الاستعجال، والدعاء في الرخاء والشدة، وتحري أوقات الإجابة، والمبادرة باغتنام الأحوال والأمكن التي هي من مظان إجابة الدعاء، وكثرة الأعمال الصالحة، ورد المظالم مع التوبة، ورفق الأيدي في الدعاء، والوضوء قبل الدعاء إن تيسر، والتقرب إلى الله بكثرة التوكل، والبعد عن المعاصي، وأن يكون المأكل والمشرب والملبس وغيرهم من حلال. ومنها ما هو لفظي، كأن يبدأ من يدعو بحمد الله والثناء عليه، ثم الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - ويختم بذلك، والجزم، والإلحاح في الدعاء، وألا يسأل إلا الله وحده، وعدم الدعاء على الأهل والمال والولد والنفس، وخفض الصوت بالدعاء بين المخافة والجهر، والاعتراف بالذنب، والاستغفار منه، والاعتراف بالنعمة، وشكر الله عليها، وعدم تكلف السجع في الدعاء، والدعاء ثلاثاً، وألا يعتدي في الدعاء، وأن يبدأ الداعي بنفسه إذا دعا لغيره، وأن يتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، أو بعمل صالح قام به الداعي نفسه، أو بدعاء رجل صالح له (بعض ما ورد في تلخيص: الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين: "الدعاء". من موقع <http://www.elafco.com>، بتصرف).

هذه الشروط والأدب، ومعظمها يرقى إلى مرتبة السنن، لأنها وردت عن الرسول صلى الله عليه وسلم، تفسر كثيراً من خصائص النص الذي بين أيدينا، وتحقق له

المسبك، ومنها تكرار المفردات: "صيري" و"شكري"، والبنى النحوية: "أحرمني بعينك التي لا تنام"، و"أكنفني بركنك الذي لا يرام"، و"فرجا قريباً"، و"صيراً جميلاً"، و"على ديني بديناي" و"على آخرتي بتقواي"، وتكرار صيغة "فعل" التي لا تفيد الأمر، بل الرجاء والتوسل والاستعطاف، وصيغة لا تفعل التي لا تفيد النهي، بل الدعاء والالتماس. وترد مرة واحدة: "لا تكني". ويحفل الدعاء بكثك بالطباق، والتقابل، والجناس، والسجع: "نعمه" و"هليته"، و"غبت" و"حضرت"، و"قل شكري" "فلم يحرمني"، و"قل صيري" "فلم يخذلني"، و"تضر" و"يضر"، و"تنقص" و"ينقص".

ومن كمال الخضوع لله أن المتكلم لا يرد في الدعاء إلا مفعولاً به أو لأجله: "أحرمني" و"أكنفني" و"أرحمني" و"أنصت بها علي" و"ابتليتي" و"أحرمني" و"يخذلني" و"راقني" و"يفضحنني" و"أعني" و"أحفظني" و"لا تكني". في المواضع التي يرد فيها ضمير المخاطب الذي يعود على لفظ الجلالة في موقع المفعول به (لا تضره الذنوب) و"لا تنقصه المغفرة" و"لا يضررك" و"لا ينقصك") تنفخ الأفعال جميعاً. ولا يرد المستكلم في موقع الفاعل إلا في مقام التوسل ("أسألك")، أو مجرد التواجد الذي لا يقع قطعه على مفعول به ("غبت" و"حضرت"). أما الألب مع الله فينجلي في ذكر بعض نصه، ومغفرته، وتجاوزته عن المعصية: "فلم يحرمني" و"فلم يخذلني"، والثناء عليه عز وجل والإقرار بقدرته: "بعينك التي لا تنام" و"بركنك الذي لا يرام"، ورحمته وكرمه: "يا ذا النعم التي لا تحصى أبداً". هذا بالإضافة إلى ما تقدم من صيغ نحوية بلاغية تتسجم مع طبيعة العلاقة بين العبد وربّه.



(٢)

## بلاغة إسلامية

### خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع

تشبيه: لا بد أن أولئك هنا أن التعامل مع خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم ليس كالتمتع مع سفر القصص البشرية - وهذا جزء من عقيدة المسلم. لا ينبغي أن تتعامل مع النص بهدف تفكيكه أو نفيه، بل لتعرف على ما فيه من سبك وحيك واستعارات وإشارات وغير ذلك مما ورد في متن هذا التيسيط. وليس مطلقاً ممن لا يؤمنون بما يؤمن به المسلمون أن يتلقوا مع هذا الموقف.

"إن الحمد لله تحمده وتستغفره وتنتوب إليه؛ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهتد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحكام على طاعته، واستفتح بالذي هو خير، أما بعد،

أيها الناس، اسمعوا مني أيقن لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عني هذا في موقفي هذا. أيها الناس، إن نساءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلغت، اللهم اشهد. فمن كانت عنده أمانة فلْيؤدها إلى الذي أتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول رباً أبدأ به ربا عني العباس بن عبد المطلب، وإن نساء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإن مائر الجاهلية موضوعة غير المدانة والمتقية. وانعمت قود، وشبه العدد ما قُتل بالعصا والحجر، ففيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس، إن الشيطان قد ينس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحفرون من أعمالكم. أيها الناس، إنما التسمي زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا، يحثونه عاماً ويحرمونه عاماً، ليؤاخذوا عذة ما حرم الله، وإن

الزمان قد استدار كهينته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق، السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس، إن لنسألكم عليكم حقاً، وإن لكم عليهم حقاً، لكم عليهم أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بأنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعن فإن الله قد أن لكم أن تفضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإما النساء عندكم عوار لا يمكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً. أيها الناس، إنا المؤمنون إخوة فلا يحل لأمرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتاب الله، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لأتم، وأنم من تريب، فكرمكم عند الله اتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قلوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية، في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللماهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صدقاً ولا عدلاً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(الحمد للفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص ص ٤٨٧-٤٨٨).



الزمان قد استدار كهينته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق، السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس، إن لنسألكم عليكم حقاً، وإن لكم عليهم حقاً، لكم عليهم أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بأنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعن فإن الله قد أن لكم أن تفضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فطعنكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإما النساء عندكم عورات لا يمكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً. أيها الناس، إنا المؤمنون إخوة فلا يحل لأمرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

فلا ترجعوا بعدي كفراً يضرب بعضكم أعناق بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتاب الله، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لأتم، وأنم من تريب، فكرمكم عند الله اتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قلوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية، في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(الحمد للفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص ص ٤٨٧-٤٨٨).

الزمان قد استدار كهينته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق، السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس، إن لنسألكم عليكم حقاً، وإن لكم عليهم حقاً، لكم عليهم أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بأنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعن فإن الله قد أن لكم أن تفضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإما النساء عندكم عوار لا يمكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً. أيها الناس، إنا المؤمنون إخوة فلا يحل لأمرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

فلا ترجعوا بعدي كفراً يضرب بعضكم أعناق بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتاب الله، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لأتم، وأنم من تريب، فكرمكم عند الله اتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قلوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية، في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللماهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(الحمد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص ص ٤٨٧-٤٨٨).



## على سبيل التحليل

هذا نصٌ من النصوص المحورية في الثقافة الإسلامية - خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم في آخر عام حج فيه قبل انتقاله إلى ربه عز وجل، في النص ما في جنس الخطبة من فاتحة دينية، واستغفار، وشهادة، ودعاء، وحلال وحرام، وترغيب وترهيب، وشيء من مرد قليل في الحديث عن ربا الجاهلية، وفيها مفردات دينية تتعلق بالمعتقدات، والعبادات، والقباسات من القرآن الكريم، وفيها أحكام وتعاليم تتناول حرمة النماء والأشهر الحرم، والوصية بالنساء، والموارث، والتمسب، والتقوى كعلامة فارقة، والحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوج والزوجة، وبين المؤمنين كافة، وتأكيد على المساواة بين البشر إلا فيما يميز بعضهم من بعض من تقوى.

سياق النص هو مكانه في مكة المكرمة، وزمانه حجة الوداع، والعلاقة بين المتكلم والمتلقي هي علاقة سمع وطاعة وإقتداء، ولعل هذا يفسر ما نرى في النص من سلطة التقرير، والتعليم، والأمر والنهي، وهي سلطة إيجابية، ليست من قبيل القمع، أو القهر، أو التلاعب بالعقول، لأن غايتها هي صلاح أمر المسلمين من خلال طاعة الله عز وجل، وتركية النفس، وتحقيق العدل، وعصاة الأرض.

لما أدرك النص لتحقيق غاياته البلاغية والتبليغية فسترد الإشارة إلى بعضها فيما يلي، وقد تقدم الكلام عن جنس النص وموضوعاته، غير أن من الصور الوقوف على نغمة الخطبة أو إيقاعها إلا من خلال ما نجد من نص مكتوب، وما نعرفه عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن سياق الخطبة كما نرى فيما يلي من ملاحظات عبارة على نص مهم.

تشتمل الخطبة فاتحة دينية تقليدية توارثها الخطباء والدعاة المسلمون عن الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى أصبحت قلباً خطابياً ثيراً، وفيها الحمد والاستغفار، بما يرمح الانتماء إلى الله، وفيها القسمة الخالدة بين المهتدين والضالين، والشاهدين

بما يرسخ الانتماء إلى الإسلام، ثم النصيحة بتقوى الله وطاعته. يلي ذلك لفت انتباه المتلقي من خلال النداء "أيها الناس"، والأمر "اسمعوا مني"، وتحديد غاية غايات الخطاب - "ليبين لكم" - وتبرير أهميته - "لعل لا أفكركم". ثم ترد مجموعة من التعبيرات الإشارية المهمة يتركز فيها اسم الإشارة "هذا" للتقريب، فيحول إلى وقت حج الرسول صلى الله عليه وسلم، وإشارة إلى المستقبل على سبيل الظن "لعل لا أفكركم...". تكتسب التعبيرات الإشارية دلالتها هنا من معرفة المتلقي ما تشير إليه والأرضية الاعتقادية التي يقف عليها خلف الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي حرمة ما ورد في الخطبة، حرمة الزمان والمكان المشار إليهما.

وفي النص من التوازي التركيبي ما يوحي بتبادل الحقوق والواجبات في "لكم عليهن" و"لهن عليكم"، وكثير من التكرار كما في "ألا هل بلغت...". للتحقق من بلوغ الرسالة، و"أيها الناس" للتنبيه، وفيه اقتباسات من القرآن الكريم منها "إنما النسيء زيادة في الكفر" و"إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض". تحتشد في الخطبة كذلك الجمل التقريرية اليقينية وكيفيات الإلزام من أوامر وفروض وتعاليم وتحليل وتحريم، بما يناسب المقام ويناسب علاقة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسلمين ويناسب أغراض الخطاب وغاياته.

في الخطبة ما يبرز الإلحاح على تحقيق غاياتها من حيث زمتها قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وموضوعاتها التي لا يصلح بغيرها أمر المسلمين. من هنا كان التكرار وحشد الأحكام والتعاليم والوصايا والاستشهاد بالله والشهادة عز وجل على أداء المهمة في العلاقة التواصلية - علاقة الوحي ثم التبليغ - التي ينطلق منها النص بين المسلمين وخالقهم ورسوله صلى الله عليه وسلم.



## عن الإقناع في البلاغة الإسلامية

"لماذا لم تتطور في البلاغة الإسلامية نظرية متكاملة في الإقناع؟  
ربما لأن الوحي هو مدار الإقناع وهو معيار ما للكلام أو الخطاب من تأثير في تلك البلاغة. إن الرسالة السماوية، وهي كلام الله المعجز، تحقق الإقناع، لا من خلال بنية بلاغية إقناعية، أو من خلال بلاغة خطيب متمرس، بل من خلال ما فيها من كمال التوحد والانسجام بين الحق والجمال. وإذا لم يتحقق الإقناع، فليس الخلل في تلك الرسالة، بل في أداة تلقيها، ألا وهي القلب، فارتسالة قد نزلت في أكثر أشكال البلاغة كمالاً واكتمالاً. ونعني بها القرآن، وهو ما يشير بوضوح إلى أن التقصير عن إثراء كلام الله مرده إلى عجز الفرد أو المجتمع عن السمع أو زهدهما فيه.

إن العجز عن سماع كلام الله من العلامات التي تميز الشياطين وأهل النار من البشر: "... لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها..." (الأعراف، الآية ١٧٩).

وعندما يستجيب البشر لكلام غيرهم أو لكلام الله، دون سلبية أو تقصير، فإن فعل الاستجابة يختص به السامع، على معنى أن السمع أو الاستماع ليس مجرد استقبال سلب تلقائي، بل هو نوع من الفعل: فإسمع أو استمع، إن لنا الفعل. لهذا السبب، لا تتطلب الرسالة السماوية في العقيدة الإسلامية خطيباً بليغاً، بل مستمعاً واعياً يستطيع أن يسمع ما يصل إليه من كلام الله، فيبلاغه الرسالة وكمالها (وعجزها بما يستعصي على الترجمة تكمن في ذاتها لا في بلاغة من ينقلها أو يبلّغها...) (هيرشكيند Hirschkind، ٢٠٠٦، ص ٥٠).

يؤكد هذا الاقتباس على حقيقة مهمة، وهي أن الاستماع فعل متكامل، وربما يتجاوز في الأهمية في بعض المواضع. وهو هكذا خصوصاً في ثقافة صوتية في كثير من تجلياتها. ويثير الاقتباس كذلك عدداً من القضايا تتعلق بالفروق الجوهرية بين الإقناع الذي يقوم على الاستشهاد والاقتباس، والإقناع الأرسطي الذي يقوم على المحاجة واستثارة مشاعر من قبيل الخوف أو الشفقة pathos وتقديم الدليل العقلي logos والنأسيس لمصادفة المتكلم ethos. لا ينبغي أن نقع في أشرار القولية التي تصنف الثقافات إلى عقلية مادية وروحانية عقلية، وتنحاز إلى بعضها دون بعض، فتقصي الوحي لحساب العقل - وكأنه يعجز عن مخاطبته - أو تُسفه العقل لحساب النقل. وهذا مقل لا قيل لمقام التبسيط الراهن بالإحاطة به من جميع جوانبه.

(٣)

## خطابة سياسية إسلامية

من خطبة لأبي العباس السفاح بالشام

"خطب أبو العباس عبد الله بن محمد علي، لما قُتل مروان بن محمد، فقال: أتم تر إلى الذين بذلوا نعمة الله كفراً وأخلوا قومهم دار البوار، جهنم يصلونها ويمنون القرار، تكصن بكم يا أهل الشام آل حرب، وآل مروان، يتمسكون بكم الظلم، ويتهورون بكم مباحض الزكى، يطؤون بكم حرم الله وحرم رسوله، ماذا يقول زعماءكم غدا؟ يقولون: ربنا هؤلاء أضلونا فأتهم عذبا ضحقا من النار. إذا يقول الله عز وجل لكل ضعف ولكن لا تعلمون. أما أمير المؤمنين، فقد انتصف بكم الثوبة، واغتفر لكم الزكوة، وبسط لكم الإقالة، وعاد بفضله على نقصكم، ويحلمه على جهلكم، فليفرح رؤسكم، ولتطمئن به دياركم، ولتعظم مصارع أولئكم، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا" (العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص ٥٠٨).

### على سبيل التحليل

لا بد أن يتلصق تحليل خطاب كهذا على وصف مقصود للمسياق بما يشمل المتكلم، أول خلفاء العباسيين، والقتيل - مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية - وأهل الشام وآل حرب وآل مروان، وما كان يجمع أو يفرق بين هؤلاء جميعا، وهذا الحضور الذين توجه إليهم المتكلم بالخطاب، والظروف السياسية والاجتماعية التي أحاطت به. لما شابت الخطاب فتشمل التوبيخ - "بذلوا نعمة الله كفرا" - ثم الإيلاج بالعمو - "أما أمير المؤمنين ... اغتفر لكم الذلة ..." - والدعوة إلى الاعتبار - "ولتعظم مصارع أولئكم". وفي الإيلاج بالعمو جملة أفعال كلامية: قبل تسويتكم وغفر زلتكم وأقال عثرتكم وتفضل عليكم وقابل جهلكم بحلمه، وفي الانتصاف والاعتذار مجاهدة ربما لأن انتصاف كان عظيما.



في النص ثلاثة اقتباسات من القرآن الكريم، لا ترد ناطقة أو مقحمة، بل جزءاً من نسيجه. وكأن المتكلم يريد أن يقول إن الآيات المقتبسة قد نزلت في أهل الشام ومن "تكس بهم" من آل حرب وآل مروان: "ألم تر إلى الذين بذكوا نعمة الله كفراً...؟"، و"ربنا هؤلاء أضلونا فاتهم عذاباً ضيقاً من النار"، و"فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا". إذا كانت القاعدة التفسيرية الإسلامية تقول إن العبرة بصوم اللفظ وليست بخصوص السبب، فإن ما أراد المتكلم لجمهوره في ذلك السياق هو التسليم بأن ما وقع منهم ومن آل حرب وآل مروان يندرج تحت تبديل "نعمة الله كفراً"، وغير ذلك مما يرد في بقية الاقتباسات. (ويبدو أن هذه الوسيلة من سمات كثير من الخطب السياسية، فقد شبه يوش صدام بهتلر، وشبه حسن نصر الله إسرائيل بفرعون وحاشيته، كما نجد في خطابه في تطبيق لاحق في هذا التبسيط)

ليس هذا الخطاب الموجز فريداً في باب توظيف المناسبة والحكم القرآن الكريم لتحقيق غايات بلاغية سياسية في العالم العربي والإسلامي. حتى الذين لا يطبقون ما فيه من أحكام يلونون به ليضمنوا تعاطف عامة المسلمين. أليست الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وسيلة من أكثر وسائل الدعاية الانتخابية نجاعة في العالم الإسلامي؟ لقد ظلّ الدين سلاحاً مؤثراً فعّالاً في يد الساسة والحكام بطول العالم العربي الإسلامي وعرضه، في ماضيه وحاضره، يستعملون به القلوب، وربما يتلاعبون بالعقول، ويضمنون تأييد الرعية، ويجيشون به الجيوش، ويستزلون به نصر الله، حتى وهم يتقاتلون فيما بينهم.

وفي نصّ أبي العباس ثنائيات لافتة تميز معسكر أمير المؤمنين - حيث الحكمة، والإيمان، والتحيز إلى جانب الله، والعفو، والكرم، والفضل، والحلم - من معسكر الخارجين من أهل الشام ومن ضلّهم من آل حرب وآل مروان - حيث تكس العهد، والتعمير، والتسقيع، والتهور، والاجترار على حرمة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والتضليل، والضلال، والنقص، والجهل. تتحقق القطيعة أو التناحية في الخطاب من خلال التناقض والمصع بين مفردات الانحراف عن جادة الطريق والخروج على

الحكم في "يتسكعون" و"يتهورون" و"يطؤون" و"أضنون"، ومفردات العفو والفضل والحلم في معسكر أمير المؤمنين، وما بين هاتين المجموعتين من المفردات من تقابل، بين "الزلة" و"غفر"، وبين "فضلة" و"تقصم"، وبين "حنمة" و"جهلكم"، وهكذا. ويبقى على من ضلوا وجهلوا أن تعظمهم مصارع أوليهم - وفي هذا استعارة فعل بشرية هو الوعظ والتعظيم للكلام عن المصارع - فما أشبه القيلة بالبارحة!

سوف نظل تلك الثنائيات سمة جوهرية من سمات الخطاب السياسي، وليس من غايات تحليل هذا النوع من الخطاب استخلاص أحكام تنحاز إلى طرف على حساب غيره. من حق من يدرس الخطاب السياسي أن تكون له تحيزاته وميوله، فهو في نهاية الأمر بشر، لكن ليس من وظائفه أن يقضي بين أطراف الصراع. إن غاية التحليل والدراسة في هذا الصدد هي الوقوف على ما في الخطاب من صراع وجدليات، وطرائق التعبير عنها، ووسائل تبريرها، وما يمارس الخطاب من تجميل وتقييد، وإسباغ شرعية على النفس وتجريد المناوئين منها.

### الدعاية في التراث الإسلامي

بلغت برنارد لويس Lewis (٢٠٠٤) النظر إلى العلاقة الاشتقاقية بين مفردات "الدعاء" و"الدعوة" و"الدعاية" و"الإذاعة" و"المذعي" و"الذعي" و"الداعية". حيث ترد جميعها من أصل واحد هو الفعل الثلاثي "د ع و"، غير أنه - وهو المستشرق المشهور - يعرف أن بعض هذه المفردات سائب مستهجن، وبعضها مقبول وإيجابي، على أساس ما يتحقق للمتلقي من خير أو شر، وما يعد إليه المتكلم أو الكاتب من صدق أو تحليل في الوصول إلى غايته البلاغية. بعد هذا التأسيس، يخرج المستشرق على مراحل شتى في تاريخ الدعاية في الثقافة الإسلامية، فيوقوف عند الدعاية لبني العباس في مواجهة بني أمية، وأغراض الفخر والهجاء والمنيح في الشعر العربي، وفيها ما فيها من دعاية للشاعر وقبيلته، وتنويه للخصوم والمناوئين والمنافسين، وتمجيد من يحظون بالمنيح. وهذه أصول مهمة في البلاغة الغربية تستلزم وفقات تداولية عميقة مستفيضة.



### من أصداء السيرة الذاتية لنجيب محفوظ

"في صباي مرضت مرضاً لازمني بضعة أشهر. تغير الجو من حولي بصورة مذهلة وتغيرت المعاملة. ولت دنيا الإرهاب، وتلفتني أحضان الرعاية والحنن. أمي لا تفارقتني وأبي يمر عليّ في الذهاب والإياب. وأخوتي يقبلون بالهدايا لا زجر ولا تعيير بالسقوط في الامتحانات. ولما تماثلت للشفاء خفت أشد الخوف الرجوع إلى الجحيم. عند ذاك خلق بين جوانحي شخص جديد، صممت على الاحتفاظ بجو الحنان والكرامة، إذا كان الاجتهاد مفتاح السعادة فلا اجتهد مهما كلفني ذلك من عناء، وجعلت ألب من نجاح إلى نجاح، وأصبح الجميع أصنفاني وأحباني. هيهات أن يفوز مرضى بجميل الذكر مثل مرضي" (نجيب محفوظ: ذين قديم من أصداء السيرة الذاتية، ٢٠٠٦).

### ظروف وأحوال

هذه شذرة محكمة بليقة من شذرات أصداء سيرة نجيب محفوظ الذاتية. تنكس الشذرة على الطباق بين حالين والثرائف بين عناصر كل من الحالتين، بين "الإرهاب" و"الزجر" و"التعيير بالسقوط في الامتحانات" و"الجحيم"، من ناحية، و"الرعاية" و"الحنن" و"لا تفارقتني" و"يمر عليّ" و"الهدايا" و"السعادة" و"النجاح"، من الناحية الأخرى. إشارتان زمنيتان تلفتان القارئ إلى لحظتين فارقيتين في حياة المستكلم في النص - "في صباي" و"عند ذلك". لما الحدث فهو المرض الذي لازمه شهيراً - "مرضت". ما تزامن مع المرض من سلوك ودود رحيم ورعاية وعناية - "تغير الجو من حولي" - أنتجت وعياً وإدراكاً - "خلق بين جوانحي شخص جديد" - وعزماً -

"صنعت على الاحتفاظ بجو الحنان والكرامة" - وخبرة نصيح منهج حياة - "إذا كان الاجتهاد مفتاح السعادة فلأجتهد مهما كلفني ذلك من عناء" - ثم فعلاً إيجابياً يتكرر حتى يصبح عادة - " وجعلت أثب من نجاح إلى نجاح".

لقي الصبي صداقة ومحبة هذه المرة أيضاً لكن لأسباب مختلفة. في العرض كان الصبي موضع عطف وشفقة، ولم تكن له يد أو اختيار - بل كان مجرد مريض منافع يقع عليه فعل الرعاية ويحظى بصنوف العطف - "تلقفتني"، "لا يفارقتي"، "يعرّ علي"، "يقبلون بالهدايا (عليه)". حين يتحقق الوعي، يصبح الصبي قادراً على اتخاذ القرار، بل على تحقيق النجاح مرة إثر أخرى، في نشاط وحيوية وريادة - "أب"، وفي "الوثب" استعارة السلم الذي يرقى إلى أعلى، أو الطريق الذي يحفل بالصعاب والعقبات، وكنية عن القوة والحيوية. فلماذا لا يذكر المرض بكل الخير إذا كان قد حقق الوعي وامتلك القدرة على الفعل بسببه؟ غير أن المرض لم يكن هو العامل الفاعل، بل كانت الرعاية والاهتمام وقد حلا محل "الإرهاب".

لا بد أن اختيار نجيب محفوظ "الشجرة" نواة لأصداء سيرته الذاتية كان مقصوداً. والحال هكذا في عموم الخطاب الإنساني حيث يصبح الإطار frame الذي ينقل التجربة والخبرة الإنسانية جزءاً مهماً منها وأداة مؤثرة في نقلها. لكن محفوظ أراد لخبراته وخلاصة تجربته أن تنتقل إلى المتلقي في نصوص مرقرة مكثفة تحفل بالرمز والمجاز وتتعدد فيها طبقات المعنى. ومن اللافت كذلك تحوّل العلاقات في هذا النص القصير المحكم من إرهاب وقهر إلى رعاية وعضاية. ليس هذا كل ما يمكن أن يقال عن الناظر framing أو تحوّل العلاقات والاحييزات والمواقف خلال التفاعل اللغوي footing - وهما مفهومان بالغا الأهمية من ميراث رافيتز جوفمان في التحليل النقدي للخطاب، إذ يشير الأول إلى الزاوية التي ينطلق منها الخطاب والإطار الذي يختاره منتجه من جدّ أو هزل أو سخرية أو غير ذلك، ويشير الثاني إلى تبديل الأحوال والعلاقات أثناء التفاعل اللغوي وما ينجم عن ذلك من تحولات في المفردات والأسلوب وغير ذلك، بل وما تلعب اللغة من دور في تجسيد هذه التبدلات والتحولات.



## خطاب الكرة

### إعلام المسير ومتعب والزمالك!!

عبدالعزیز أبو حمرة، المصريون، ٢ يونيو ٢٠٠٨

لم يكن مسئولوا الإسماعيلي فقط هم الذين اختلفوا حرمة معسكر المنتخب الوطني قبل المباراة الهامة أمام الكونغو، بل فعل ذلك أيضاً عبر الهاتف فتاة تكتب في أحد المواقع الجماهيرية الإلكترونية، لتجري عشية اللقاء حواراً قل فيه عبد متعب مهاجم الأهلي كلاماً في حق نادي كبير لا يجوز من لاعب بنادي كبير وبالقبحه يفترض أنه لاعب كبير. وإذا صدق ما كتب على لسان متعب من أن الحالة الوحيدة التي يمكن أن ينتقل فيها الزمالك هي أن يصاب بمرض من الجنون وفقدان الوعي، فإن ذلك يشكل إساءة مباشرة للزمالك تضاف لإساءات كل من هب ودب للفتنة البيضاء في العهد الميمون للضارب بالذئب. ولا أدري ما نذب الزمالك، وما فائدة هكذا تصريح وماذا سيضيف كلام ينضح بالغباء للاعب ينتمي للنادي الكبير الذي يجب أن يعاقب لاعبه صغير العقل مثلاً يجب على المسؤولين بالمنتخب اتخاذ إجراء ضد متعب على أساس أن هذا الحوار - إن صدق - تم ليلة مباراة الكونغو. وإجمالاً فإن دخول الجنس اللطيف من المشجعات إلى غمار الإعلام الرياضي الإلكتروني الجماهيري بطرح علامات استفهام عديدة. وذكرني حوار المتعب باشا بتصريح كان الوحيد والأحد لشوقي باشا عندما كان يجري الاختبارات في نادي ميلتيريه الإنجليزي الصيف الماضي، وهو التصريح الذي نشر هو الآخر في موقع من المواقع الجماهيرية، وكتبته أيضاً فتاة بدرجة مشجعة.. والمعنى أن اليائسين لم يرد إلا على فتاتين!!.. وحتى لا يتهم أحد العبد لله بأنه معادي للأثوية، فما أضع تحته خطأ هو

التداعيات السلبية المحتملة لتحول المشجعات إلى إعلاميات مسير كحل مؤقت لضمان رد لاعب (روش) في زمن النجومية المطلقة مثل متعب على الهدف.. والعبد فله يطالب حكام النادي مدير الكرة بالأهلي بالتحقيق في الواقعة أو حتى الاستفسار من لاعبه عن صحة هذه التصريحات الغبية.. والعبد يطالب حسن شحاته بتفسير حول ادلاء لاعب في المنتخب بتصريحات ضد نادي منافس (المشجعة) عشية لقاء دولي هام ظل فيه اللاعب طيلة ٩٠ دقيقة تائه يبحث عن الكرة بعيدا عن المكان الذي تتواجد فيه الكرة!!.. والحقيقة أن الإعلام الإلكتروني الجماهيري المحسوب على الأندية ليس فقط الذي يفتح أبوابه للمشجعات المسير، فالكثير من أصحاب الأقلام الكبيرة تحولوا كذلك إلى (إعلاميين بدرجة مشجعين) يروجون للنصب والتغيب، ويأت لا ترى أعينهم إلا لون واحد، فلا كلمة حق ولا منطق ولا بصيرة تحكم ما يقولون، وأصبح الوسط الكروي يقص بمثل هذا النوع الرديء من أصحاب الأقلام الحنجورية التي لم تفلح أساليبهم الرخيصة إلا مع حفنة من المغيبين.. كفاتنا الله وإياكم شر أصحاب أقلام المشجعين.. المسير والكبار!!

كلمة أخيرة: الخجل فضيلة.. يجهلها أصحاب الأوجه المكشوفة..

### على سبيل التحليل

في هذه المقالة، عدد لا بأس به من الأخطاء النحوية والإملائية، والتركييب التركيبية التي يجد القارئ تحت بعضها خطوطا، وفيها ليس بين "الخجل" و"الحياة"، لأن الخجل ليس فضيلة على الإطلاق، بل هو تأخر في النمو الاجتماعي والنفسي. لكن الغاية هنا ليست التصيد، بل التعليق على بعض جوانب "خطاب الكرة" football discourse وما يتصل به من خطاب إعلامي وجماهيري في ضوء بعض ما ورد في التبسيط من مفاهيم ونظريات.



سياق المقالة - التي تأتي في أعقاب مباراة مصر ضد الكونغو في التصفيات المؤهلة إلى كأس العالم في جنوب إفريقيا عام ٢٠١٠ - هو "الوسط الكروي" في مصر، وما يحفل به من صراعات، وتصريحات، وتصريحات مضادة بين نقاد الفرق المتصارعة، ولاعبها، وجمهورها.

من المناسب، ونحن نتناول هذا النص الذي ينتمي إلى خطاب الكرة وما يتصل به من خطابات، أن نتناول السبك والحبك وطرافتهما، والاستعارات المبهمة، والتجميل والتفويض والمربع الأيديولوجي، وتعبير الكياسة والتأنيب وتقلضهما.

لما السبك فيتحقق باستخدام أدوات الربط وتكرار عدد من المفردات والعبارات - "بعد ذلك" وتكرار "الكرة" على ثقله في "يبحث عن الكرة بعيداً عن المكان الذي تتواجد فيه الكرة"، و"كبير" (مقاماً ومنزلة لا سناً) - والجناس - "المغيبين" و"التغييب"، و"يانا" و"البائسين" - والطباق - "الخلج" و"المكتوفة" - والحقول الدلالية - "أنثوية" و"روش" و"مسيل"، إضافة إلى المفردات الكروية. والمقالة لا يعوزها الحبك، على ما فيها مما يمكن أن نتحفظ عليه، فهي تمهد الطريق بلفت الانتباه إلى "اختراق" - اختراق "حرمة" معسكر المنتخب قبل لقاء دولي مهم، واختراق أعراف رياضية أخلاقية. ثم تزوي المقالة ما حدث، وتلجأ إلى التناص باقتباس بعض ما قال اللاعب تحقيقاً لقاعدة الصدق وتجنباً لمتاعب الاتهامات غير المبررة. بعد المرء يأتي التقييم، أو توضيح موقف الكاتب مما حدث، وهو موقف معارض كاره، وحتى لا يبدو الموقف "شخصياً"، يسوق الكاتب تبريره خطورة ما حدث بينما كان الفريق القومي في "حرمة" يتأهب للقاء دولي مهم في تصفيات كأس العالم، حلم "الأمة" وغايتها الكبرى - وكأنها "فتنة" في زمن "حرب"، الاختراق وإثارة الفتنة في مثل هذه الظروف جريمة لا ينبتس المسكوت عليها - وهي ليست الحالة الوحيدة الفريدة فقد سبقتها فتن أخرى مماثلة. من هذا المنطلق، تصبح "مطالباً" الكاتب الصحفي منطقية، وهكذا تتحقق لفعل المطالبة مشروعيتها وربما نجاحه. في النهاية يلاحظ الكاتب أن الوسط الكروي "إجمالاً" يشكو من التعصب والتحيز وما ينجم عنهما من تخيب وعمالة وقلم، ثم الدعا إلى الله أن يكفي الكاتب ومن أزره من القراء شر الأقلام المتحيزة الداعرة

# 1

## عن خطاب الكرة

من تداعيات الحداثة وما بعدها، وربما من مبرراتهما، انهيار الحدود بين "الخبوي" و"الشعبي" أو الجماهيري، بين المتن والهوامش، بين المركز والأطراف أو "الضواحي" الثقافية واللغوية - بين اللهجات المحلية واللهات الرسمية، بين الأقليات والأغليات، في غناء "شعبان عبد الرحيم" عن القضية الفلسطينية ولزمة "رسوم المسينة" وغيرها، وفي "استلهاهم" إحدى أغنيات "أم كلثوم" في فيلم لـ"محمد سعد"، وهكذا، وفي تدخل الأنواع الأدبية وتشربها بالحياة المعيشة. غير أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد حلت الهوامش محل المتن، وأصبح "الجماهيري" يحظى بالاهتمام والحفاوة والتغطية والمتابعة والتحليل والتطبيق، وانزوى "الخبوي" إلى أركان الحياة وهوامشها. قارن مثلاً بين التغطية الإعلامية، والتحليل، والتطبيق، والقاءات، والمؤتمرات الصحفية، والأغنيات، والشعارات، والمسيرات التي تصاحب مباراة مهمة في كرة القدم أو "حفلة" لمطرب أو مطربة، وبين ما يصاحب مؤتمراً علمياً أو مناقشة رسالة أكاديمية.

لم يعد هناك بدّ لدراسات الخطاب من أن تعترف بالتحول دون أن تتخلى عن تشغالاتها التي تراها مهمة، لأن التحليل النقدي للخطاب ليس نخبوياً بطبعه. وفي الاعتراف لا بد أن تبقى تلك الدراسات بعيدة عن أشراك التعصب والتصنيف والالتهام، لأن من يهرولون وراء الرياضة والفن بشر كالبشر، ميولهم ليست كميوننا، ولا أولوياتهم كأولوياتنا، ولا قيمهم كقيمنا. إذا جاز لمن ينشغل بالثقافة والفكر أن يحتقر من ينشغل أو يشتغل بالفن أو الرياضة وما يتصل بهما، فمن حق أهل الفن والرياضة وما يتصل بهما أن يتهاكموا على أهل الفكر والثقافة، وكل أسبابه وأدواته وأسلحته، وفي الحرب كل شيء مباح.



الموتورة، ثم الحكمة الختامية عن فضيلة "الخجل" التي لا يعرفها أصحاب "الوجوه المكشوفة".

ها هو الكاتب يقف إلى جانب الفضيلة والخجل، وينحاز إلى القيم الدينية، يدافع عن "حرمة" المنتخب قبل اللقاء المهم، ويتحدث بلسان "الحق" و"المنطق" و"البصيرة" وهو يطلب بحساسية من آثار الفتنة. من هذا المكان، يكتب ضد "كل من هب ونبأ" في "العهد الميمون" "للضارب" "بالدفا"، ضد كلام "ينضح بالغباء"، ولاعب "صغير العقل" - "المتعب باشا" الذي "تأذ" طوال المباراة المذكورة - و"سوقي باشا"، وهما لا يجيبان إلا الفتيات، وضد "تصريحات غبية"، و"إعلاميات مسيرات" و"مشجعات مسيرات"، و"إعلاميين بدرجة مشجعين"،

لا يعرفون "الحق" ولا "البصيرة" ولا "المنطق"، لا تصلح أساليبهم إلا مع "المنغيبين". لا يتوقف الكاتب الصحفي عند ثنائية الخير والشر، الحق والباطل، الزواج الشرعي وزواج المسيرات، وتجميل "الأنا" مع تقبيح "الأخر"، بل يتجاوز ذلك إلى تكريس خطاب الكرة بوصفه "كلاما كبيرا" يليق أن تستعير له "الحرمة" و"المسيرة" و"التغيب"، وأن تعبر من خلاله عن معتقداتك ومواقفك الفقهية من زواج المسيرات - ومن الواضح أن الكاتب لا يعتبره زواجا شرعيا، بل مجرد زواج مؤقت لتحقيق غايات دنيوية مؤقتة، تشبه استخدام فتيات لجذب نجوم الكرة المعروفين "بالروشنة" - مع الاعتذار لمجتمع اللغة العربية - وإقناعهم بإجراء حوار.

ومن نفس المكان، وحتى يتحقق التجميل والتقبيح يعدد الكاتب - "العهد لة"، على سبيل التواضع - إضافة إلى ما سبق، إلى تأكيد براعته من معاداة الأنثوية - ولعله يقصد feminism - وتأكيد أن ما يقول هو "الحق" و"الحقيقة" إذا "صدق" ما ورد عن اللاعب. في الاتجاه المعاكس، يعدد الكاتب إلى تنويه اللاعب، وإعلام المسيرات، ونقد التغيب، و"الأقلام الحنجورية"، على سبيل الاستعارة، فلا نجد إلا الحد الأدنى من الكياسة على سبيل السخرية في "العهد الميمون" و"باشا"، والتعظيم وتفاخي الصدام في "الضارب بالنفأ"، والتكريم في "القلعة البيضاء"، التي تشير على سبيل الاستعارة إلى نادي الزمالك، خصم النادي الأهلي الذي ينتمي إليه اللاعب "متعب".

نقد أصبحت الهوامش والفروع، بل فروع الفروع، تشغل الناس عن الأصول والقضايا التي تستمر بها حياتهم. لن نقارن بين استقبال رسمي لفريق كرة قدم فاز ببطولة وبين استقبال عالم كبير حصل على جائزة علمية عالمية مرموقة، لأن المقارنة تُفسر عادة على أنها نوع من الحمد والغيرة من قبل المشتغلين بالثقافة. فما معنى أن ينشغل الناس بالفن وبالكرة عن مشكلاتهم الأسرية، وعن أعمالهم ودراساتهم، وتطوير مهاراتهم وقدراتهم، وتنمية ملكاتهم، وعن مشكلات أبنائهم وبناتهم، و"رغيف الخبز" الذي عزّ ونذر، وانهيار التعليم، وانتشار الفساد، وتراجع الجامعات العربية في وجه غيرها من جامعات، شرقا وغربا وشمالا وجنوبا؟ من اليسر أن نقع في شرك الخطيئة هنا، لكن السؤال مشروع ومطلوب.

ومن اللافت أن "الفن" و"الكرة" - وقد أصبحت لهما مؤسساتهما، ومنظمتاهما، وقوانينهما، وشراحيهما، ومحلّوهما، ومؤرخوهما، ومنظروهما - قد تجاوزا مرحلة الهزل أو الهواية والتساية إلى مرحلة الاحتراف والمهنية. ولعلنا نلاحظ التحول المنتظم في كل الثقافات على نطاقات محلية وعالمية في التعامل مع الفن والرياضة بوصفهما "حيا" لا يرضاه الأسر "العريقة" أو "احترافا" أو "مضيعة للوقت"، إلى أمر واقع على الأسرة والمحيطين التكيف معه، ثم إلى مصدر سعادة وأموال وشهرة، وفي النهاية إلى نماذج يحتذىها الصغار ويحلمون بها، إلى "طريق إلى المجد" وسما من "النجوم" و"الكواكب" وأرض تحفل بما لا حصر له من "أصنام" - والكلمة ليست لي، بل من البرنامج الأمريكي الشهير American Idol - تتفوق في شهرتها ونفوذها وتأثيرها وبريقها وثروتها على "اللات" و"العزى" و"هيل" و"مناة"، و"يغوث" و"يعوق" و"تسر"، و"أفروديت"، وغيرها ممن سكن جبال الأوليمب، فكيف لا تتفوق على مفكر أو باحث أو مدرّس؟

هناك محاولات للتوفيق أو التوافق ولتضييق المسافات والتقريب بين المتنوع والهوامش، وأخرى لرد الاعتبار إلى الهوامش التي كانت متونا وخسرت البشرية كثيرا جرّاء تهميشها. نجد ذلك في المبادرات المهمة لتقديم الثقافة "الرفيعة" من نقد



شعر ورواية وقصة ومسرحية وغيرها عبر قنوات فضائية ومواقع إلكترونية، وفي الجوائز التي أصبحت تمنح للمفكرين والكتاب والمثقفين. وهناك محاولات توفيق، أو تنسيق، نجدها في استخدام بعض - "بعض" - الدعاة لأساليب قديمة وتمثيلية، وربما غنائية، في خطبهم الديني، ونجدها في تقريبهم وارتباطهم بأهل الفن والرياضة والإعلام. وهناك محاولات جادة - غير أنها نادرة وليست راجعة - لاستخدام الفن والرياضة لتحقيق غايات "نبيلة" كانت منوطة بغير أهل الفن والرياضة - كجمع التبرعات والدعوة إلى التعاطف مع "المفهورين" و"المظلومين" في الأرض.

لقد أصبحت كرة القدم محور انشغال الملايين، وتشجيعهم، وصخبهم، وولعهم، وجنونهم أحياناً، وأصبحت لها صحف ومجلات، ومواقع إلكترونية، وطوّرت خطابها الخاص - "خطاب الكرة" أو "خطاب كرة القدم". في هذا الخطاب استعرات تنتقل من مجال الحرب والصراع والقتال إلى مباريات كرة القدم، وغيرها من أنواع الرياضة، كما نجد في "مصكر"، و"خط الدفاع"، و"الهجوم"، و"الانتظية"، و"الاختراق"، و"النقل"، و"خطة هجوم"، و"خطة دفاع"، و"لك حصون الخصم"، و"تكتيكة منوية"، و"الهدفا"، و"المرمى"، و"الحارس"، و"ضربات" "الزاوية" و"الجزاء"، وغيرها، والهجوم "لشرس"، و"الدفاع المحكم"، و"الحائط الدفاعي"، و"هجوم خاطف"، و"هجمة مرندة"، و"النصر"، و"الهزيمة"، وهكذا. كما أصبحت كرة القدم تغذي غيرها من الخطابات باستعاراتها المحورية، كما نجد في "البطاقات الصفراء" و"الحمراء" التي تشهرها الزوجيات في وجوه أزواجهن في الرسوم الكاريكاتيرية، وغير ذلك من تعبير تتسلل من الكرة إلى العلاقة الزوجية في "مختلفا" جوانبها.

كذلك أصبحت الرياضة - خصوصاً كرة القدم - ساحة صراع، وتناطح هويات، وتنافس بين عرقيات وجنسيات. وقد رأينا "الكرة" تحمل أحلام شعوبها من خلال فريق "قومي" "وطني"، في الاستقلال والانفصال عن الكيانات الكبرى كالاتحاد السوفيتي الذي تحللت أوصاله إلى دول ودويلات. ورأينا أن المباريات بين دول يعينها تظن ملتية شرسة تحفل بالتوتر على خلفية الانتماءات والصراعات السياسية، بين

الولايات المتحدة وإيران، وبين عدد لا بأس به من الدول العربية وجاراتها. ورائنا ونرى كيف يعجز اللاعنون عن انتعاشاتهم السياسية والدينية والقومية بما يقولون وبما يحملون من رسوم وشعارات على ملابسهم الرياضية - هذا إضافة إلى الانتعاشات "المؤقتة"، "مدفوعة الثمن"، إلى بعض المنتجات والأسماء التجارية. الرياضة اليوم "حياة موازية" تلقى بظلالها الكثيفة على حياتنا، بل تحركها أو توقفها، كما نجد في شوارع مدينة القاهرة أثناء مباراة مهمة بين فريقين كبيرين أو بين مصر ونوبة أخرى في مسابقة مهمة، أو في ظروف "كروية" حرجية. بل أصبح الرياضيون والمولعون بالرياضة يطلبون منا أن نتعلم منها لصالح حياتنا، فلماذا لا نلعب في حياتنا بروح الفريق؟ ولماذا لا نتعلمون؟ ولماذا لا نتحلى بروح الرياضية؟ ولماذا يجب أن نخسر بسبب الأتانية أو فقدان الحماس؟ في اتجاه معكس، يطلب الحكماء من الرياضيين أن يتعلموا من أمجادهم، وبطولاتهم القومية، وإجازاتهم الحضارية، وأن "يعدوا" لمنافسيهم ما استطاعوا "من قوة"، وأن "يجاهدوا" لرفع راية بلادهم، وأن يكونوا في جهادهم "أسرة" واحدة، وسوف "يتصرهم الله" حتماً.



## نافذة على النافذة

"وبأمرها السيد بأن تكنس الغرفة مرة أخرى فتحت صامنة لأن الغرفة نظيفة ولأن هذا مجرد عذر لكي يتطلع إلى جسمها الجميل. تفتح النافذة، بعد أن يخرج السيد، تصفح الهواء الذي يستقبلها بضخمة عذبة. "تطيرين؟" "أطير". يأخذها إلى مكان تزهو فيه الأسون وتسومض تحت العكاسات في الجدول حيث الماء نقي وشفاف. النساء تستحم والرجال يقطفون ثمار الأسجار والأطفال يمرحون على العشب. تسأل طفلاً: "تلهو منذ وقت طويل ألا تشعر بجوع؟" يضحك الطفل: "هم يتحدثون؟" فنقول له: "سوف تمرض إذا لم تأكل". يهرأ الطفل رأسه: "كنت جائعا ولم أمرض قط". نقول: "ولكن الموت". يضحك عاليا. تسأله: "كمذا تفتح فمك هكذا وتطلق هذا الصوت الغريب؟" يجيبها بدهشة: "أنا أضحك". ثم يجري بعيدا عنها. تحاول أن تفعل مثله. تفتح فمها وتدفع صوتا ممزقا من صدرها. "ماذا تفعلين؟" تغلق النافذة بسرعة. كان السيد يتأمل ظهرها. "تتبعين كالكلية" (أمين صالح: النافذة، ١٩٧٥).

للقوف على بعض ما يشتمل عليه التحليل الوظيفي من إشكاليات وما يشيح من أفاق دلالية وبلاغية، نطالع جزءا من قصة قصيرة جداً هي النافذة لأمين صالح، وتحديدًا ما فيها من أفعال وأحداث وحالات. مجرد مسودة تحليل، وخطوط عريضة تفتقر إلى الشمول والتعمق:

§ "بأمرها السيد": فعل لفظي، يقع (ثبوت) ويشي بسلطة السيد عليها ويؤسس علاقة قهر تمتد إلى النهاية.

§ "تكنس الغرفة": فعل مادي، لم يقع بعد. غير أنه لا بد أن يحدث تأسيسا على العلاقة بين الطرفين.

§ "فتحت صامنة": فعل مادي، لا يقع. الاحتجاج فعل مؤثر، إذا وقع، لكنه يبقى هنا مجرد صوت داخلي غير مسموع.

§ "الغرفة نظيفة": كينونة، حالة، تقرير. هكذا ترى الخادمة الغرفة، وعلى هذا الأساس تستنتج ما يلي.

§ "هذا مجرد عذر": كينونة، استنتاج. لما سبق، وربما لسابق عهدها بسيدتها، وإلا فلماذا اليقين والقصر؟

§ "ينطلق إلى جسمها": فعل ذهني، إدراك، استنتاج أو ملاحظة. لما سبق، وربما لسابق عهدها بسيدتها.

§ "تفتح النافذة": فعل مادي، يقع (ثبوت). هذه لحظة مهمة، وفعل مادي مؤثر إيجابي مثبت.

§ "يخرج السيد": فعل مادي، يقع (ثبوت). فعل آخر مادي إيجابي يتيح الفرصة لشئ من الحرية.

§ "تصافح الهواء": فعل مادي، يقع (ثبوت). لحظة انطلاق إيجابية. هي التي تصافح الهواء، على معنى أنها تملك زمام الفعل.

§ "يستقبلها بضحكة عذبة": سلوكي، يقع (ثبوت). رد فعل إيجابي إزاء انطلاقها وتواصلها.

§ "تطيرين": فعل مادي، لا يقع. هذه دعوة من الطفل تقبلها الخادمة على الفور.

§ "أطير": فعل مادي، لا يقع. قبول الدعوة لا يعني أنها الآن تطير..

§ "ياخذها إلى مكان": فعل مادي، يقع (ثبوت). فعل مادي مؤثر وإيجابي يقع على الخادمة ببعض إرادتها.

§ "ترى فيه الألوان": كينونة، حقيقة، "تومض": مادي، يقع (ثبوت): "تحدث انعكاسات": مادي، يقع (ثبوت): "الماء نقي وشفافاً": كينونة، حقيقة. تتألق الطبيعة في حالاتها وحركاتها تعبيراً عن لحظة الانعقاد والتحرر.

§ "انساء تسبح": مادي، يقع (ثبوت): "الرجال يقطفون ثمار الأشجار": مادي، يقع (ثبوت). ويتناغم البشر مع الطبيعة. ربما يوحي الفعلان "تسبح" و"يقطفون" بتلبية



نداء الشهوة ومن ثم التجدد؛ "الأطفال يمرحون على الضرب": مادي وذهني، يقع (ثبوت).

§ "تسأل طفلاً: لفظي، يقع (ثبوت). المرح غريب عليها، من هنا وجب التسؤل. إنها طفلة أكثر من الأطفال في وعيها بالمرح والاتطاف.

§ "تلهو منذ وقت طويل": مادي وسلوكي، يقع (ثبوت)؛ ألا تشعر بجوع؟ ذهني، استفهام، افتراض. هذه هي حسبتها: إذا طال وقت التلهو، لا بد من الجوع. لكن حسبة الطفل مختلفة، لأن التلهو والمرح إشباع من نوع غير الذي ألفته هي.

§ "يضحك الطفل": سلوكي، يقع (ثبوت)؛ "عم تتحدثين": لفظي، يقع (ثبوت). الاختلاف في الوعي بالجوع والتعب هو الذي يثير الغربة والسؤال.

§ "نقول له": لفظي، يقع (ثبوت)؛ "سوف تمرض": صيرورة؛ "إذا لم تأكل": مادي، سلوكي.

§ "يهر الطفل رامة": مادي، يقع (ثبوت).

§ "كنت جائعاً": كينونة، ذهني، حقيقة. "لم أمرض قط": صيرورة، حقيقة.

§ "نقول": لفظي، يقع (ثبوت).

§ "يضحك عالياً": سلوكي، يقع (ثبوت).

§ "تسأله": لفظي، يقع (ثبوت). في لحظة الالتحاق يصبح التساؤل نوعاً من التعرف إلى العالم الذي لم تألفه الخادمة.

§ "لماذا تفتح فكك هكذا": مادي، يقع (ثبوت). السؤال عن أشياء ربما تبدو في نظر غيرها بديهيات وأموراً غريزية.

§ "تطلق هذا الصوت الغريباً": لفظي، يقع (ثبوت). ليس هذا الصوت مألوفاً لدى الخادمة.

§ "يجيبها بدهشة": لفظي، يقع (ثبوت). لكن الطفل يبقى على تواصله، ويجب عن سؤالها.

§ "أنا أضحك": سنوكي، يقع (ثبوت). ربما لم يجب الطفل عن سؤال كهذا من قبل، ومن هنا تأتي الدهشة.

§ "ثم يجري بعيدا عنها": مادي، يقع (ثبوت). يعود الطفل إلى عالمه، لأن عالم الخادمة يبدو ضيقا عليه، أو لأن لكل منهما خطته وحيته.

§ "تحاول أن تفعل مثله": مادي، لا يقع. المحاولة لا تعني الفعل، ولكنها أفضل من عدمه.

§ "تفتح فمها": مادي، يقع (ثبوت). يبدو أنها لم تعرف الضحك من قبل. وها هي تحاول أن تتعلمه.

§ "تنفع صوتا ممرقا من صدرها": مادي، يقع. فعل إيجابي، مع ما في الصوت من ألم ومعاناة.

§ "ماذا تفطين": مادي، يقع (ثبوت). حذف واستكفر، لا استفهام.

§ "تطلق النفذة بسرعة": مادي، يقع (ثبوت). عودة إلى سجن القهر، وتهيئة لحظة التحرر. فعل الإغلاق ينهي ما بدأ عندما فتحت النفذة.

§ "كأن السيد يتأمل ظهرها": ذهني، يقع (ثبوت). يتأمل جسمها، لا يتأملها هي، أي يتأملها شيئا أو موضوعا، لا بشرا.

§ "تتبعين كالكلبة": لفظي، يقع (ثبوت) إدراك. هكذا يراها سيدها وهذا هو رد فعله تجاه لحظة انطلاقها، وهو يختلف تماما عن رد فعل الطفل والطبيعة، وكان الطفولة والطبيعة هما ما تبقى لها من لحظات بهجة وانطلاق.

لم تكن غلبة هاليداي مجرد تصنيف الأفعال وما يرتبط بها من أنوار، بل الانتقال من ذلك إلى فهم ما تفعل اللغة وهي تصور الواقع وتؤسس علاقات مع الآخرين ومع نفسها. حين نتتبع الأفعال وما يحيط بها من ظروف وأحوال في قصة النفذة، نقف على علاقات القوة والقهر التي تصل، بل تفصل، بين السيد والخادمة التي حوكتها القهر كأننا بدائيا لم نعرف الضحك بعد.



تتجلى علاقة القهر في هذه القصة القصيرة من بدايتها - "يأمرها السيد" ... "ينطلق إلى جسمها" - ولا تقتفي البداية بالإخبار عن محتوى الفعل، بل تشير كذلك إلى الفنة التي ينتمي إليها، وهي فنة الأمر Directives. والأمر في أصل دلالاته يقصد به طلب فعل الشيء على جهة الاستعلاء، كما نورد رجب (٢٠٠٩) في تناوله لفنة طغاة آخرين، وهو في السياق الراهن استعلاء السيد على الخادمة. أما ردُّ الفعل أو الرد، فطاعة مرغمة، واحتجاج "صامت".

هكذا تقع الخادمة تحت قهر السيد من خلال أمره إياها، دونما حاجة حقيقية لما يأمرها به. ومن خلال استلاب عينيها جسمها. لا تستطيع الخادمة المطلوبة على أمرها أن تفعل شيئاً من تلقاء نفسها - "تفتح النافذة" - أو أن تخرج من حيز قهرها إلا عند خروج السيد. ما يتبع ذلك مساحة مؤقتة من الحرية - "تصطحق الهواء"، "يستقبلها بضحكة عذبة". يدعوها الطفل إلى الطيران، فتقبل، ويأخذها إلى مكان "ترهو فيه الألوان"، فتذهب، لتشاهد تآلق الطبيعة في حالاتها وحركاتها تعبيراً عن لحظة الانعقاد والتحرر. في فضاء التحرر "النساء تستحم"، و"الرجال يقطفون ثمار الأشجار"، و"الأطفال يمرحون على العشب"، فيما يشي بالتجدد والبهجة. تنتقل الخادمة إلى فضاء وجودي ودلالي جديد تستطيع فيه التساؤل، وتعرف معنى الضحك، ذلك السلوك الغريب عليها، وتكتشف أن البهجة تُشبع، وتفي المرض.

حين تحاول البهجة، لا تجد إلا قيود سيدها من جديد، يستنكر محاولتها الضحك ويختزل لحظة الحرية، بين فتحها النافذة من تلقاء نفسها وإغلاقها إياها تحت سطوة الخوف، ويعود بها إلى الاستلاب: "كان السيد يتأمل ظهرها" - ينامها شيئاً لا بشراً - ولا يجد في الصوت الذي تخرجه إلا نباحاً كنيحاً "كلية". هكذا يصف السيد صوت الخادمة في صيغة تقريرية مستهجنة وتشبيهية بجردها من أصمتها - "تبحن كالكلية". وهكذا تُعيد ألفة إنتاج الواقع، واقع القهر والسلطة، وهي سلطة مركبة معقدة، تجمع بين السلطة الذكورية وسلطة السيد على الخادمة، من خلال أنواع الأفعال وثبوتها ونفيها، وبنية الجملة من حيث من يفعل ومن يقع عليه الفعل.

ولعلنا نلاحظ فيما سبق بعض ما يقترن بالتحليل الوظيفي، وفق نسق هاليداي، فسي سياق عربي من صعوبات وإشكاليات، فليس كل ما يُعدُّ فعلاً في اللغة الإنجليزية فعلٌ في لغة كالعربية. على سبيل المثال، في جملة "الفرقة نظيفة" في نسخها الإنجليزية، هناك فعل هو "تكون" IS، أما في اللغة العربية فهي مسند إليه ومسند، موضوع ومحمول، أو مبتدأ وخبر، ما يندرج تحت أفعال القلوب، والتصيير، والمقاربة، والشروع، واليقين، والرجحان، هو من قبيل الأفعال الناسخة. أما الأفعال الأساسية في الجملة العربية، فلا يبدو أن لها تصنيفاً يثبته تصنيف هاليداي إلى أفعال مادية، وذهنية، وسلوكية، وهكذا. من ناحية أخرى لا يتمصر تصنيف كل فعل إلى فئة واحدة من الأفعال حتى في اللغة الإنجليزية.



(٧)

## هوامش وتحقيب على مقتطفات من خطاب سياسي

من خطاب الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله<sup>(١)</sup>

مهرجان النصر والتحرير، بشت جبيل

الجمعة، ٢٦ مايو ٢٠٠٠

باسمه تعالى

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

بسم الله الرحمن الرحيم. والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا  
ونبيّنا، حبيب قلوبنا وشفيع ذنوبنا، أبي القاسم محمد ابن عبد الله، وعلى آله  
الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين وعلى جميع أنبياء الله المرسلين وعلى جميع  
الشهداء والمجاهدين في سبيل الله، منذ أدم إلى قيام يوم الدين.

السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته.<sup>(٢)</sup>

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل في هذا الخطاب مناجاةً لله تعالى، ومناجاةً  
للشعب، ومناجاةً للشباب، ومناجاةً للمرأة، ومناجاةً  
للرجل، ومناجاةً للفتاة، ومناجاةً للطفل، ومناجاةً  
للشيخ، ومناجاةً للعلماء، ومناجاةً للرجال، ومناجاةً  
للنساء، ومناجاةً للشباب، ومناجاةً للشيوخ، ومناجاةً  
للجميع، ومناجاةً للجميع.<sup>(٣)</sup>

(١) إشارة إلى المتكلم بوصفه رمزاً دينياً لا مجرد زعيم سياسي، من الواضح أن الموقع الذي نشر الخطاب  
يطلق في صف "حزب الله"، وثو أن الخطاب تُرجم على مواقع غربي أو نشر على مواقع عربي لا يقدم  
"حزب الله" لاختلاف الإشارة.

(٢) فتحة دينية تليق بخطبة جمعة، وتزسب التعمد واعتقاداً، وتشير إلى هوية إسلامية، وتطفي على ما  
يأتي من خطاب سمات القداسة التي تليق بخطاب ديني. من هنا يكتب الخطاب قراً كبيراً من شرعيته  
في بيئة إسلامية.

(٣) اقتباس من القرآن الكريم يرسخ مشروعية الخطاب وشيعة دار الإسلام ودار الحرب، ويستعير صورة  
فرعون في مواجهته مع ضحايا ومع المستضعفين في الأرض للتعبير عن علاقة إسرائيل بضحاياها من  
العرب والمسلمين. وفي الاقتباس تأسيس مربع أيديولوجي يبدؤ في الآخر بوصفه "مفسداً"، والآخر  
بوصفه من "الأمة" "الوارثين".

## أيها الإخوة والأخوات،<sup>(١)</sup>

في يوم المقاومة والتحرير، في يوم الانتصار التاريخي العظيم والكبير، نتلقى هنا في عبق المنطقة التي استعادت الوطن واستعادها الوطن، في أجواء أربعين أبي عبد الله سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليهما السلام، نفؤك من جديد مقولته وخطه، لنثبت من جديد أن الدم هنا ينتصر على السيف، وأن الدم هنا قهر السيف وهزمه، وأن الدم هنا حطم كل قيد، وأن الدم هنا أنزل كل طاغية ومستكبر.<sup>(٢)</sup>

نتلقى هنا لتحتفل بالنصر الذي صنعه الشهادة، وصنعه النماء. عندما نتحدث عن هذا النصر، عن تحرير الأرض، عن حرية الإنسان، عن كرامة الوطن، عن عزة الأمة.. يجب أن نتذكر كل أولئك الذين ساهموا في صنع هذا النصر. قبل كل شيء وبعد كل شيء، نحن عباد الله نعلن أمام العالم كله أن هذا النصر من الله سبحانه وتعالى، هو الذي هدانا إلى طريق المقاومة، هو الذي دلانا سواء السبيل، هو الذي ثبت قلوبنا منذ سنوات طويلة، هو الذي ملأ قلوبنا طمأنينة وأتقنا عشقا للشهادة وهو الذي ألقى في قلوب أعدائنا الرعب. هو الذي رمى وهو الذي أصاب، هو الذي نمر المواقع، هو الذي هدم الحصون، هو الذي قتل الجبابرة، وهو الذي صنع هذا النصر. الله، سبحانه وتعالى، الذي نشكره ونحمده ونسبحه ونستغفره ونسبغ إليه ونخضع له وندعوه أن يتم لنا نصرنا بأن يحرر كل الأرض وكل الأخوة وكل هذه الأمة المعذبة والمظلومة.<sup>(٣)</sup>

لتم فرضتم على العدو شكل الانسحاب ووقفه، وأسقطتم نغم العدو في ميليشيا أنطون لحد، هو كان يراهن على أن تتمترس هذه الميليشيا في مواقعها وتطلق النار، ثم يدخل موقف الأمم المتحدة للتفاوض مع الدولة، وفي مقتل إخلاء المواقع يحصل

(١) الجماعة في مواجهة عدو مشترك، وتأكيد النماء المعظم إلى جمهور سامعين.

(٢) صراع الدم والسيف، صراع من يشعر ومن لا يشعر، الإنسان والجسد. الأنا قرين قتداء والتضحية والآخر قرين البطش والاعتداء.

(٣) النصر من عند الله، اقتباس النص القرآني من خلال الأسلية والمفردات. لا تقتصر حقيقة استدعاء النص القرآني على التبرك، بل تتجاوز إلى استدعاء زماته وأحداثه، بحيث تصبح الحرب بين حزب الله وعدوه غزوة بدر جديدة.



العلاء المجرمون والخونة على العفو. هذا الأمر انتهى أيضاً، انتهى بأن صورة ممكنة لهؤلاء العلاء الذين شاهدتم صورهم، صور إذلالهم عند بوابات فلسطين المحتلة، وشاهدتم كيف تخلى عنهم هذا العدو. (٧)

لما التهديد والوعيد الإسرائيلي فلا نخاف منه اليوم... هم الخائفون على امتداد هذه الحدود وهذا الشريط، لقد خافوا من بعض النساء والأطفال الذين يقفون على الحاجز الحديدي... يخافون من حجر يرمى عليهم (٨) ... أنتم الآن هنا بنت جبيل آمنون سعداء، وهم على امتداد مستعمرات شمال فلسطين المحتلة خائفون ومرتعجون أمام المستقبل المجهول... لقد انتهى الزمن الذي كنا نخاف فيه من التهويل والتهديد الإسرائيلي، وهو يعرف أن الزمن الذي كانت فيه تستبيح طائراته سماعتنا قد ولى، وأن الزمن الذي كانت تستبيح فيه زوارقه مياها الإقليمية قد ولى، وإن أي اعتداء على لبنان لن يقابل بشكوى إلى مجلس الأمن (من مجلس الأمن هذا؟! ولا بالتموع... لن يقابل إلا بالمقاومة.. "إسرائيل" إذا اعتدت على لبنان ستدفع إثماتها غالية. (٩)

قول لكم يا شعبنا في فلسطين: إن إسرائيل هذه التي تمك أسلحة نووية وقوى سلاح جو في المنطقة، والله هي أوهن من بيت العنكبوت! لكن إذا كنتم تريدون الاعتماد على الاتحاد السوفياتي كما كان في السابق فأن تصلوا إلى نتيجة، إذا كنتم تنظرون المجتمع الدولي فأن تصلوا إلى نتيجة، إذا كنتم تراهنون على المعادلات فأن تصلوا إلى نتيجة. (١٠)

(٧) "قن"، لا "نحن" ولا "أنا". المخاطب هو القاعل الذي يستحق الثناء. توضع صان نصر الله وربما نكساره في إظهار هذا التوضع من خلال الاحتفاء بالمستبح، لا بالذات، والتهوين من غير العدو الآخر. أنتم المنتصرون الآمنون، وهم الخائفون.

(٨) الآخر الخائف.

(٩) أنتم وهن، الأمن والخوف؛ من الماضي إلى الحاضر - من التهديد إلى الخوف (إسرائيل)، ومن الخوف إلى الثقة (حزب الله) - إلى المستقبل - حزب الله يتوعد ويهتد.

(١٠) الآخر الضعيف، والآخر الذي لا يرجى منه خير أو عون.

يا شعب فلسطين: إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، يا شعب فلسطين: إن ينصركم الله فلا غالب لكم. (11)

وقول لشعوبنا العربية والإسلامية: أيتها الأمة العربية، يا عالمنا العربي والإسلامي، الخزي والهزيمة والذل والعار من الماضي. هذا الانتصار يؤسس لحقبة تاريخية جديدة ويقتل الباب على حقبة تاريخية ماضية (12).. ضعوا اليأس جانباً وتسليحوا بالأمل، ضعوا الوهن جانباً واشحذوا الهمم والعزائم (13). انتهى اليوم، باسم كل الشهداء في لبنان، باسم كل المظلومين في لبنان، أطالب الحكومات العربية، بالحد الأدنى، أن توقف التطبيع مع إسرائيل، أن تقطع علاقاتها بـ "إسرائيل"، أن ترفض موقفها وقرارها على إسرائيل، وأطالب الشعوب العربية بأن تقف إلى جانب فلسطين وشعب فلسطين، وأن ترفض أي شكل من أشكال التطبيع مع هذا العدو (14).. إسرائيل الكبرى هزمتها المقاومة، إسرائيل العظمى تهزمها المقاومة، وأحد أشكالها المهمة مقاومة التطبيع. (15)

وكل نصر وكل عيد وأنتم بخير  
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(11) آيات من القرآن الكريم، وإسقاط الموقف الذي نزلت فيه الآية على اللحظة الراهنة، بما في ذلك من تصنيف ضمنياً إلى فئة تقتل في سبيل الله وأخرى طاغية.

(12) لحظة فارقة بين حقيقتين.

(13) مستعرات دالة تجعل من المجردات أردية خلخع وأسلحة تحمل أو تسحق.

(14) هو فوج في شرك التعريف المستورد من الغرب.

(15) إعادة تعريف المقاومة.



## تقديم

هذا خطاب يتكى على النص القرآني والتراث الإسلامي، لتحقيق قدر كبير من بلاغته وتوصيل رسالته، من خلال الاقتباس الصريح، والأسلية، أي استلهم أسلوب القرآن الكريم، وتركيبه، ومفرداته، واستلهم المشاهد القرآنية التي تصف مواجهات المؤمنين مع غير المؤمنين، وكذا استلهم الشخصيات التي تنتمي إلى هذين المعسكرين، من وجهة نظر المتكلم - الإمام الحسين في مواجهة فرعون وهامان. ليس من الضرورة اقتفاء كل طرائق السبك والحيك في الخطاب، فهما من مقوماته التي لا تستعصى على متكلم بارع مثل نصر الله، أصبح حضوره "البلاغي" بارزاً، وحقق شعبية جارفة من مبرراتها قدراته الخطابية ووعيه اللغوي. على سبيل التمثيل لا الحصر ما نجد من توازن تركيبى وتكرار في: "أَنْ الزمن الذي كنت فيه تستبجح طوقاته سمائياً قد ولى"، و"أَنْ الزمن الذي كنت تستبجح نبياته أرضاً قد ولى"، و"أَنْ الزمن الذي كنت تستبجح فيه زوارقه مياهاً الإكليلية قد ولى". في هذه التراكيب اغتصاب واحتلال وانتهاك يقع على "سمائنا" (سماء المتكلم ومن ينتمي إليه) و"أرضنا" و"مياهاً" على يد "طائرات" (طائرات العدو) و"نبيات" و"زوارق".

وفي الخطاب ما في جملة الخطابة السياسية من توظيف الاستعارة. على سبيل التمثيل نرد استعارات "الدم ... ينتصر على السيف"، و"الدم ... حطم كل قيد"، و"صنعه الشهادة"، و"صنعه النداء"، و"تحرير الأرض"، و"كرامة الوطن"، و"عزة الأمة"، و"ضعوا اليأس جانباً وتسلحوا بالأمل"، و"ضعوا الوهن جانباً واشحنوا الهمم والعزائم". يبدو أن الاستعارة المحورية هنا هي استعارة الدم والسيف، ويرد التفريق بينهما في هامش على الخطاب، ولا بد أن يقع التعاطف، على الأقل تعاطف الأخيار الطيبين، مع النداء التي تسيل، لا مع السيوف التي تقتل.

وفي الخطاب مواجهة بين معسكرين - هما بلغة جورج بوش معسكر "الخير" ومعسكر "الشر"، غير أن أشرار بوش ليسوا هم أشرار نصر الله، ولا أخياره أخياره

- بين المتكلم، وأخوته وأخواته المستمعين، والمناصرين، والشهداء، والمستضعفين، وأبناء فلسطين، والإمام الحسين، وما يرتبط به من قيمة الاستشهاد والتضحية والتماء ("نحن" في المربع الأيديولوجي للخطاب)، من ناحية، وبين فرعون، وهامان، وإسرائيل، ومن يساندها، وعمامة المفسدين، والطغاة، والمتكبرين، وما يحملون في وجه المؤمنين من سيوف، ومعهم الغلاء المجرمون والخوثة ("هم/ الآخر العدو" في المربع الأيديولوجي للخطاب)، من الناحية الأخرى.

تتحدث بؤرة الخطاب من حيث زمانه ومكانه في "تلتقي هنا" (مكان) "في يوم المقاومة والتحرير، في يوم الانتصار التاريخي العظيم والكبير" (زمان)، و"تلتقي هنا في عسق المنطقة التي استعادت الوطن واستعادت الوطن" (مكان)، و"في أجواء أربعين أبي عبد الله سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليهما السلام" (زمان). من هذه البؤرة يشير الخطاب إلى ماض قريب، ماض من التهديد والعدوان والاحتلال الإسرائيلي - "الزمن الذي كانت تستبجح دباباته أرضنا قد ولى، و... الزمن الذي كانت تستبجح فيه زوارقه مياها الإقليمية قد ولى"، و"الخزي والهزيمة والذل والعار من الماضي. هذا الانتصار يؤسس لحقبة تاريخية جديدة ويقفل الباب على حقبة تاريخية ماضية" - وماض بعيد، ماضي الغزوات الإسلامية الكبرى والإمام الحسين. كما يشير الخطاب إلى أماكن أخرى - "واسقطنم لغم العدو في ميليشيا أنطون لحد"، و"صور إذلالهم عند بوابات فلسطين المحتلة"، و"هم الخائفون على امتداد هذه الحدود"، و"هم على امتداد مستعمرات شمال فلسطين المحتلة خائفون"، وإلى المجتمع الدولي والاتحاد السوفيتي الذي لا يثق المتكلم في قدرة أي منهما على مساعدة فلسطين، وإلى الأمتين العربية والإسلامية، وما ينبغي عليهما، من وجهة نظر المتكلم، من ضرورة مقاومة التطبيع مع إسرائيل.

تتجاوز الإشارة معناها القريب هنا لتؤسس، من خلال الاستلهام والاحتباس، وربما الاحتذاء كما في "لتؤكد من جديد مقولته وخطة"، انتماءات وتكتلات تمتد عبر الزمان - من فرعون وهامان إلى إسرائيل، ومن غزوة بدر والإمام الحسين إلى حزب الله -



والمكان - لبنان وفلسطين والأمم العربية والإسلامية في مواجهة إسرائيل وأعوانها.

وفي الخطاب إيمانٌ بقضاء الله وقدره - قد يقول من لا يحب حسن نصر الله إنه إيهام بالإيمان، أو وسيلة بلاغية لتحقيق غايات تواصلية سياسية - ينسجم مع انتماء المتكلم وعقيدته، وينسجم مع جملة الاقتباسات القرآنية والإحالات إلى التراث الإسلامي، ويتبدى، إضافة إلى ما سبق، في نسبة فعل النصر وما يرتبط به إلى الله تعالى، من خلال أفعال ذهنية، وتعبير مجازية يرد فيها ضمير يشير إلى لفظ الجلالة - "هو" - متبوعاً بجملة موصولة، الفاعل فيها هو هذا الضمير، وقد صار مستتراً، ومن يقع عليهم الفعل بالسلب هم الأعداء، وعلى معسكر الإيمان بالإيجاب: "هذا النصر من الله سبحانه وتعالى، هو الذي هدانا إلى طريق المقاومة، هو الذي دلّنا سواء السبيل، هو الذي ثبت قلوبنا منذ سنوات طويلة، هو الذي ملأ قلوبنا طمأنينة وأنفسنا عشقاً للشهادة وهو الذي ألقى في قلوب أعدائنا الرعب. هو الذي رمى وهو الذي أصاب، هو الذي دمر المواقف، هو الذي هدم الحصون، هو الذي قتل الجبابرة، وهو الذي صنع هذا النصر".

حين ينسب المتكلم أفعالاً إيجابية إلى البشر، فإنه ينسبها إلى الحضور: "انتم فرضتم على العدو شكل الانسحاب ووقته، وأسقطتم لغم العدو"، أما هو فيطالب، ويشعر، ويعتقد، وفي هذا تكريم لمن شاركوا، من "فرضوا" ومن "أسقطوا"، واستجلاب لمزيد من ولائهم وانتمائهم، وفيه كذلك إنكار للذات من جانب المتكلم. أما الآخرون فمنهم الصلاء والخونة (من يتواطؤون مع إسرائيل)، ومنهم من يحتاج نصيحة نصر الله (الأمم العربية والإسلامية وأبناء فلسطين)، ومنهم من يحتمى بترساته العسكرية، وبينه أوهن من بيت العنكبوت (إسرائيل)، ومنهم من لا يجب الاعتماد على دعمه أو عون (الاتحاد السوفيتي والمجتمع الدولي)، ومنهم من يستحق السخرية (مجلس الأمن - "من مجلس الأمن هذا؟!"). هذه اللفظة الأخيرة تشير على استحياء إلى سمة من سمات المتكلم الخطابية، وهي توظيف الفكاهة والسخرية.

وهكذا، يُبقى المتكلم على حضوره وتأثيره من خلال أفعاله اللغوية البلاغية، أي من خلال ما يفعل بالكلمات والافتباسات والإحالات، فيؤسس قسمة بين معسكرين عبر الزمان والمكان، معسكرنا (الخير والدم والشهادة والإيمان والانتماء إلى الله)، ومعسكرهم (الشرّ والسيف والعدوان والطغيان ومُعَاداة الله عزّ وجلّ)، ويوظف الانتصار الذي تحقق للتمييز بين حقيبتين - من حقبة الخوف إلى حقبة الأمن والثقة عند حزب الله، ومن حقبة التهديد والاعتداء إلى حقبة الخوف في إسرائيل.



(٨)

## نصوص بصرية



تجريد (المعطومات في رسم بياني) ثم تجسيد (الرسم البياني إلى جسم قابل للحصد)  
(من الوطن السعودية، ٣ يوليو ٢٠٠٨).



إعلان على شبكة الإنترنت تتضافر فيه الاستعارة اللغوية ("الحواجز" اللغوية)  
مع الاستعارة البصرية ("الجدار" الذي يهتزم).



في كل استعارة اندماج fusion بين عالمين أو فضاءين دلاليين. الاندماج في هذا النص بين  
عالم البشر - "موجابي" - وعالم الكائنات البحرية - الإخطبوط. ما ينتج عن الاندماج هو "رجل  
إخطبوط" أو "إخطبوط بشري" (الخليج، ٥ يوليو ٢٠٠٨)